أورهان كمال

مفتش المفتشين

رواية

ترجمة

عبدالقادر عبداللي

مدى

مفتش المفتشين



Author: Orhan Kemal
Title: MUFETTISLER MUFETTISI
Translator: Abd Al kader Abdelli
Al- Mada P.C.
First Edition : 2009

اسـم المـؤلـف : أورهان كمال
عنوان الكتـاب : مفتش المفتشين
المتـــــــرجم : عبد القادر عبد اللي
الـنـاشـــــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ٢٠٠٩

طبع بدعم من وزارة الثقافة
والسياحة التركية ضمن مشروع (TEDA)

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
E-mail:almada112@yahoo.com

أورهان كمال

مفتش المفتشين

رواية

ترجمة: عبد القادر عبد اللي



كان قد شوهد في الساعة الثامنة والنصف مساء يدخل الخمارة الصغيرة. من رآه هتف على نحو لا ارادي: اخ من أمه! من هذا ؟

تبدو عليه هيبة محافظ أو نائب في البرلمان أو رئيس حزب، ومن يدري قد يكون وزيراً. يضع قبعة اسطوانية بنية، يرتدي طاقماً بنياً مقلماً بالأسود، بربطة عنق حمراء معرقة بالأسود، مرتديا السترة والصدرية في مساء شهر آب هذا برغم انه كان يتصبب عرقاً، ويحمل حقيبة منتفخة لا أحد يعرف ما فيها من أوراق.

لم يهرع اليه النادل فقط، بل والخمار الذي يرتدي بنطالاً رمادياً يكاد ينفجر لضيقه. شمّر عن ذراعيه المشعرين حتى المرفقين وقال: "تفضل يا حضرة السيد!".

لم يعر "حضرة السيد" انتباهاً، متفهّماً لا الخمارة ومن فيها فقط، بل ومحافظ هذه المدينة، ومدير أمنها، وقائد دركها، ومحاميها بقاماتهم وأنواعهم، وقضاتها، ومدرسي الثانوية ودار المعلمين والمعهد التقني ومديريها، ورجال أعمالها أيضاً. كان كبير القدمين، ضخم البنية، بوجه مكتنز، وبحاجبين عريضين أسودين، وبشاربين أسودين فاحمين يضيقان عند طرفي الفم، وأنف ضخم.

بدأ يصر بحذائه الأصفر المزدوج النعل على أرض الخمارة من دون أن ينظر إلى أحد، ومن دون أن يعتبر من هم هناك بشراً حتى وصل إلى الداخل. عند المقعد الخشبي الطويل توقف، خلع قبعته الأسطوانية، وبدأت صلعته التي تتوسط رأسه الضخم تلتمع تحت مصباح الخمارة الأصفر المغبر.

نظر بعد ذلك إلى اليمين، وإلى اليسار، متخلياً عن مكان التعليق الخاص بالقبعات، باحثاً عن علاّقة عادية فلم يجد. طبعا ما كان يليق به أن يعلق قبعته على مسمار حدوة البغل الصدئ المدقوق بالجدار غير المدهون قبالته.

أصدر الخمّار أمره: "هل آخذ قبعة حضرة السيد؟"

لم يعطه "حضرة السيد" قبعته، حتى أنه لم ينظر إليه. نقل قبعته إلى يده اليمنى التي يحمل بها الحقيبة، ومرّ برأس سبابته الغليظة على النايلون المزيّت والباهت الممدود على الطاولة الخشبية، ومن دون أن ينظر إلى المعلم والنادل، أشار إليهما برأس أصبعه المتسخ من فوق كتفه، وسأل بصوت أجش: "ما هذه القذارة؟"

وبحركة سريعة التفت وأشار إلى الجدران القذرة، وقال: "ما هذه السفالة؟ انظروا إلى قباحة هذه الجدران! ما هذه الاستهانة بالزبائن؟ ألا تأتي اللجان الصحية إلى هنا؟ ألا يفتشون؟ إذا كانوا يفعلون، فلماذا لا يغلقون المحل؟"

التفت بعينيه الواسعتين المحمرتين قليلاً، والمنتظرتين جواباً من صاحب الخمارة أكثر من النادل، مع نظرة غضب. في هذه الأثناء كان صاحب الخمارة ثملا جداً يتجرع النبيذ خلف البسطة من دون أن يشعر به

أحد من الزبائن. بلع ريقه، وابتسم خطأ، ثم أدرك أهمية الوضع، وحاول أن يقول شيئاً أو يجد البعض من الذرائع. لكن "حضرة السيد" أشار برأسه إلى مسمار حدوة البغل الصدئ على الجدار الذي قبالته تماماً وقال: "انظر إلى هذا! ما هذا؟ هل تسميه علاّقة؟"

نظر إلى القبعة التي تذكر بحبة بطاطا ضخمة، وأمعن النظر فيها.

خفض الخمّار عينيه إلى الأسفل خائفاً. صحيح أنه لا يعرف بعد من يكون هذا الرجل الا أنه محقّ من الأرض إلى السماء، محّق لأن خمارته كانت قذرة حقا. فطلاء جدرانها متقشر، ورُسم عليها بقلم الرصاص أو الألوان رسوماً معيبة، كما كتبت عليها عبارات فاضحة. لندع علاّقة المعاطف والقبعات والسترات جانباً، لأنه لم تكن هناك علاّقة عادية، بل لم تكن هناك واحدة أصلا، لكن أحداً من زبائنه لم ينبهه الى أن جدران خمارته قذرة وقد تساقط دهانها وطلاؤها الإسمنتي خلال توالي السنين والفصول، كما لم ينبه على الرسوم والكتابات الفاضحة المحفورة عليها، أما عن التعليقات الساذجة التي تطلق وسط دخان السجائر وأصحابها الذين يعتقدون أنهم نجوم أفلام السينما المحلية فحدث ولا حرج. لا، لا أحد من هؤلاء من ذكّره بطلاء الجدران، وبوساخة البسطة الخشبية، ولاسيما عدم وجود علاّقة!

"هات كأس نبيذ لكي أرى!"

هرع الخمار ببنطاله المفتوق من مؤخرته، وبطنه الكبيرة بغباء نحو بسطته. وبيديه المرتجفتين جاء بكأس نبيذ أحمر وهو مندهش متخبط.

"تفضل يا سيدي"

أدار ظهره للنادل، وراح ينظر إلى صوّر كبار رجال الحزب المصطفين

على نحو متجاور على الجدار بطباعة حجرية قديمة، ثم حوّل نظره إلى يديه وقبعته وحقيبته التي ما زالت بيده.

سأل من دون أن ينظر: "من أي حزب أنت؟"

لم يصل الخمار إلى تحديد قطعي لهوية السائل، لكن ما كانت لديه أية ذرة من الشك في كونه "متنفذ" حاد الأنياب. كان الكأس المليء بالنبيذ يرتجف بيده وتمتم باسم حزب السلطة. وبالتفاتة مفاجئة وحادة وغاضبة، وحتى منفعلة، تقابل الاثنان وجهاً لوجه، وبدأ: "جميل جداً... ألا تخجل إذن من تعليق صور هذه الشخصيات المحترمة على هذا الجدار القذر ليشمت بها أحد من المعارضة؟"

التفت إلى الذين في الخمارة وقد تحولوا جميعاً إلى آذان صاغية: "سأسألكم أيها المواطنون المحترمون: ألست على حق؟ هل لهذا المواطن الحزبي الحق بتعذيب هذه الشخصيات المحترمة جداً على جدران هذه الخمارة المقرفة والمؤلمة؟"

كان بين الذين في الخمارة من أتباع الحزب المعارض، ولكنهم تأثروا بالرجل إلى حد أن الجميع قال بصوت واحد: "لا! مستحيل!"

"بالتأكيد لا، وبالتأكيد مستحيل. لأن هؤلاء يفكرون ويقرؤون ويكتبون ليلاً نهاراً من أجل تطور هذا الوطن ورفعته، وإذا بهذا المواطن، بلامبالاته، يجعل من وجودهم غريباً"

ولأن المواطن فقد شيئا من عقله اكتفى بالقول: "يا سيدي؟"

لا صوت من أحد. لا من الخمار ولا من النادل، أما الذين في الخمارة فقد أمسكوا قبعاتهم الكسكيت أو المدورة المدعوكة وبدوا كأن حليباً صبّ أمامهم بدل النبيذ. ولكن صوتاً ناشزاً من شخص كان يشرب

واقفاً عند طرف طاولة البيع القريب من الباب، قال: "لا يمكن أن نصبح مثل الخلق في العالم!"

التفت "المتنفذ" بحدة نحو الجهة التي أتى منها الصوت. كانت نظرة صاعقة جعلت صاحب الصوت يخاف من أن يكون محطّ نظر، ويُفهم على نحو خاطئ، فأضاف: "الله لا يحرمنا من الكبار أمثالكم. بشرفي إن هذه الكلمات مثل الذهب والماس. ولكن... أين الذين يفهمون الكلام؟"

مدّ "المتنفذ" يده إلى كأس النبيذ المرتجف بيد الساقي، وقال: "هات لكي نرى". أخذ الكأس ورفعه نحو المصباح المغبر الصغير المعلق بسقف الخمارة، وبدأ يدوّره ويتأمله بينما تزداد تقطيبة وجهه اشمئزازا: وسخ، وسخ!

كان كل شي من الجدران إلى المقاعد، مروراً بالسقف والمصباح المغبر والأرض والفرش وكؤوس النبيذ غارقاً بالقذارة..

ارتشف رشفة صغيرة بملامس شفتيه المكتنزتين محاولاً ألا تمسا الكأس القذر. تخبّط وجهه ثم نفث الرشفة التي في فمه على أرض الخمارة. مدّ الكأس بقرف، وقال: "خذ، خذ، خذ!" ومسح شفتيه بقفا يده الضخمة المشعرة، ثم أضاف: "ليس نبيذاً، بل قذارة!"

أخرج من جيب بنطاله منديلاً أبيضَ، ومسح شفتيه مطولاً، ثم سأل: "هذا يعني أنكم تكسبون نقوداً بذريعة تسميم مواطنينا بهذا النبيذ المقرف، في هذا المكان الوسخ غير الصحي؟ هل هذا هو حب المواطن؟ هل هذه هي الوطنية؟"

صمتت الخمارة كلها، أما هو فقد أحنى رأسه إلى أمام، وسحق الناس المتجمدين بنظراته الصادرة عن عينين بياضهما محمران يعلوهما

حاجبان كثيفان. سحقهم، سحقهم. ثم التفت إلى الخمار وسأله بحدة: "ألا تمر لجان الصحة التابعة للبلدية إلى هنا؟"

التفت صاحب الخمارة إلى النادل، وابتسم، ثم عاد إلى الجد، وقال: "تمر بين فترة وأخرى يا سيدي."

"ألا ترى هذه الوساخة، واللامبالاة؟ وهذا النبيذ الذي يشبه كل شي عدا النبيذ؟"

تنهد الخمار، وخفض بصره يائساً.

شعر "المتنفذ" بشيء ما، وقال: "فهمت، فهمت. حسنٌ!"

أخرج من جيب المنديل في سترته دفتراً جلده أحمر وزعه أحد البنوك هدية بمناسبة رأس السنة، وقلم حبر جاف اشتراه من بسطة في باب سوق مصر في اسطنبول بخمس ليرات لكنه بدا فخما، وبحث عن لوحة الخمارة داخل الدكان. لم يجدها. وبينما كان يخرج من الحانة بخطوات مريحة بقدميه الضخمتين وحذائيه الموقعَين لصوت: ظط، ظط، ظط، انحنى الزبائن الذين أمسكوا بأياديهم قبعات مدورة أو كسكيتات "للمتنفذ" محيين، أما هو فقد اتجه نحو الخارج واضعا يديه خلف ظهره، حاملا بهما حقيبة وقبعة ودفتراً أحمر الغلاف وقلم حبر جاف. ما إن بدأ الباقون في الداخل يتساءلون فيما بينهم بإشارات العيون والحواجب عمن يكون هذا الرجل، كان هو عند باب الدكان يتظاهر بتدوين اسم الخمارة واسم صاحبها وكنيته المكتوبة بأحرف بشعة باللون الأبيض على قطعة خشب معاكس مدهون بالأحمر بدفتره، وبعد هذا بدأ يبتعد بوقع خطى: ظط، ظط، ظط..

كان الوقت ليلاً، تحاول مصابيح صغيرة موزعة على أماكن رئيسية من الأزقة إضاءته.

في هذه اللحظة فكّت عقد ألسن الذين كانوا في الخمارة.

"الرجل شخص قوي، ومدعوم يا صديقي!"

"متنفذ!"

"قوي!"

"نعم قوي، متنفذ في أي موقع؟"

"ليكن أينما كان. متنفذ وكفى!"

"يمكن أن يكون مفتش الصحة الجديد في البلدية!"

"لا يا عزيزي"

"لماذا؟"

"أما رأيت هيبته؟ إنها هيبة وزير، أو رئيس وزارة!"

"وهل هو حزبي؟"

"الرجل حزبي حتى النخاع!"

"يمكن أن يكون مفتش حزبي؟"

"أما حكى عن لجان الصحة، وما الصحة؟ هذا يعني أنه مفتش فوق لجان التفتيش تلك؟"

"ماذا لو كان نائباً؟"

"ممكن، ممكن.."

"انتظروا قليلاً! ماذا لو كان وزيراً ؟"

"من نبرة كلامه، والله ممكن أن يكون رئيس وزارة!"

"................."

"................."

"................."

الصوت الثمل الذي وجد "المتنفذ" على حق قبل قليل، ازداد سكراً، وقال: "يا نصيب.. بعرض أمي حدث يا نصيب في هذا المساء.."

"إنه ذاهب ولاه، أركض!"

"اركض، اركض!"

"بعد ذلك والله ستتخوزق بمكانك هه؟"

"وهل ممكن ألا يتخوزق؟"

"هذا واحد مرت عليه نوائب الدهر؟"

"عتيق يلقطها وهي طائرة!"

ارتبك الخمار فيما يفعل، وما يجب أن يفعل، متطلعا الى ما حوله بذهول.

قال جاره البقال: "لا تتلفت فيما حولك ولاه، لا تتلفت!"

"ماذا أعمل؟"

"ألا تعرف ما يجب أن تفعله؟ وهل بدأت الشغل بالدكان قريباً؟"

"ماذا لو كان نائباً أو وزيراً؟"

"أو صاحب قرار!"

أصوات من اليمين واليسار: "نعم ياه"

"طالما أنه إنسان، وطالما له فم.."

"هذا كل شيء!"

اقتنع الخمار تماماً. هرع إلى بسطته، وسحب الدرج. وكأن الحظ يعاكسه، فلم تكن هناك قطعة من فئة الخمسين أو المئة، بل كلها كانت من فئة العشرة والخمسة والليرتين ونصف.

أخذ كمشة عشوائية وانطلق يحمل بيده رزمة النقود القذرة. سواء

كان باشا في الدولة، أو جيفة غراب، وحتى إن كان نائباً أو وزيراً، فهو لا يريد أن يُصعب الأمور عليه. لينهي الأمر بأربعين أو خمسين ليرة، وينقذ الخمارة من الإغلاق."

كان "المتنفذ" في الزقاق الترابي المغبر الذي تنيره كهرباء ضعيفة في ليلة أناضولية حارة، وعلى وشك الخروج إلى الشارع، وأدرك أن القادم وراءه راكضاً هو الخمّار حتى من دون أن يلتفت.

بعد قليل قال صوت الخمار المحروق: "يا حضرة السيد! لحظة يا حضرة السيد!"

توقف السيد واستدار استدارة أقل تكبرا مما كان يبديه في الخمارة: "ماذا هناك؟"

"سلامتكم يا حضرة السيد!"

"وما علاقتك بسلامتي؟"

ضحك الخمّار مرة أخرى وشعر بأنه أخطأ فاتخذ هيئة الجد: "لم نبيض الوجه بتفتيشكم قبل قليل يا حضرة السيد. أعرف أن الخمارة وسخة جداً. الحيطان غير مدهونة، والنبيذ.. ولكن ماذا أفعل؟ الصغير يقصّر، والكبير يصفح، يا حضرة السيد!"

قال محتداً: "يا! هكذا إذن؟ تسمم المواطنين بنبيذ وسخ، وتعرض قلة أدبك وعدم احترامك لكبار رجال الحزب، وبعد ذلك، تطالب بالصفح؟"

تجمد صاحب الخمارة.

"رد!"

لا شيء يرد به بل راح يبتلع ريقه باستمرار، وإذا ما ابتسم خطأ قبل ذلك فهو الآن عاد إلى رشده. كان "المتنفذ" على حق، ولكن هل

الذنب ذنب الخمّار إذا كانت اللجان الصحية التابعة للبلدية لا تمر، والطبيب لا يعرج عليه، والزبائن لا يريدون الأفضل والأنظف؟ وفوق هذا فهو صاحب محل من سنين طويلة، وطوال تلك الفترة لم يأت أي "متنفذ" كهذا على هذا النحو مثل اليانصيب.

لوى رقبته وقال: "عندي خمسة أولاد يا حضرة المحترم. وحماتي، وابنة حمي مات زوجها أطال الله بعمركم، وعندها ولدان.. "

"اختصر!"

"يصيرون مع أولادي سبعة، وزوجتي ثمانية، وحماتي تسعة، وابنة حمي عشرة.."

"أما قلت لك اختصر؟!"

"في تفتيشكم القادم سترون الحيطان مدهونة.. وسأؤطر صور كبار رجالاتنا.. والنبيذ أيضاً.."

"اختصر ولاه!"

الخمار من أنصار الاختصار، ولكن ماذا لو وقعت له مصيبة عندما يمد له النقود؟

مدّها وليحصل ما يحصل: "لا تليق بحضرة مقامكم، ولكن.."

نظر "المتنفذ" إلى لفة النقود التي بيد الخمار مندهشاً كأنه لم يشهد شيئاً كهذا حتى الآن، ولم يأخذ نقوداً كهذه من أصحاب المحلات التي يجول عليها في الأماكن التي يقصدها!

"ما هذا؟"

"وسخة قليلاً، ولكن عدم المؤاخذة يا سيدي!"

"نقود ماذا تعني؟"

"لم تكن هناك قطعة خمسين أو مئة.."

انسحق الخمار معتقداً أن بلطته قد اصطدمت بالصخر، فقال متلعثما: "يا سيدي المحترم، يا سيدي المحترم. وقعت بجهالة، الله يبعث لي البلاء. يا حضرة السيد، الصغير يقصر، والكبير يصفح. بشرفي لم أعرف. يعني الموظفون الصغار، والمدراء.."

"يتدبرون الأمور، وبعد ذلك تقول أطعمت المخبول، أليس كذلك؟"

"حاشا مقام حضرتكم، حاشا وكلا مقام حضرتكم!"

"أعرفكم أنا، أعرفكم مثلما أعرف راحة يدي. ولولا معرفتي بأنك تتحمل عبء إعاشة عائلة من ثمانية أو عشرة أشخاص، لما تركتك. مهما يكن.. العمل الجيد لا يليق بكم! والآن ستعود إلى دكانك فوراً، وتتباهى أمام مجموعة المتسكعين الجاهلين الذي سكروا بنبيذك القذر!"

"أنا يا حضرة السيد؟ أنا؟"

"أنت، وهو، والآخر.. كلكم متشابهون. لا يوجد مثلكم من يقوم بتشويه سمعة الموظفين والمديرين، والعمل من الحبة قبة، ومن البرغوث جملاً. أي سفلة ثرثارين أنتم."

"والله أنا لست من أولئك الذين لم يرضعوا حليب أمهاتهم يا سيدي المحترم. أنت تشفق على حالي، وتعمل معي خيراً، وتتخلى عن إغلاق خمارتي، وأنا أروح وأحكي عنكم باطلاً؟ هذه سفالة. حتى الأفعى لا تعض من يسقي العطشان. الله يمحق من يسيء على هذا النحو لمن عمل خيراً بجاه اسمه العظيم!"

رمق "المتنفذ" بعينيه. رآه يستمع طائعاً وقد لان. استمد الجرأة، وأكمل حديثه: "أنا لست من هذه الزمرة التي تتباهى هنا وهناك، وتحب

قـذف الموظفين والمديرين من خلف ظهـورهم. مـا السـبب؟ لأننا إذا كنا متـغـيـرين، فـأنتم ثابتون! إذا تصرفت بسفالـة بحقكم اليـوم، فإن الذين سيأتون مكانكم سيقـولون: يا، هذا يعني أنه كان يعـمل مع الذين قبلي هكذا ويثأر لسيـادتكم مني! وكما يُقال فإن الثعلب مهـما لف ودار فإن نهايتـه عند بائع الفراء يا حضـرة السيـد. أنا إذا بصقت الدم فلن أقـول هذا، وأقول إنني شربت شراب القرانيا."

سحب رزمة النقود القذرة من يد الخمار وأخذها، وقـال: "والله أنت حـر، اعـمل مـا تريد. أنا لا أخـاف من أحد أبداً، ولا من أي أحـد! كم هذه؟"

"والله لم أعدها يا حضرة السيد. كل ما في درجي"

"حسنٌ، ولكن هل أنا متسول؟"

"أستـغـفـر الله يا حضـرة السيـد. كنت غيـر جاهز.. جمـعت مـا في الدرج.. معلوم، الوقت وقت كسـاد. وحضـرة سيـادتكم على علم بكل شي. إن شاء الله في المرة القادمة ستجدون الحيطان مدهونة، وصور كبار رجالات حزبنا.."

كان قد دسّ لفة النقـود الممزقـة الوسخة في جيب بنطاله، وقال: "لا مشكلة إذا لم أجدها. ولكن انتبه إذا ما خرجت من فمك كلمة واحدة.."

"لا تخرج يا حضرة السيد، وهل أنا مجنون؟"

"لن تحصل على شيء من جهة و.."

"تغلقون خمارتي من جهة ثانية، ألا أعرف؟"

"هذا لا يعرف. أأجعلهم يغلقونها أو أمنعك من ممارسة المهنة؟"

"يدكم تطول، وتطول يا حضـرة السيـد. تعملون كل مـا تريدون. لا

تشغلوا بالكم، فأنا لم أنزل من بطن قحبة! أنا صاحب دكان من سنين طويلة، ولم يقطعني الآمرون والمأمورون، وما أوجعت رأس أحدا منهم، ولا أوجعني رأسي. أنا سمعت نصيحة المرحوم أبي. كان يقول: حفظ اللسان من سلامة الإنسان.."

"حسنٌ، يا الله لنر"

"مع السلامة يا حضرة السيد، الله يوفقكم بشغلكم. تسلموا، ودمتم لنا"

ابتعد "المتنفذ" بوقع قدميه قبله، ثم صعد رصيف الطريق المبلط الذي يربط المحطة بالمدينة وتوقف. بعد فترة قصيرة وصل حنطور، ولحظة عبوره من أمام "المتنفذ" ناداه: "يا حوذي!"

كان الحوذي النحيل الضئيل شبه المخمور يردد أغنية، فقال: "نعم!"

"هل أنت فاضي؟"

استعاد وعيه، ووقف الحنطور فجأة، وقال: "فاضي يا سيدي، تفضلوا!"

قبل أن يخطو إلى الحنطور نقل الحقيبة التي كانت وراء ظهره إلى يده اليسرى، وتمسك باليمنى التي فرغت بالحنطور مرتفعا بها. في اللحظة التي خطى فيها الحنطور أصدر صريراً، وتأرجح، ومال كأنه سيسقط حتى إن الحوذي اضطر للتمسك كي لا يقع، وقال لنفسه: "آخ من أمه.. الرجل يمكن أن يزن مئة وعشرين كيلو على الأقل!"

....

حقيقة لم يدع الخمار فرصة لزبائنه بالحديث وقال: "ما علاقتكم أنتم؟"

"فهمنا يا عزيزي، شي بينكم.. حسنٌ، ما عمله؟"
"ليكن ما يكون!"
وقف خلف البسطة راسماً علامات الجد.
بعد قليل اقترب منه النادل بمكر وقال: "ألن ندهن الجدران غدا ؟"
لم يلتفت إليه: "بكرة يفرجها الله"

- ٢ -

كان الحنطور المهلهل الذي تجره البغال بصعوبة، ويسيل الصدأ من ثقوب براغيه، يسير صاخباً في الطريق المرصوف المبلط قليل الإنارة. أخرج "المتنفذ" النقود التي أعطاه إياها الخمار من جيب بنطاله، وبدأ يعدها: "عشرة، عشرون، ثلاثون، أربعون.. وهذه العشرة مقطعة، مثل نقود المقامر، المهم.. أربعون، خمسون، ستون، خمس وستون، سبعون.. لا، هذه ليست خمسة بل ليرتين ونصف. يعني إنها سبع وستون ونصف. ليست سيئة. هذه خمس وستون ونصف، وأربعمئة وثمانون، خمسمئة وسبع وأربعون ونصف. سأجول على عدد كبير من المحلات.

كان قد ركب من محطة ناحية تسبق المحطة التي نزل فيها قبل نصف ساعة، وذهب إلى تلك الخمارة الصغيرة المنعزلة سيراً على قدميه. كان هذا أسلوبه في الحقيقة، وبرغم هذا ضحك من نفسه، فلحظة دخوله المحطة داهمته الحاجة ليفك وضوءه. كان يغضب منذ عهده بالحياة من إقفال عمال القطارات دورات مياهها عند دخولها إلى المحطة. وهذا ما حدث هذه المرة أيضاً. خلال جولته في شرق الأناضول من أجل "التفتيش، والتحصيل" داهمه فك الوضوء بالكبيرة في القطار لحظة دخوله إلى إحدى المحطات، فهرع إلى دورة مياه القطار فوجدها مقفلة. وما فعله

كان بسيطاً وهو الركض إلى دورة مياه المحطة! من ناحية الركض فقد ركض، لكنه وجد أن الذين مثل وضعه قد ملؤوا الأمكنة أمام أبواب التواليتات، ووقف بالدور جمع من الناس بين شباب وشيب وأطفال.

هذه المرة أيضاً كانت على هذا النحو. لم يعد يحتمل، فانطلق نحو الحقول المظلمة خارج المحطة، وفي أثناء الركض فك حزامه، وأزرار بنطاله، وبصعوبة بالغة تخلص من بليته. وخلال هذه الفترة كان القطار قد ذهب طبعاً. لهذا ذهب إلى المدينة سيراً على الأقدام. ودخل إلى الخمارة المنعزلة ليغسل يديه ووجهه، وكما في كل مرة ضحك له الحظ. وها هو يحصل على خمس وستين ليرة ونصف. ويمكن أن يكون هذا المبلغ مئة أو مئتين. طبعا يرتبط حجم المبلغ بعدم استيفاء المكان الذي يدخله "للتفتيش" للقواعد الصحية، وحجم الأعمال السرية، والنصب والاحتيال الذي تمارسه المؤسسة.

تنهد. آه من تلك الأيام، آه! أي أيام كانت. كان الناس يلعبون بالنقود. صراخ "الكبار" عبر الإذاعة بأصوات مجلجلة، والمظاهرات التي تؤجج الحماس القومي ضد الذين يتجاهلون حقوقنا في قبرص. يا لتلك المطاعم التي تقدم المشروبات، والرؤوس الثملة، والأنخاب المرفوعة، والنقود المسحوبة.

"تشريف حضرة السيد من أنقرة؟"

نسي المداهمة، والتفتيش المفاجئ، وصحا إلى نفسه. كان يتهرب من الحديث اللامسؤول مع الحوذيين والسائقين وأصحاب المحلات. ولكن ما الذي يمكن أن يفعله حديث عادي في هذه المدينة الأناضولية شبه المظلمة وشبه الخاوية التي تذكر بمرحلة ما قبل ألف وتسعمئة وثلاثين في

هذا الوقت من الليل الذي تحاول الكهرباء أن تنيره بصعوبة؟ اليوم هو هنا، وغداً غير موجود.

قال مستخفاً: "كيف فهمت أنني شرفت من أنقرة؟"

كان الحوذي النحيل في الستين من عمره تقريباً، ولكنه لم يبيض شعره في المطحنة. فهو منذ أربعين سنة، نعم، أربعين سنة على الأقل ينقل المسافرين من هذه المحطة البعيدة إلى المدينة. إذا ما ألقى نظرة إلى الزبون، أو شمّه مرة واحدة فينتهي الأمر. رجل مخضرم؟ هذه الهيبة، وهذا الهندام، وهذه البنية التي تجعل العربة تصدر صريراً. لابد أنه وزير أو بمقامه! على الأقل مدير عام، مفتش. الأكيد إنها تغذية أنقرة. إنه متنفذ، أو غني. ولكن ما علاقته بهذا؟ جاء إلى هذه الدنيا من أجل أن يعيش. فينادي القادم يا آغا، والذاهب يا باشا!

"ها؟ كيف فهمت أنني شرفت من أنقرة؟"

قال الحوذي محاولاً التلميع السياسي: "أنا أعرف"

"ما يعني أنت تعرف؟"

"أعرف. لم يبيض هذا الشعر في المطحنة يا سيدي!"

كان الرجل أكثر من مستمتع. تفوح منه رائحة الكحول الممزوجة بالثوم.

"أين شيّبته إذن؟"

"أنا اسمي مصْتِق. ينادونني هنا مصتق الأقرع. أترى هذه القرعة، أتراها؟"

"نعم؟"

"هي ضحية الأسرار! يا ما عند محسوبك مصتق من أسرار السادة المحترمين من أمثالك. الموت شغل الله، ولكن طالما هذه الروح موجودة، فلن يحصل عبد من عباد الله على سر مني!"

"أحسنت، هكذا يجب أن يكون الإنسان"

وضع مصتق رجلاً على رجل، والتفت أكثر نحو داخل العربة، وقال: "ليس باليد حيلة. نحن نقوم بعمل صعب. لا تستخف بشغل الحوذي. إن حوذيا برأسه عقل عنده الكثير. حضرتكم تعرفون المحطة والفندق والمطعم أكثر.. ينزل من القطار كل أنواع البشر من الشريف إلى الحرامي. ويركب في حنطوري الشريف، مثلما يركب الحرامي، ويجب أن يكون الحوذي مستعداً، ويتحول كله إلى آذان صاغية، ويفتح عينيه عشرة على عشرة!"

"أظن أنك شربت قليلاً؟"

تنهد تنهيدة عميقة وقال: "ماذا تفعل إذا لم تشرب يا سيدي؟ عندي زوجة وأولاد، وأحفاد.. لا يمكن الخلاص من الشعور بالوحشة.. حا!"

التفت نحو "المتنفذ" منحيّاً بفمه الذي يفوح برائحة كريهة، وقال: "من ستقابل أولاً المحافظ، أم مدير الأمن؟"

قال "المتنفذ" وكأنه يبسمل لرؤيته شيطاناً: "لا هذا، ولا ذاك!"

لم يبتلعها مصتق الأقرع: "ماذا قلت لك يا سيدي؟ الحوذي مصتق الأقرع يعطي رأسه، ولا يعطي سره!"

"ماذا تقصد يا هذا؟"

"لا تتعبني يا سيدي، أنا واحد مخضرم؟ يأتي إلى هنا الكثير من المأمورين والآمرين والمفتشين من أمثالك ويفضفضون لي!" وغمزه وسط الظلام وسأله: "أنت مفتش ماذا؟ أي على ماذا تفتش؟"

أدرك "المتنفذ" أنه لا سبيل للخلاص، فقال: "إحزر ما الذي جئت أفتشه!"

فكر الحوذي مع نفسه: حسنٌ... أنا رجل مخضرم.. يأتي كل هذا العدد من الآمرين والمأمورين، والمفتشين، وهذا وذاك من أنقرة، ولا أفوت واحداً منهم، فهل سأفوت هذا؟

ضرب بسوطه، وصاح: "حاا!"

جدد "المتنفذ" سؤاله: "ها؟ ماذا سأفتش؟"

تعقد الأمر كثيراً في رأس الحوذي فقال: "لو كنت أعرف هذه التفاصيل، كنت ربطت برقبتي شريط المدنيّة، وحملت بيدي حقيبة، وخرجت إلى التفتيش. أنت الآن شخصية مهمة. ولم تأت من أنقرة إلى هنا للنزهة؟"

"هكذا!"

"الآن ليس ظهراً يا سيدي، إنه المساء!"

"...............؟"

ضحك. كيفما كان فقد أدرك الوضع!

أطلق بصقة كبيرة على بلاط الطريق المتدفق تحته، ثم واصل قائلاً: "في يوم من الأيام، ركب معي مفتش مثل حضرتكم من المحطة، ولكنه لم يكن مثل حضرتكم مئة وعشرين كيلو. كان نحيلاً مثل بامياء أماصيا. يجب أن يشهد ألف شخص عليه ليثبت أنه مفتش. عندما تقول آمراً، مأموراً، مفتشاً، يجب أن يكون أكثر من مئة كيلو. إذا كنت مثل البامياء الأماصية فلا تملأ عين أحد. الشرطة والدرك ومسؤول السوق وأصحاب الدكاكين يخافون من الآمر الممتلئ البنية، والمكتنز اللحم، والكبير البطن، وصاحب الهيبة. أصحيح هذا الكلام أم غلط؟"

"صحيح."

"ما الذي ستفعله هيبة شخص طوله شبر؟ يصرخ، يرفع صوته، يعصف، يهدر، لا يضبط انفعاله، ويضرب بقدميه على الأرض دائماً. لماذا؟ لأن أصحاب الدكاكين يداهمهم الضحك بدل أن يخافوا! كان عندنا رقيب أول في العسكرية. وكان عصامياً ومباهياً ونظامياً. ولكن المسكين طوله شبر. يصيح ويصرخ على أمل أن يخيف الناس، وبدل من أن يخاف الشباب منه يضحكون. وفي إحدى المرات كان لدينا واحداً نناديه نعمان، فضحك كأن أحداً مزح، فهم بصفعه على وجهه.."

خطرت بباله تلك الذكرى فضحك. نزل بسوطه على مؤخرة الحيوانين، وتابع: "...كان نعمان مثل المئذنة. نط الرقيب أول على أمل أن يصفعه على وجهه، ولكنه لم يصل. مرة أخرى وأخرى. من يستطيع ألا يضحك في تلك اللحظة؟"

في هذه الأثناء كان الحنطور المهلهل قد انعطف من عدة منعطفات، وعبر زقاقاً، ودخل إلى أكبر أسواق المدينة. هناك أبواب دكاكين مغلقة، وأعمدة كهرباء مصابيحها عاطلة.

شدّ لجامي الحيوانين، وأبطأ الحنطور، والتفت نحو اليمين كأنه يعطيه سراً هاماً: "سآخذك إلى مطعم كريستال." ثم أضاف فوراً: "يذهب إلى هناك محتالو البلدة الأكبر مع نسائهم. وهناك تدور ألف طريقة احتيال وطريقة. مطعم كبير ومهم. أما صاحبه فلا تسأل، كان مثلي في يوم من الأيام، لا أحد له، والآن هو شخصية معتبرة لها وزنها. كبار الموظفين أصدقاؤه، ويمكن أن يكون السيد المحافظ هناك الآن مع زوجته!"

كان هذا لا يناسب "المتنفذ" أبداً.

واصل الحوذي: "هناك الأكل والشرب، ثم انهم لا يضبطون أنفسهم فيرقصون. ترى السفالة بعينيك. لا يعرفونك هناك وأنا لا أفتح فمي." وسأله مهتماً: "أنت تستطيع أن تفتش حتى على المحافظ، أليس كذلك؟"

بدأ "المتنفذ" يشعر بالضيق، فقال: "خذني إلى مطعم يقصده على الأكثر الناس العاديون، ويأكلون، ويشربون فيه!"

أدرك الحوذي أنه أمام وضع خاص، قال لنفسه: صحيح. لعلهم أرسلوا الرجل من أنقرة ليفتح تحقيقاً حول المحافظ وقائد الشرطة! وإذا كان الأمر على هذا النحو، فمن الأفضل الا يكون ظاهراً، فقال له: "صحيح يا سيدي. معك حق. أنا لم أنتبه لهذا."

مال قليلاً نحو اليمين مرة أخرى، وخفض صوته: "أفضل المعلومات حول الموظفين هنا يعطيك إياها (غمز بعينه) أصحاب المحلات الذين يرتادون مطعم المرح. يذهب إلى هناك أصحاب الدكاكين والموظفين الصغار، وأغلبهم يملؤون رؤوسهم مجاناً. جيد هذا؟"

ساط حيوانيه قبل أن ينتظر جواب "المتنفذ". وعبر الحنطور المهلهل بعجلاته المطاطية زقاقاً مظلما تقريباً، وخرج منه إلى ساحة أصغر، وأقل إضاءة. وقف أمام مطعم كبير إلى حد ما، مضاء، ومسدلة على نوافذه ستائر غربولية، يقع على يمين الساحة. نزل الحوذي وهرع نحو المطعم. كان الناس في المطعم الذي يعج برائحة المشروب ودخان السجائر في غاية الانشراح. هناك قيادات حزب المعارضة الذي نجح بانتخابات بلدية لم يسمع بها، وأصحاب المحلات من الطبقة الوسطى، وبعض الموظفين الصغار، وهناك موظفو وكالة جرارات أمريكية.

كان صاحب المطعم الضخم البنية يرقص وسط مطعمه. أخبر الحوذي مصتق الأقرع كبير النادلين الذي كان يصفق مع الإيقاع لمعلمه بسرعة: "لا تقولوا إنكم سمعتم هذا مني، جلبت لكم مفتشاً جاء من أنقرة قبل قليل. هو في الخارج في الحنطور سيدخل إلى هنا. سيفتش على البلد كله بدءاً من المحافظ وحتى أصغر موظف، وسيقدم تقريراً إلى أنقرة. أخبر معلمك. فهمتني أليس كذلك؟"

وهرع إلى الخارج فوراً.

أخبر كبير النادلين معلمه الذي كان حتى تلك اللحظة يرقص ساهياً عن الدنيا كلها بالوضع. لم يفهم الرجل الأمر فوراً. وبينما كان كبير النادلين يحاول أن يشرح له معطياً أهمية للأمر، كان الحوذي مصتق الأقرع قد فتح باب المطعم وأخبر "المتنفذ" الذي أصدر وقعاً بحذائه الأصفر وهو يدخل المطعم: "قلت لهم إنك تاجر، ولم أذكر التفتيش وغيره، فاحكي على هذا الأساس، ولا تخرب الوضع!"

وبينما كان كبير النادلين يخبر معلمه بالأمر، التفت الحزبيون من السلطة والمعارضة، وغير المتحزبين، وأصحاب المحلات، والموظفون الصغار في دائرة الأحوال الشخصية والعدلية والسجل العقاري والمساحة ومختلف البنوك وكأن قنبلة وقعت وسطهم، ونظروا بعيون محملقة إلى الرجل الذي دخل بتكبر نائب في البرلمان أو وزير. لا يمكن أن يكون صاحب هذا الرأس، وهاتين الأذنين، وهذه الأبهة والتباهي، وخاصة الحذاء الأصفر الضخم الموقعَ: ظط، ظط، ظط.. مفتشاً بسيطاً.

هذا "متنفذ"، لابد أنه مسؤول، وصاحب يد تطول!

صاحب المطعم الذي يقف بصعوبة على قدميه تحت تأثير الكحول

الذي شربه، دفع النادلين، وكبيرهم، وهرع بنفسه نحوه. قال وهو يحاول ضبط حزقته: "تفضل، هئ.. تفضل، هئ، هئ.."

لعن اللّه هذه الـ "هئ، هئ.." التي تعلق به عندما يفرط قليلاً بالشرب، لعنها الله..

غطى فمه بيده، وكأن لهذه الحركة فائدة، وركض إلى الطاولة التي في الصدر. لعنها الله، كان غطاء الطاولة مليئاً ببقع الزيت الجافة والنبيذ. الصحون متشققة، والمناديل منتفة من الأطراف.

قال: "الأغطية، هئ، الأغطية وما أغطية، هئ، أبدلوها بسرعة هئ!"

كان الجميع هناك ينظرون إلى المحتفى به ويخمنون.

"من يا ترى؟"

"قال كبير النادلين إنه مفتش، ولكن..."

"إذا نظرت إلى هيئته، وبنيته، فهو أكبر من مفتش.."

"صحيح."

"نائب على الأقل، أو بمقام وزير."

"ياه متنفذ حقيقي في حزب السلطة!"

"ممكن."

"................"

"................"

نادوا مصتق الأقرع الذي كان يقف الى جانب الباب، وينظر ممتناً لتقديم "المتنفذ" إلى إحدى الطاولات التي في الصدر.

التفت ورآهم. ذهب إليهم متأخراً قليلاً.

كانوا خمسة أشخاص، وفي أفواه أغلبهم أسنان ملبسة بالذهب. بينهم صاحب دكان، ومزارع، أو موظف بنك. سألوه: "من هذا الرجل الضخم ولاه؟"

ضحك الحوذي من تحت شاربيه من عبارة "الرجل الضخم"، وقال: "مفتش المفتشين العام".

مسح رئيس ديوان العدلية الذي كان يجلس على طاولة إلى الأمام قليلاً نظارته، وصاح قائلاً: "لا توجد وظيفة بهذا الاسم."

كان مصتق الأقرع قد جلس على أحد الكراسي منذ فترة. تناول كأس العرق الذي أمامه والباقي نصفه وقلبه في فمه. أخذ قطعة من الكباب بصلصة البندورة المتجمد دهنه ثم قال: "ما ستفهمونه أن الرجل جاء إلى هنا ليفتش على الجميع بدءاً من المحافظ وانتهاء بأصغر موظف!"

انتشر الخبر من فم إلى أذن داخل المطعم كله. فرح أصحاب المحلات الصغيرة، وجزء من المزارعين، ولكن الموظفين والعاملين في البنوك في مختلف المواقع، أو على الأصح من لديهم ثغرات، أصيبوا بالغم.

سأل رئيس ديوان العدلية باهتمام: "من أين سمعت؟"

سأل كاتب المساحة في السجل العقاري: "هو الذي قال هذا؟"

لو كان قد قال: "لم يقل هو، أنا اكتشفت هذا. وإذا لم يكن الرجل الذي يبلغ وزنه مئة وعشرين كيلو مفتش المفتشين، فماذا سيكون؟" ستخف أهمية هذا الأمر، ولعلهم سيعلقون عليه: "ولاه ثرثار. أنت لا تعرف أي شيء!" الا انه قال: "طبعاً هو الذي قال هذا."

صبّ عرقاً بكأسه الفارغ، ولم يبال بأنه من دون ماء أو غيره،

وقلبـه، ثم أضـاف: "الأصح أنا اسـتـدرجتـه بالكلام. لو كـان الأمـر له، فسيخفي الأمر. الكلام بيننا، إنه يحافظ على سرية الأمر كثيراً. قال لي احذر أن يصل الأمر إلى آذان الكبار، لأعرف على أي طريق يمشون.." ثم غـمـز بعـينه، وأضـاف: "ألا تنتبـهـون ياه؟ الرجل ليس من النوعـيـة التي نعرفها، إنه ماكر، وسياسي!"

إذا لم تكن هذه الكلمات معقولة بالنسبة لهم، وعلى رأسهم رئيس ديوان العـدليـة، فـإن الحوذي مصـتق الأقـرع يبين بعض الحقائق على اية حـال. فـهـذا الرجل الذي يرونه أول مـرة لا يمكن أن يـكون تاجـراً، وليس مزارعاً أبداً، أما أن يكون موظفا عاديا فهذا غير ممكن أبداً. مـهما كان، مهما كان، فهو مفتش على الأقل.

قـال موظف المسـاحـة: "صحـيح ما يقـوله الأقـرع، فـالرجل يريد أن يسمع الناس بشكل سري."

قال كاتب النفوس: "وإذا كان سيبلغ من فوق؟"

ممكن، كل شي ممكن. في الحقـيـقة أنهم لم يأكلوا نيـئاً، ولم تؤلمهم بطونهم، ولكنهم لا يريدون رؤية الشـيـطان، ولا التعـوذ. ولتـعش الأفعى التي لا تقربهم ألف عـام. وكـانوا قد شربوا عـرقـهم، وملؤوا بطونهم. أما من ناحية اللهو، فقد لهوا بما فيه الكفاية. فلماذا سيبقون أكثر؟

عدّل رئيس ديوان العدليـة نظارته وهو يتذكر مفتشاً مهيب البنيـة كهذا أتى قبل سنوات، وداهم العدلية من رأسها إلى قعرها. فرك كاتب المسـاحة في الدائرة العقـارية عـينيه الغـائرتين ونهض عن كرسيـه. سحب كـاتب النفـوس بنطاله إلى الأعلى وكـأنه يريد تعـيـيـر بطنه عليـه. لحظة نهـوض الكاتبين وفي رأسـيـهـمـا فكرة: "مـاذا لو كـان تفـتـيـشـاً يتـعلق

بدائرتنا؟" جاء صاحب المطعم مهتماً جداً، ووقف أمامهما، وهو ما زال يزحق، وقال: "ولاه، والله اصطدمت بلطتنا بالحجر، هئ.."

التف الجميع حوله وسألوه بتوق أن يتكلم: "كان غطاء الطاولة، هئ، والمنديل، هئ، هئ، والصحون وما صحون، هئ، سيئة جداً. وغير هذا، هئ، طلب قائمة الطعام، هئ، قلت له، هئ، لا يوجد هئ، هئ!

قال المزارع الذي ألبس سنه بالذهب: "هل غضب؟"

في هذه الأثناء أخذ الحوذي مصتق الأقرع نصف كأس العرق المكسور بالماء الباقي عن رئيس ديوان العدلية وقلبه في جوفه. وبرأس شوكة أخرى، تناول قطعة كباب بصلصة البندورة.

في هذه الأثناء لم يكن يتوانى عن الإصغاء لما يُحكى.

"..............."

"..............."

"..............."

"لم يغضب، هئ، سأل، هئ، هئ، هل تكون الأغطية، والمناديل هئ، دائماً هكذا، هئ.."

"بماذا أجبته؟"

"قلت لا، هئ، ولكن ابتلعها هئ، أم لم يبتلعها، هئ؟

"..............."

"..............."

أبدى موظفو البنوك وأصحاب المحلات والمزارعون الذي يحصلون على القروض الجالسون على الطاولات الأخرى اهتماما لا يقلّ عن اهتمام الذين على هذه الطاولة. لا يخلو المكان من عدم المهتمين بالطبع،

بيد أن الذين من هذا النوع هم ممن يدبرون أنفسهم ولا علاقة لهم بالدولة أو الحكومة أو البنوك أو السجل العقاري، وما شابه. من هنا لم تكن لهم علاقة بما يكون هذا الرجل، ولا بسبب زيارته للمدينة.

نطّ الحوذي مصتق الأقرع، وقال: "ها، ها.. أخرج دفتره وقلمه أيضاً.. أما قلت لكم إنه مفتش المفتشين؟ إنه يكتب شيئاً ما!"

انتقل صاحب المطعم إلى مقابل مصتق الأقرع، وجلس وهو يحزق، وقال: "ماذا يكتب يا ترى؟"

ضحك مصتق الأقرع من تحت شاربيه، وقال: ماذا سيكتب، الاحتيال الذي يجري في المطعم!"

"بالمختصر المفيد، هئ، هذا الرجل، هئ، برأيك هئ، هو مفتش بلدية، هئ؟"

"أكبر!"

"وهل أكبر هئ؟"

"طبعاً أكبر. ألا ترى بنيته؟"

انتبه فجأة. كان "المتنفذ" يشير إليه من الطاولة التي مقابله. لملم نفسه، وقال: "إنه يناديني!"

وبينما كان يقفز مبتعداً عن الطاولة، قال: "أنا قادم يا حضرة السيد!"

ركض قالباً الكراسي تحت تأثير كأس العرق الذي شربه قبل قليل. كانت قد فُرشت طاولة "المتنفذ" وقدم له غطاء طاولة ومنديل، وأطباق وشوكات جديدة جداً لا تقدم إلا للزبائن المحترمين جداً أو الذين يخشى جانبهم. وفتحت له زجاجة عرق صغيرة. برأي الحوذي هي صحة وهناء

على قلب الرجل. كان يقترب من الطاولة مباشرة. من الطاولة فقط؟ من الغطاء، والمناديل، والشوك والسكاكين، ومن الأطباق المذهبة الحواف أيضاً. وكان تناوله بيده المشعرة كأس العرق، ورفعه، وجلبه إلى فمه، وارتشافه، ووضعه للكأس في مكانه بعد ذلك، وقطعة الخبز، وضغطه على شفتيه أولاً، ثم غرزه الشوكة بها..

"أمرك يا حضرة السيد!"

ابتسم "المتنفذ" وبموقف الرجل الكبير المحافظ عليه دائماً، أطرى بالقول: "يا مصتق أفندي، أنا نسيت أن أعطيك أجرة العربة، ها؟"

أخرج من جيب بنطاله قطعة ليرتين ونصف قديمة قذرة، ومدها له دون أن يريها لمن حوله. دفع مصتق النقود بقفا يده مكتفيا بالتباهي بنقله رجًل على هذه الدرجة من الأهمية، وقال: "ضعها في جيبك، ولا تذكر النقود مرة أخرى!"

"لماذا؟"

"مرة في الدهر حملنا بعربتنا شخصاً محترماً مثلك، فماذا جرى؟"

"حسنٌ، ولكن يا ابني، هذا حقك!"

"الحق وصل. اترك أنت الحساب." وانحنى عليه وكأنه يعطيه سراً كما يفعل دائماً، وقال: "اشتعل فتيل جماعتك"

"من جماعتي؟"

"صاحب المطعم، رئيس ديوان العدلية، كاتب النفوس، وكاتب المساحة في الدائرة العقارية، وغيرهم، ولكنهم مهابيل. إنهم يخافون من لا شي. مع أن مشكلتك مع المحافظ ومدير الأمن، أليس كذلك؟ إنهم جاهلون. طبعاً لم أتدخل أبداً. اتركهم خائفين. أليس كذلك؟ من كانت هناك شوكة بإصبعه تؤلمه!"

حديث مصتق الأقرع الطويل مع "المتنفذ" لفت نظر حتى أصحاب المحلات الذين كانوا غير مهتمين حتى ذلك الوقت. وكان مصتق الأقرع منتبهاً لهذا. كان يتكلم مع "المتنفذ" من جهة، ويتفقد المحيط من جهة أخرى. يجب أن يروه كيف يتحدث برفع الكلفة مع هذا "المتنفذ".

قال: "في اصبع كل منهم شوكة يا سيدي، فهم يخافون كلهم. الذين على تلك الطاولة جميعهم أصحاب محلات. كلهم يضيفون الماء إلى الكاز، ويتبولون على الفحم، وحتى لا أعرف ماذا يضيفون على الزيت وغير الزيت، ويؤذون الشعب!"

سأل "المتنفذ" باهتمام مفتش: "حسنٌ، وهل تنام لجان الصحة التابعة للبلدية؟"

"يا إلهي يا سيدي.. عن ماذا تسأل أنت؟ أصحاب محلات هؤلاء، أصحاب محلات. كل واحد منهم وحش. مسؤولو السوق أيضاً لديهم بيوت، ويربون عائلات وأطفال. وليكتبوا ضبطاً وما ضبط. للجماعة قدم في البلدية، وقدم في المحافظة، وهم موجودون هنا وهناك. ماذا يعني الحزبي في هذا البلد؟"

سأل لمجرد السؤال: "ماذا يعني؟"

"هذا تعرفه أنت أفضل!"

"..............."

"..............."

قال صاحب المطعم لكبير النادلين: "انظر، الأقرع يستطيع أن يفعل الكثير، هئ!"

هز كبير النادلين الطويل رأسه موافقاً.

"إنه يعرف من هو هذا الرجل، هئ، هئ.."

"أيمكن ألا يعرف يا معلم؟"

غمز بعينه، وخفض صوته، وقال: "هل نسيت ما حكاه علي أفندي من الشعبة السياسية في ذلك اليوم؟"

"وهل أنسى، هئ؟. ها، حقيقة، أنت أيضاً كنت معنا في ذلك اليوم.."

"إنه يعطي معلومات. أعرف معلومات لمدير الأمن.."

"افتح له، هئ، زجاجة عرق صغيرة، هئ، وهاتها، هئ، لأسقيه كثيراً، هئ، وأستدرجه بالكلام هئ، هئ.."

وبينما كان كبير النادلين متجهاً نحو البار ليجلب زجاجة العرق، ناداه المزارعون الجالسون على الطاولة المجاورة فذهب اليهم.

"تفضلوا يا أغوات!"

وبينما كان يجلس أثخن "الأغوات" على رأس الطاولة التي في صدر المحل، ويشرب من كأسه وحده، أراد الحصول على معلومات حول "المتنفذ" متخذاً وضعية كأنه لا يهتم لمن يجلس حوله ولو بمقدار ذرة.

"من هذا، وما هو شغله يا ابني؟"

ومن أجل أن يختصر كبير النادلين، قال: "والله يا آغا، الأمر سري جداً، ولكننا عرفنا من مصدر بأنه يريد أن يفتش على الجميع في المدينة بدءاً من المحافظ وحتى الزبال، ويرفع تقريراً إلى الأعلى!"

خلقت هذه الكلمات انفعالاً لدى الأغوات المقتربين من الثمالة. كانوا جميعهم يشتكون من البنوك، وخاصة البنك الزراعي. في الحقيقة إن المسؤولين في البنك منحوا قروضاً للمزارعين ضمن صلاحياتهم، ولكن

القروض التي أخذوها لم تكفهم. أكثرهم أنفقوا القروض التي أخذوها على بناء البيوت أو البنايات، ومنهم من أنفقها على القمار والمشروب والنساء في بارات المدن الكبرى. هذا بنك. ليعطهم يا سيدي. لماذا لا يعطيهم؟ هل ستنتهي نقوده؟ لا يعطي لأن النقود تذهب إلى البريدج والبوكر والكونكان ليلاً في بيت المحافظ.

كان الأغوات فرحين: "ولاه، برأيكم هل أرسل الله لنا هذا المفتش؟"

"طبعاً يا هذا"

"وهل هناك شك؟"

"الفيل أكبر من الجمل يا ابني.."

"لماذا فتحت الدولة بنك الزراعة؟"

"لكي يعطي للمواطن المزارع قروضاً وسلفا!"

"انتهى!"

"إلى هنا فقط..."

"دعونا نرى المحافظ ماذا سيفعل بعد الآن."

"..............."

"..............."

نادوا مصتق الأقرع وهو في طريقه إلى دورة المياه. كان مصتق يحقد على هؤلاء منذ عهده بالحياة لأنهم لا يضعونه موضع الرجل، فجنح نحوهم منحرفاً قليلاً، وقال: "آمر يا آغا!"

قدموا له كرسياً فلم يجلس. سألوه عن "المتنفذ" فقال حاقداً: "إنه المدير العام لكبار المفتشين في تركيا!"

كان هؤلاء المزارعون الأغنياء جهلة إلى حد عدم معرفتهم أنه لا

يوجد موقع كهذا في تركيا، كما أنه لا يوجد منصب كهذا في العالم كله، فلم يتوقفوا عنده.

سأل أكبر الأغوات: "يعني، لماذا جاء إلى هنا؟"

من أجل أن يثرثر مصتق الأقرع، قال: "والله أنا لا أعرف "

كان الأغوات سكارى، وهم مثل مصتق يحبون القاء الكلام على عواهنه، قال واحد منهم: "نحن نعرف"

قال مصتق بفضول: "ما الذي تعرفه؟"

"سيفتش على الجميع بدءاً من المحافظ إلى الزبال، ويرفع تقريراً إلى الأعلى!"

مد مصتق يده مهتماً، وقال: "عفواً أنا كنت أخفي هذا.. هذا يعني أنكم تعرفون أيضاً!"

بدأ حديث متشابك شارك فيه مصتق أيضاً.

"وهل هناك من لا يعرف؟"

"سيرى مديرو البنوك، والنائب العام، والقاضي وغيره.."

"هذا يعني أن ما يفعله هؤلاء ذهب حتى أنقرة، وكبارنا.. ها؟"

"طبعاً يا هذا."

"انظر إلى جلسة الرجل، إلى جلسته!"

"مفتش صرف"

"الذي نسميه مفتشاً يجب أن يكون مثل الجبل، وعينه لا تخاف من غصن!"

"حتى المدفع لا يقلبه يا!"

"ولكن، حباً بالله، ألا يليق الرجل بالطاولة؟"

"صبه العرق، وكسره، وشربه..."

"وكيف يأخذ المقبلات بالشوكة؟"

"الأصالة تتدفق من كل طرف من أطرافه!"

لم يحتمل مصتق. فقد استطاع أن يحصل على كلام من فم مفتش مئة بالمئة يفتش على كل الجهات، فقال: "فهمت الأمر منذ لحظة ركوبه في عربتي يا سيدي. انظروا، هم قالوا لكم هذا. أما أنا فقد فهمت هذا من أول نظرة. قلت لنفسي، هذا الرجل تغذية أنقرة، سليم، متنفذ حقيقي، متنفذ في أي مكان. مسؤول عن ماذا؟ أنا مرّ على رأسي ما مر في هذا العمر.. ها؟ دخلت من فمه، وخرجت من أنفه.."

جاء كبير النادلين إليه: "مصتق أفندي، المعلم يريدك!"

داعبت كلمة "أفندي" كبرياءه بشكل خاص فقال: "أنا قادم"

نهض مفكراً بانفعال أنه للمرة الأولى يوضع فيها موضع الرجل، ويعطى الأهمية، سيرى ما يراه المحافظ.. وما محافظ بعد الآن!"

دخل إلى دورة المياه وخرج، جلس إلى الطاولة التي باتت مخدومة على نحو استثنائي. فتح له المعلم زجاجة عرق صغيرة بشكل خاص، وطلب له سلطة ولبناً بالخيار، وصحن كباب بصلصة البندورة ساخناً. داعب هذا كبرياءه إلى أقصى حد. هذا يعني أنه إنسان مهم، أو على الأصح أن أهميته قد اكتشفت للتو! قال: "الجميع يعرفون أنه المدير العام لكبار المفتشين في تركيا."

"ازداد خوف المعلم أكثر: "من أين سمعوا؟"

"للحيطان آذان، ولكن يبدو لي أن هذا الآغا الملبسة أسنانه كلها بالذهب، هل تعرفه؟"

التفت المعلم إلى تلك الطاولة، وقال: "هاشم آغا؟"

"هاشم آغا. أبلغوه بشكل خاص من أنقرة. لماذا برأيك يقول إنه سيلتقي بمديري البنوك، وخاصة مدير البنك الزراعي. فبدل أن يعطي الرجل قرضاً، ويعطيه سلفة، يذهب يومياً إلى بيت المحافظ، أو بيت مدير الأمن، ويلعب البريدج والبوكر والكونكان.. وقال أيضاً والله إنه كان يعرف. فإذا سألني، سأخبره. أليس حراماً على هذه الأمة؟"

كان المعلم يستمع، ويزحق باستمرار: هئ، هئ، هئ.. سأله بفضول: "قبل قليل تكلم معك مطولاً. عن ماذا سألك؟ هئ!"

بدأ يلقي من عقله مرة أخرى: "قال لي بأنه سمع أن محافظ هذه المدينة، ومدير أمنها، ومديري بنوكها، وموظفيها، وأصحاب الدكاكين فيها كلهم فاسدين، فهل هذا صحيح؟"

"وماذا أجبته أنت، هئ؟"

"أنا؟ لا شيء يا عزيزي.. هل أسيء بالسامين من هذا البلد؟ ولكنه يعرف. قال مهما خبأت فأنا أعرف بأن أصحاب الدكاكين يضيفون الماء إلى الكاز، ويتبولون على الفحم ليزيد وزنه، ويغشون في الميزان. ثم قال أنه على علم بأن مديري البنوك، وخاصة مدير البنك الزراعي، يجتمعون ليلاً مع المحافظ ومدير الأمن ليلعبوا القمار بدل اقراض المزارعين. أنا تجمدت يا صديقي. الرجل ذئب. قال بعد ذلك: لا تراقب لجان الصحة التابعة للبلدية أصحاب الدكاكين. هل هذا كذب؟ هل تراقبهم؟"

نظر صاحب المطعم بخوف إلى "المدير العام لكبار المفتشين في تركيا" الذي يشرب العرق وحده، ثم أصدر عدة زحقات متتالية، وقال: "احترقنا. احترقنا بلحظة! كانت أغطية طاولاتنا، ومناديلنا سيئة،

والصحون متشققة، هئ. غير هذا، فقد طلب قائمة الطعام، ولم نستطع أن نقدمها له. يعني أنه قال، هئ، هكذا عن لجان الصحة؟"

"أكون عديم الشرف إذا لم يقل."

"ماذا قلت له أنت عندما قال هذا، هئ؟"

"قلت إن لجان الصحة على بركة الله يا سيدي. إذا عاقبوا أحداً يحترقون. يجعلون حياة من يريدون جنة، ومن لا يريدون جهنم."

"وماذا قال، هئ؟"

مرة أخرى ألقى من عقله: "كتب ما قلته على دفتر!"

"كتبها ها؟ انظر، انظر، هئ، ما هذا؟ هئ، ماذا يفعل هكذا؟ هئ؟

مصتق الأقرع أيضاً لم يفهم ما يفعله "المتنفذ"، حتى إنه لم يستنتج أي معنى من خروجه إلى باب المطعم حاملاً القلم بيده، وقياسه بعض الأمور.

"لماذا يقيس، ويقيّس؟ هئ!"

نهض عن طاولة الحوذي مصتق الأقرع شاعراً بأن أمراً ما، أمراً سيئاً، وسيئاً جداً يحدث. ذهب إلى طاولة "المتنفذ" منفعلاً، ووقف، وعقد يديه على بطنه.

كان "المتنفذ" يطيل عن قصد عمله بأن يشير بالقلم من مكان إلى مكان كأنه يقيس شيئاً ما عند باب المطعم من بعيد. بعد ذلك رسم شيئاً ما على دفتره وأجرى مجموعة حسابات. بعد ذلك، رفع رأسه فجأة نحو صاحب المطعم: "ألم يأتكم أي تبليغ من قسم الشؤون الفنية في البلدية؟"

عند طرحه هذا السؤال كان يتفقد المحيط بعينيه. ترك زبائن المطعم كلهم الأكل والشرب، ونظروا إليه.

ولحظة كان صاحب المطعم سيطلق الهئ طرح "المتنفذ" السؤال، فشعر كأن لكمة نزلت عليه، فشفي من حزقته: "لم أفهم يا سيدي؟"

"أقول الشؤون الفنية في البلدية، ألم تبلغك أي تبليغ؟"

تلفت إلى جانبيه مندهشا، ثم قال: "لا!"

"في هذه الحال"

وضع حقيبته على الطاولة وفتحها، أخرج رزمة ورق أبيض، وبعد أن كتب اسم صاحب المطعم، وكنيته، واسم المطعم، رسم تفصيلاً عما رسمه على دفتره الصغير، وقبل أن يضع الورقة في الحقيبة، قال: "باب هذا المطعم ضيق!"

لم يفهم صاحب المطعم شيئاً، فغدا كأنه أكل لكمة أخرى، فعادت الزحقة إليه، وقال: "هل هو ضيق؟"

"نعم ضيق. يجب أن يُوسع من كل جانب أربعين سنتيمتراً على الأقل!"

لن يناقش هذا الموضوع بعد ذلك. دس قلم الحبر الجاف في جيبه، ووضع الورقة التي رسم عليها مخطط الباب، ودوّن بعض الحسابات في حقيبته، وأنزلها على الكرسي المجاور له. عاد إلى عرقه ومقبلاته، مقطبا حاجبيه.

تناول كأس العرق بيده المشعرة ذات الأصابع الغليظة بشكل ظريف، ورشف بلطف، ثم رشفة ماء ظريفةً، والتقط السلطة بشوكة جميلة بشكل جميل، وألقاها برشاقة في فمه، ومضغها بأصالة.. إنه "المدير العام لكبار المفتشين في تركيا" يستطيع أن يأتي، ويفتش من القمة إلى القاعدة، ويدون ملاحظاته، ويشرب مشروبه، ويملأ بطنه،

ويقوم، ويذهب. وهل سيتعب مع صاحب المطعم الذي يقف بجانبه عاقداً يديه على بطنه؟ نعم مع هؤلاء الناس البدائيين الذين لا ينتبهون حتى للقواعد الصحية، وقد أداروا ظهورهم للشؤون الفنية، ولم يحضروا قائمة، نعم، قائمة مأكولات برغم أن القانون ينص على وجودها.

كح بشكل خفيف. أخرج من علبته سيجارة "ياقا"، وعندما أراد أن يشعلها، حبس صاحب المطعم حزقته بصعوبة، وأخرج قداحته وأشعل سيجارة حضرة السيد باحترام.

بعد ذلك، مسح فمه بالمنديل، وقال بحدة: "الحساب!"

استجمع صاحب المطعم نفسه بعد لكمة أخرى. عدم أخذ الحساب ليس مهماً. المهم هو الحيلولة دون ذهاب "المتنفذ" غداً إلى البلدية، وصراخه في قسم الشؤون الفنية والصحية برفقة الورقة التي دوّن ورسم عليها، والفكرة التي أخذها عن المطعم، التي قد تسبب بمحقه.

جلجل المتنفذ: "قلت لك الحساب!"

ارتبك المعلم، وكبير النادلين، والنادلون. ماذا كانوا سيفعلون؟ هل سيقدمون له فاتورة الحساب؟ هل صحيح أن يقدموها له، أم لا يقدمونها له؟

أما هو فقد نهض دون أن يعير اهتماماً ولو بمقدار ذرة لهذا التردد وتلك الدهشة، وضع قبعته الأسطوانية على رأسه، وحمل حقيبته الصفراء، وأخرج من جيب بنطاله لفة الأربعمائة وكسور التي "حصلها" من محلات مختلفة، مع السبع وستين ونصف التي أخذها من الخمارة الصغيرة من أجل أن يدفع ثمن الطعام الذي تناوله والعرق الذي شربه: كان ينتظر، ينتظر الحساب! حسنٌ، ولكن أين الحساب؟ لم يبق هؤلاء

الأشخاص عند عدم الالتزام بالقواعد الفنية والصحية، بل يؤخرون الزبون! بدأ يصرخ بقدر ما يستطيع من حدة: "ما قلة الاحترام هذه للزبون؟ ما هذا الإهمال؟ منذ ساعة وأنا أطلب الحساب وحتى الآن لم يصل! اللهم ألهمني الصبر!

كان زبائن المطعم معجبين بأبهة هذا الرجل الذي يشبه حقيقة مفتش المفتشين، والعظيم حتى النخاع، بل عظيم العظماء، وكانوا يقولون بحركات الحواجب والعيون والشفاه: "حلال عليه!"

"بشرفي حلال عليه.."

"هكذا يكون المفتش!"

"إنه رجل يجب أن يكون نائباً في البرلمان أو وزيرا!"

"حلال عليه!"

إثر إشارة يائسة من صاحب المطعم برأسه، جلب كبير النادلين الحساب إلى الطاولة بلحظة ووضعه في صحن. رأى "المتنفذ" أن قيمة الطعام الذي أكله والعرق الذي بقي أكثر من نصفه في الزجاجة ست عشرة ليرة وكسور، ولم يُضف عليها العشرة بالمئة قيمة الخدمة، فسأل: "لماذا لم تضيفوا الخدمة؟"

نظر كبير النادلين إلى معلمه فحاول الأخير أن يبرر: "حضرة سيادتكم"

قاطعه: "عملتم وساطة، أليس كذلك؟"

أشار بيده لبقية الزبائن في المطعم وقال: "كل هؤلاء المواطنين الأحباء ليسوا مواطنين، أليس كذلك؟ لماذا لا تأخذون مني العشرة بالمئة التي تأخذونها من الجميع؟ تعملون لي وساطة؟ هل هذا يسمى عدالة؟ يناسب قواعد الشرف؟"

التفت إلى الزبائن: "أسألكم يا مواطني الأعزاء، هل يناسب قواعد المواطنة؟"

أجاب "المواطنون الأعزاء" السكارى، وشبه السكارى هادرين: "لا يناسب!"

هو أيضاً انفعل: "لا يناسب بالتأكيد أيها المواطنون المحترمون. إما أن يؤخذ مني أيضاً، أو لا يؤخذ منكم!

"لا يؤخذ!"

تألق الأمر فوراً، وخرج الناس عن طورهم: "حلال عليك يا حضرة السيد، حلال عليك الحليب الذي رضعته!"

"حلاااال عليك!"

"الله لا يحرمنا منك ولا من أمثالك!"

"لا يحرمنا!"

"الله يخلي لك أولادك!"

"يخليك!!"

"آمين!!"

"..............."

"..............."

رفع يده المشعرة الثقيلة فوق الناس الصاخبين فانقطع الصخب والصراخ في الحال. ممكن أن يكون بين الزبائن من له علاقة بالشرطة، ويبلغ مديرية الأمن بالأمر. قال: "أنا أشكركم كثيراً على الود الذي أبديتموه أيها المواطنون المحترمون. ولكنني أنا، محسبوكم، لا يليق بي هذا المديح أبداً"

فار الزحام مثل البحر، وقال: "حاشا!"

"يليق بك!"

"يليق بك أكثر من هذا!"

رفع يده مرة أخرى فهدأ الزحام، وأضاف: "أيها المواطنون من يليق به هذا المديح هم كبارنا الذين يعملون ليلاً ونهاراً مضحين بنور أعينهم، وموجعين مرافق أذرعهم من أجل نهضة هذا الوطن ورفعته."

"كبارنا!"

"يا لسعادة القائل أنا تركي يا شباب"

واهتز المطعم بالتصفيق وصراخ "عاش" وفرض إضافة العشرة بالمئة على الحساب، ومقابل السبع عشرة وكسور، ألقى ثلاث قطع من فئة العشر. وفي اللحظة التي حاول النادل أن يدفع له الباقي دفع الصحن بقفا يده: "خلها!"

عندما كان يتجه إلى الباب حاملاً حقيبته الصفراء، والقبعة على رأسه، وتصدر قدماه وقع: ظت، ظت، ظت.. كان التصفيق يكاد يطبق السقف على الأرض. عند الباب تقابل بحارس سمع الصراخ فجاء، ولكن في تلك اللحظة المفاجئة كأن صاعقة سقطت على الحارس: توقف كتمثال باستعداد كما تعلم في الجيش، وتابع هذا "المتنفذ" بعينيه.

خلال هذا كان الحوذي مصتق الأقرع يصفق بكل قوته لحضرة السيد، ثم مسح فمه بمنديل، ودس زجاجة العرق المشروب منها مقدار ثلاثة أصابع في جيب سرواله الواسع. وفي لحظة خروجه من الباب، لحق به كبير النادلين، وهمس له: "بعد أن توصل حضرة السيد إلى فندقه إرجع إلى هنا!"

"لماذا؟"

"هذا طلب المعلم"

ليس هناك وقت يمكن إضاعته. وبإشارة من رأسه بالموافقة لحق بحضرة السيد، وقال: "طبعاً ستشرفون فندقاً، أليس كذلك يا حضرة السيد؟"

كان "المتنفذ" قد نسي مصتق الأقرع، فرمقه بنظرة وقال: "ها.. هذا أنت؟"

قال: "نعم يا حضرة السيد. إذا كنتم ستذهبون إلى فندق طبعاً"

وبينما كان يقترب من العربة، قال: "إيه، طبعاً.. تأخر الوقت كثيراً.. يجب أن أمضي الليل في فندق."

- ٣ -

في الطريق انحنى مصتق الأقرع نحو اليمين قليلاً بفظاظة وقال: "حلال عليك يا حضرة السيد. أنا هنا حوذي من أربعين سنة لم أشهد مفتشاً حتى النخاع مثلك. حتى مفتش المفتشين."

"المتنفذ" مسرور، ضحك مرة أخرى، وقال: "الغ كلمة مفتش هذه!"

"لا تهتم يا حضرة السيد. الجميع ذئاب.. بعرض أمي الجميع من السابعة إلى السبعين يعرفونك!"

"ماذا يعرفون عني؟"

"يعرفون لماذا جئت من أنقرة إلى هنا!"

قال دون اهتمام: "لماذا جئت؟"

"ها، ها.. غالباً، هناك مدير بنك الزراعة، ألا يوجد مدير لبنك الزراعة؟"

"إيه؟"

"قلب المزارعين مملوء بالغيض منه!"

"لماذا؟ ألا يعطي القروض اللازمة لهم؟"

"أنا لا أعرف بالضبط. بحسب ما فهمت، فهو يعطيهم قليلاً. والكلام بيننا، مزارعنا غير نافع أيضاً، ها!"

"لماذا؟"

"وهل فيها لماذا؟ تسألني، وكأنك لا تعرف. لو كانوا يستخدمون النقود التي يأخذونها بالزراعة، لأعطى الجبل والصخر محصولاً. لكنهم لا يستخدمونها.."

"ماذا يفعلون إذن؟"

"يا سيدي، لا تستدرجني بالكلام، ثم تقول مصتق قال لي هذا!"

"لا تشغل بالك."

انحنى وهمس: "هؤلاء يشربون ويلعبون القمار ويبددون النقود على نساء البارات في أنقرة واسطنبول. إيه، وهل هناك نقود تكفي لكل هذا؟ ثم هل يبنون بيتاً، أو بناءً؟ لا يوجد بنك زراعي واحد، بل خمسة وعشرة ومائة، بلا فائدة!"

بعد ذلك تذكر فجأة، فقال: "ها.. لماذا دفعت الحساب في المطعم يا سيدي؟"

قال "المتنفذ" بفضول: "ماذا كنت سأفعل؟"

"وهل في هذه: ماذا سأفعل؟ سيد محترم مثلك يساوي وزنه ذهباً جاء إلى هذا المطعم المهلهل، وشرب كأسي عرق، ما الذي في هذا الأمر؟"

قاطعه، وقال: "أنا لست متسولاً!"

"حاشا يا سيدي، حاشا، ولكن.."

ساط مؤخرتي بغليه ثم وقف منتصباً بعد أن تثاءب برائحة كريهة تخمرت في معدته. حقاً هذا الرجل ليس مفتش مفتشين، بل يساوي وزنه ذهباً. لو كان مفتشاً لماذا يدفع الحساب حيث سنحت له فرصة أن لا يدفع؟ حسنٌ، حسنٌ.. إنه ليس المدير العام لكبار المفتشين في تركيا، بل

المفتش الأعلى على المحافظين ومديري الأمن والنواب والوزراء ووزراء الوزراء في عموم تركياً بالجملة. كان هذا واضحاً من جاذبيته وأبهته وإمساكه للشوكة والسكين والكأس واقتطاعه للقمة وغرزها بشوكته وغطسه لها في مرق الطعام والسلطة ووقع قدميه في أثناء سيره وجلوسه إلى الطاولة وأسلوب كلامه، وحتى مخاطه بمنديله الأبيض كالثلج المطوي ثماني طيات. ليتخف بقدر ما يشاء، وليتظاهر بأنه ليس كذلك، فهل تمرّ هذه على مصتق الأقرع الحوذي لأربعين سنة وخبير البشر؟ ثم ألا يوجد للإنسان عقل وتفكير؟ لولا أن الرجل كبير إلى هذا القدر فهل يحمل كل هذه النقود في جيبه؟

تمتم قائلاً: "معك حق يا سيدي. معك حق من الأرض إلى السماء!"

أما "المتنفذ" فقد كان يفكر بالحساب الذي اضطر الى دفعه نتيجة الفوضى التي حدثت في المطعم. لم يكن يحب في هذه الأثناء أن يثور هو ويثور الناس. صحيح أن هذا لن يوقعه بورطة لا يستطيع الخروج منها، ولكن ما ضرورتها؟ الضرر سيعود عليه في النهاية. في الحقيقة لولا أنه أخذ الكثير لما دفع الحساب، ولما أخرج الثلاثين ليرة، فضلا عن الليرتين ونصف الليرة لهذا الحوذي. هذا يعني أنه دفع أكثر من نصف الستين ليرة وكسور التي أخذها من الخمّار!

بعد ذلك لندع دفع الثلاثين ليرة، فما طبيعة ذلك الرجل؟ إنه لم يرتبك لمسألة تعريض باب المطعم أربعين سنتيمتراً من كل جانب مع أنني أمررت هذه الحيلة حتى في اسطنبول!"

خطر بباله صاحب قطعتي المئة المطقطقتين اللتين أخذهما من صاحب المطعم في اسطنبول. في هذه الأثناء تذكر كلام الحوذي قبل قليل: "معك حق يا سيدي. معك حق من الأرض إلى السماء!"

"لماذا معي الحق؟"

"طبعاً معك حق يا حضرة السيد. لن تأكل أمام كل هذا العدد من الناس وتنزل لمستوى عدم الدفع!"

بدأ يشعر بالقلق من هذا الرجل. إنه يسأل، ويفتش، وينقب، ويحاول سحب الكلام كأنه شعر بشيء ما. لعله لا يريد سحب الكلام، وهذا طبعه. كان يعرف جيداً أن أصحاب الحنطورات الذين ينقلون المسافرين من المحطة أو الكراج إلى البلدات أو المدن الأناضولية لديهم هذا الطبع بالسؤال والتنقيب. ويعرف أيضاً أن هؤلاء يبلغون قسم الشرطة الذي يتبعونه عندما يشكّون بشخص ما. أحياناً يوجد أشخاص مهمين جداً يتقدمون بهذه البلاغات حيث تتوقف عندها الشرطة، وتحقق، وتدقق، وتبحث كثيراً، وتحصل على نتائج مهمة.

رد علي الحوذي بحزم: "أنت لا تتدخل فيما لا يعنيك!"

كانت هذه صفعة أخرى للحوذي. واعتماداً على تجربة سنين طويلة، فهو يعرف أن المفتش إذا دقق هكذا، وأنبه، فيجب ألا يلح على الموضوع. عليه أن يتركه، وإلا قد تقع له مشكلة لا يستطيع الخروج منها.

"إنزلني عند هذا الفندق!"

كان فندقا مهلهلا على الطريق مصراع بابه مغلق، وكثير من نوافذه مّطفأة أنوارها. لم يجد مصتق هذا الفندق لائقاً "بمفتش المفتشين"، فقال: "هناك أكبر وأفخم يا حضرة السيد!"

"إعمل ما أقوله لك!"

"على رأسي."

شدّ اللجامين وأوقف العربة أمام باب الفندق بالضبط، بعد ذلك داس على العجلة اليمنى الأمامية وقفزراكضا عابراً باب الفندق الذي اغلقت واحدة من مصراعيه. صعد الدرج شبه المظلم على نفس واحد. مدّ رأسه إلى داخل غرفة "الكاتب" من النافذة التي على اليمين: كان الكاتب الشاب يضع رأسه فوق ذراعيه على الطاولة التي أمامه وينام.
قرع الزجاج: "هييييه!"

لم يتحرك الكاتب. قرع مرة أخرى وناداه: "هيه يا كاتب أفندي، يا كاتب أفندي، هيه!"

رفع الكاتب رأسه عن ذراعيه وهو مخمور من النوم، وقال: "هه، ماذا يوجد ياه؟"

وعرف الحوذيَ مصتق الأقرع فجأة، ففتح النافذة.

قال مصتق الأقرع باهتمام: "جلبت مفتشاً. الرجل ليس كما تعرف. جاء ليفتش على مدينتنا من محافظها إلى زبالها. بعرض أمي ستحترق من البارود، ها!"

كاتب الفندق شاب نحيل، وسليم البنية. ومع ذكر كلمة مفتش تذكر نقص النقود في خزينة الأمانات لأنه أخذ مبلغاً على أن يعيده لاحقاً، وصرفه على صديق، فبدأ يرتجف. نظر إلى "المتنفذ" الذي صعد الدرج، مصراً بقدميه. كان الرجل أفتى من مفتشي الشؤون الفنية والصحية في البلدية، ومديرية الأمن، وأكثر تباه منهم بكثير. فضلا عن نقص الخزنة كانت الفرش، واللحف، والمخدات، والاغطية لا تتطابق مع قواعد النظافة، وأكثرها مليئة بالفسفس والعث، وبقع الدم. غير هذا كان هناك عدد من الناس النائمين دون بيان قانوني. آه من هذا المعلم، آه

من هذا المعلم! إنه ابن قريته ويعرفه.. قال له ألف مرة، يا أخي الكبير دعنا ننهي هذه الأمور غير القانونية.

نظر من جديد إلى "المتنفذ" الصاعد الدرج. هل الرجل مفتش بلدية، أم مفتش أمن؟ وهل يحدث تفتيش في هذه الساعة من الليل؟ ركض وقابل "المتنفذ" وسط الدرج: "تفضل يا حضرة السيد. هات عنك الحقيبة لو سمحت!"

لم يعطه إياها. أشار إلى النايلون السائب والمقلوع عن الدرج، وقال: "ثبّت هذا!"

آمن كاتب الفندق أن هذا الرجل الذي يصر خشب الدرج تحته أثناء صعوده البطيء هو مفتش يختلف عن أي مفتش عادي، وأنه شخص عظيم. وبلمح البصر بدأ يفكر من أين سيتصل بصاحب الفندق أو يجعل أحد يتصل به ليبلغه بالوضع. خطر بباله بأن الحوذي مصتق الأقرع الصاعد خلف الرجل على الدرج يمكن أن يقوم بهذا العمل. أبطأ وهمس له: "اتصل بمعلمنا، وقل له أن يأتي بسرعة!"

عاد الحوذي مصتق، ونزل الدرج ركضاً، وخرج من الفندق مسرعاً. هاتف، هاتف.. أين سيجد هاتفاً في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ خطرت له الصيدلية المناوبة التي مرّ من أمامها قبل قليل ولا تُعد بعيدة. كان الأجير "المخبول" وراء طاولة البيع يحضر مجموعة من الأدوية، ويتكلم مع نفسه. من الواضح انه كان سكراناً ولما رأى أحدهم يدخل منهمكاً ومسرعا راح يدردم: "متخلفون، ما أن يقعوا بالمتاعب حتى تراهم مستعجلين كالبرق. وإذا لم تقع لا ينظرون حتى إلى وجهي. دعك منهم!"

احتك مصتق الأقرع بالطاولة وخاطبه بانفعال: "أخي، هل يمكن أن أتصل من عندكم؟"

رفع رأسه بعد فترة طويلة، ونظر إلى وجه الحوذي بشيء من الخبل، وقال: "ها؟"

"لو سمحت، هاتف!"

تصرف كأنه لم يفهم: "هاتف ماذا؟"

طار صواب مصتق، كان الرجل يشبه الفأر لكبر أذنيه، وشعر إن شغلته بيد هذا التافه!

"نتصل ونعطيك الأجرة مهما كانت"

"لمن؟"

"لصاحب الفندق. ما عليك أن تفهمه أن مفتشاً جاء من أنقرة وسيفتش في المدينة من المحافظ إلى الزبال، ويرفع تقريراً إلى أنقرة."

"مفتش ماذا؟"

"لا أعرف التفاصيل. طلب مني كاتب الفندق وقال اتصل بمعلمي."

"من هو معلمك؟"

"ليس معلمي أنا، معلم كاتب الفندق!"

فهم مصتق الأقرع أن عامل الصيدلية يسخر منه فانفجر: "كذا بدين أمك! هذا وقت المسخرة ولاه؟ إذا كنت ستسمح لي بالاتصال إسمح، وإلا قل لا أسمح!"

أطلق الأجير "المخبول" قهقهة بوجهه الرفيع، وذقنه المدببة، وأذنيه الكبيرتين. كان يشبه الفأر حقيقة، وقال: "يا إلهي اتصل لنرى.. ما هو الرقم؟"

"من أين أعرف أنا؟"

"هل يوجد في الدليل؟"

"فعلت خيراً فاكمله على الأقل"

وجد الأجير الرقم في دليل الهاتف واتصل: "ألو.."

ارهف السمع ثم أغلق مأخذ السماعة بيده بعد أن أبعدها، وقال: "أوووه.. يوجد شجار في بيت الرجل مرة أخرى."

"شجار ماذا؟"

"جاءت إلى بستان القصب امرأة في الصيف، اسطنبولية. اتخذها خليلة!"

"إيه؟"

"نحن نسكن في الحي نفسه. كل يوم من أيام الله تنتف زوجته وخليلته إحداهما الأخرى!.. ألوووو!.."

وفي اللحظة التي أراد أن يقول لمصتق شيئاً آخر، جاء صوت من الطرف الآخر. عرّف الأجير بنفسه ثم أبلغ باختصار: "جاء إلى فندقكم مفتش كبير من أنقرة. إنك تفهم؟ مداهمة مفاجئة. طلب كاتبك أن تأتي بسرعة. الآن، فوراً. حسنٌ!"

وقال للحوذي: "هل لكم أمر آخر يا سيد مصتق الأقرع؟"

قال مصتق بجد: "كم سأدفع؟"

رسم الأجير ابتسامة على شفتيه وعاد إلى دوائه. أخرج مصتق حفنة من القطع النقدية الصغيرة واقترب من الطاولة: "هكذا إذاً؟ كم سأدفع؟"

قال الأجير دون أن ينظر: "في المرة الثانية تدفع عن اثنتين."

"أيصير هذا؟"

"نصيّره إذن!"

ضحك الاثنان.

بعد أن خرج مصتق الأقرع من الصيدلية توقف لحظة على الرصيف. ماذا يجب أن يفعل الآن؟ هل يركب عربته التي تركها أمام الفندق ويذهب إلى البيت؟ قال لنفسه: وإلا، وإلا ماذا؟ تأخر الوقت كثيراً. إذا لم تحمل حالك وتذهب فماذا ستفعل؟ رأسي فقد توازنه مرة أخرى. بعد الآن لن يأتي قطار والمرأة القذرة تنتظر."

تثاءب وهو ينظر إلى القمر. كان سيتمطى فخطر بباله صاحب المطعم. طلب منه كبير النادلين بأن يعود إلى المطعم! أبرق عقله: هل يريد أن يلتقي بالمتنفذ سراً؟ والله ممكن ها! انتظر، لأذهب، وأرى. إذا كان مثل هذا الاحتمال وارداً فيجب أن يراني!"

هرع إلى عربته التي تركها أمام الفندق. قفز إليها مستعجلا. أمسك المقود، وساط بسوطه مؤخرتي الحيوانين: "حاااا!"

كان البغلان البارزا الأضلاع قد ارتاحا كثيراً فقفزا قفزاً. مرّ الحنطور الفارغ بأزقة المدينة شبه المظلمة صاخباً، ووقف أمام نوافذ المطعم ذات الستائر الغربولية التي خمدت كثيراً. قفز من العربة، تفقد زجاجة العرق التي شروب أقل من نصفها في جيب سرواله الأسود وهو داخل إلى المطعم.

كان المطعم قد فرغ، والمعلم على رأس خزنته، ويجري حسابات ذلك اليوم، وهو يطلق الزحقات التي لا تنتهي.

حين رأى مصتق الأقرع، وضع النقود في درج الخزنة ونهض قائلا: "تعال"

جلسا إلى واحدة من الطاولات الفارغة: "إيه، احك لكي، هئ!"

ماذا سيحكي مصتق الأقرع؟ هل يذكر ما قاله المتنفذ في الطريق: "أنت لا تتدخل فيما لا يعنيك!" أم حديثهما عن الفندق وردة فعل الرجل عندما قال له: "هناك أكبر، وأفخم!" وتأنيبه له بالقول: "اعمل ما أقوله لك!"؟ لعل ليس سيئاً قول كل هذا. قد تعطي هذه الوقائع لصاحب المطعم فكرة عن أبهة "الرجل" وثقته بنفسه. ولكن صاحب المطعم وصل للفكرة التي يجب أن يصل إليها، حتى إن الرعب سيطر عليه. وما الفائدة من إخافته أكثر؟

رداً على عبارة: "إيه، احك لكي أرى!" أجاب قائلاً: "ماذا أحكي؟ بدأ يفتش الفنادق.. قال لي خذني إلى أحد الفنادق التي يقيم فيها الشعب.. فكرت قليلاً، خطر ببالي جعفرنا، فأخذته إلى فندقه."

ازداد خوف صاحب المطعم أكثر: "هذا يعني أنه بدأ يفتش الفنادق، هئ؟"

"طبعاً يا هذا. سيتجول على المطاعم والفنادق والمقاهي والمكاتب وكل المواقع، ويفتشها، وفي الوقت نفسه سيحصل على معلومات حول المحافظ والمالية من الناس!"

"هكذا، هئ، قال لك، هئ؟"

"لم يقل لي."

"ماذا، هئ؟"

"استدرجته بالكلام، وعرفت كل هذا. لو ترك الأمر عليه لأنكر أنه مفتش ولضحك من تحت شاربيه. أرسلوه من أنقرة خصيصاً. أنا لم أقل هذا، قبل قليل قال أحد الذين كانوا ينفخون أنفسهم على تلك الطاولة!"

"هو من أين، هئ، يعرف، هئ؟"

رمى من عنده: "عنده قريب، معرفة لا أدري في أنقرة، هو كتب له رسالة!"

"ماذا قال له، هئ؟"

"كذا، وكذا، سنرسل مفتشاً كبيراً من هنا إلى هناك. وقال انتبهوا لأنفسكم. ولكن احذروا من أن تعقّدوا عليه شغله."

استشعر صاحب المطعم بالخطر فقال: "قل إننا احترقنا في المدينة كلنا، هئ"

"لماذا؟ ما علاقتك أنت؟"

"هئ، وهل فيها ما علاقتك؟ الرجل، هئ، ما وجد في مطعمي، هئ، حتى قائمة طعام، هئ. بينما كنا، هئ، خائفين من أغطية الطاولات، هئ، والمناديل، هئ، والصحون المتشققة، هئ.. طلع لنا، هئ، تعريض باب المطعم، هئ، أربعين سنتيمتراً، هئ، من كل طرف، هئ. وأهم شيء، هئ، هو هذا، هئ. هذا يأخذ شغل أسبوع، هئ، أو عشرة أيام، هئ، على الأقل، هئ!"

"حسنٌ، ماذا ستفعل؟"

نظر صاحب المطعم إلى مصتق الأقرع مطولاً ثم قال: "أمثال هذا، هئ، لا يقتربون من النقود، هئ، وما النقود، هئ!"

استجمع نفسه مصتق الأقرع، وقال: "من قال؟"

"تقول من قال؟ احذر!"

"لا فيها إحذر ولا غيره.. طالما له فم فلا تخف. لا يمكن لمن له فم إلا أن يأكل!" ونظر بعينيه الغائرتين في محجريهما السوداوين البراقتين

إلى صاحب المطعم بانتباه وقال: "ولكن هناك - بالطبع - فرقا بين فم وفم!"

"كيف، هئ؟"

"هناك فم يبلع لقمة صغيرة، وهناك من يريدها كبيرة!"

"يعني، هئ؟"

"يعني، واصل وديمتري.."

"فتح لك، هئ، الموضوع، هئ؟"

"ما ضرورة هذا؟ أنا أدعى مصتق، مصتق الأقرع. منذ أربعين سنة وأنا حمار شغل.. افهم! رأيت الرجل هكذا من الخلف، قلت هذا هو. هذا المغذى في أنقرة لم يأت إلى هنا للاشيء: إدخل تحت ذقنه. هو لم ينتبه.. طبعاً عرفت ما عرفت، حتى هو دهش؟"

"دهش ها؟"

"وأي دهشة.. قال لي تجوّل بي في المدينة عند التفتيش."

فهم صاحب المطعم كل شي فجأة، فقال: "إذا كان هكذا، هئ، فأنا واقع عندك يا مصتق، هئ. أنت تعرف، هئ.."

كان ذلك مصتق، الحوذي مصتق الأقرع يعرف كل هذا، وقبله بالتأكيد. لا يتغلب على من لا دين له غير من لا إيمان عنده. عليه أن يريه أي شخص هو، ويري أصحاب الدكاكين الآخرين الذين لا يهتمون له، ويستغلونه حتى النخاع، وكثيراً ما يقول عنهم: "يجب ذبحهم بسكين مثلمة!" وأن يري هذا المحافظ المعجب بنفسه أي شخص هو. قال: "بصراحة، هذا العمل ينتهي عندي يا صديقي."

صحا صاحب المطعم وخفت حزقته، فقال: "هئ، هل تفاهمت مع الرجل؟"

"ما ضرورة هذا الكلام؟"

"لا، يعني، هذا.. هئ.."

"بالمختصر المفيد يا صديقي: هل تريد ألا تخالف، وأن يبقى باب الدكان على ما هو أم لا تريد؟"

"أيمكن ألا أريد يا مصتق؟ هئ!"

"اعطني قطعة خمسمئة نظيفة. ولنرمها إلى فمه، ولتغلق المسألة!"

كان حساب مصتق بسيطاً: سيأخذ الخمسمئة من صاحب المطعم، ويهمس بالوضع لمدير الأمن كما يفعل في كل مرة. وطبعاً لن يذكر أنه أخذ من صاحب المطعم خمسمئة. وفي هذه الأثناء، سيدقق مدير الأمن بوضع الرجل، وسيدقق بنفسه إن اضطره الأمر، وسيفهم من هو "الرجل"، ولماذا جاء من أنقرة إلى هنا، أو لماذا أرسل، أو علق هنا. عندئذ إما أن يذهب بحاله، أو لا يذهب، ويعمل تحقيقه بشكل علني، وفي هذه الحالة سيقول مصتق: "خذ نقودك يا صديقي. أحد أولاد القحبة خرب شغلنا، ووضع حجراً أمام عجلة عربتنا!" ويعيد الخمسمئة لصاحب المطعم.

نهض صاحب المطعم، وذهب إلى الخزنة، وعاد بثلاث قطع من فئة المئة.

نظر مصتق الأقرع إلى النقود، وقال: "كم؟"

"ثلاثمئة."

"لمن؟"

"للرجل."

ضحك مستخفاً: "وهل هو متسول؟"

"هل هي قليلة؟"

"لا تملأ حفرة ضرسه! الرجل وزنه مئة وعشرين كيلو. رجل بهذا الحجم، هل يشبع بمئتين أو ثلاثمئة؟ ولم يهتم بحساب الأكل الذي أكله، والعرق الذي شربه، بل أخرج نقوده ودفعها. دفع أكثر منها. هات مئتين أخريين !"

"ماذا تقول يا مصتق؟ خمسمئة؟"

نهض مصتق بانفعال مصطنع: "هذا يعني أن الشغل لن يمشي. يا الله، بالإذن.."

مشى نحو باب المطعم فركض صاحب المطعم خلفه وناداه: "يا هذا، لا تزعل فوراً يا مصتق، هئ!"

توقف وقال: "لا يوجد في الأمر زعل، وما الزعل. أنا لا أريد النقود لنفسي. أنا لا يهمني الأمر. قال هو لي يبدو أنك مفتح العينين فتجول بي في مدينتكم، وأرني المداخل، والمخارج، والألاعيب السرية، والوسخ والنظيف. وقال إذا تفاهمنا كان بها، وإذا لم نتفاهم، فتقرير ينفجر فوق رؤوسهم. هذه هي المسألة."

ذهب صاحب المطعم، وجلب قطعتين صحيحتين من فئة المئة، وقال: "حقك ضمن هذه النقود طبعاً؟"

بينما كان مصتق الأقرع يدس النقود في جيب سرواله الأسود، قال: "أنت لا تفهم علي. ما أقوم به هو خدمة لابن البلد. ما القصد؟ أحياناً نشرب من عرقك، ونأكل من طعامك. عندنا اعتبار للخبز والملح. يحترق قلبك يعني يحترق قلبي، وكبدي أيضاً. يا الله، بخاطرك، ولا تشغل بالك!"

خرج من المطعم وفي جيب سرواله الأسود خمس أوراق من فئة المئة. قفز إلى عربته، ونزل بسوطه على مؤخرة البغلين مستمتعاً: "حاااا!.."

كانت الساعة قد اقتربت كثيراً من منتصف الليل، وقلت نوافذ البيوت المضاءة أكثر. لم يكن على الأرصفة سوى الحراس، وأحياناً سكير يتقيأ عند أسفل عمود كهرباء، أو جدار متصدع أو خرب، أو يحاول التمسك بمكان ما لكي لا يسقط، أو يفضي بهمومه لعمود كهرباء، أو سكارى هائمين.

فجأة خطرت بباله امرأته. لابد أنه خطر ببالها ايضا وهي تنتظره لأنه لم يعد إلى البيت برغم تأخر الوقت كثيراً، بأنه قد سكر مع من لا تعرف من هم، في مكان لا تعرف أين، ونام هناك، ومن ثم نق، ونق، ونق.. حتى الصباح...

قاد عربته نحو أحد الأزقة الفرعية. ضرب بسوطه في الهواء. خب البغلان الضعيفان على الطريق الترابي، وجرا الخنطور المهلهل ومصتق الأقرع إلى بيته.

كان بيته في آخر الزقاق، ويتألف من غرفتين إحداهما إسطبلاً يؤوي فيه الحيوانين ويسكن مع زوجته العوراء في الأخرى.

المرأة قريبته من بعيد. كأن عينها اليسرى اقتلعت بسكين، وأطلقت صراخاً مفزعاً خلال تلك العملية، فتجمدت تعابير ذلك الصراخ على وجهها! كان وجهها قبيحاً وحاد الملامح كأنه وجه رجل. برغم رغبتها الشديدة، لم تستطع أن تلد للحوذي مصتق الأقرع ولداً. وأحياناً لا تتردد بأن تتهم زوجها بالعقم نتيجة هذا الأمر: "يا الله يا صاحب الجنابة القذرة! لو كنت رجلاً لجعلتني أحمل. يا نحس!"

سئم مصتق الأقرع من هذه المرأة. لو قال اللبن أبيض فستعارضه قائلة إنه أسود. هل كان ذلك اليوم الثلاثاء؟ تصر على معارضته: "لا، أربعاء!"

"لا تفعلي هذا يا حرمة، اليوم ثلاثاء. انظري إلى التقويم!"

"يا الله، يا الله.. لا يمكنك أن تخدعني لأنني لا أقرأ!"

نادى ابنة الجيران التي تذهب إلى المدرسة الابتدائية، وأقرأها التقويم، ولكن المرأة أصرت وقالت: "أنت نبهت البنت، أليس كذلك؟"

إذا اشتهى فور استيقاظه من النوم صباحاً تناول اللحم في ذلك اليوم وقال لها: "يا امرأة اشتهيت اليوم أكلة فيها لحم!" تعارضه فوراً: " لنعمله في يوم آخر!"

كانت تنتظر زوجها على نافذة البيت المبني من البلوك. لماذا تأخر حتى هذه الساعة من الليل؟ مضت ساعات على مرور القطارات ومغادرتها. كانت راضية أن يذهب إلى مكان ما، ويشرب مع جماعة ما. ماذا لو لم يشرب، وتعلق بامرأة؟ هذا كان كل قلقها. ترى هل يرميها لأنها لا تلد ويتعلق بامرأة تلد؟ قضت الليالي على مدى سنوات وهي تفكر بهذا الأمر، وكيف سيجلب تلك المرأة إلى البيت برغم عدم وجود عقد قران رسمي، وكيف ستنتزعه من تلك المرأة؟ قالت لها هدية زوجة سنّان السكاكين: "لا تتركيه وحده يا أخت ضرصون! وإذا سألت عن السبب، فقد كان عمي في السبعين من عمره بالضبط، وتعلق بامرأة مهاجرة بذريعة أن زوجته لا تحمل له ولداً. زوجته القديمة غارت وزعلت، فماذا نتج؟ عقد على المهاجرة. وعندما تشاجرت الزوجة السابقة مع المهاجرة ودخلت البيت بالقوة وقعت الجريمة. ونتيجة المحاكمة ألقيت في السجن. لهذا إبقي كما أنت، ولا تدعي العم مصتق يفتح عينيه!"

كانت تعطي الحق لزوجة سنّان السكاكين. ماذا يحدث إذا تعلق بامرأة مهاجرة مثل تلك التي تعلق بها عم هدية، وإن لم تكن مهاجرة

فمحلية، وإن لم تكن محلية، فلتكن مخبولة، وولدت له ولداً؟ وإذا عقد على المرأة، فتدبري أمرك إن استطعت!

فجأة صدر صوت العربة المقترب. كانت قد حفظت هذا الصوت، وتستطيع تمييزه بين صوت ألف عربة وتعرفه. عرفته، وتعرفه، وستعرفه. كان الرجل قادماً، ولكن كم الساعة الآن؟ أين كان حتى هذه الساعة؟ ستسأله هذا، وستسوّد عليه عيشته!

نزلت إلى الباب، ووقفت بالعتبة وهي تضع قبضتيها على خصريها، وانتظرت.

بعد قليل، وقفت العربة أمام الباب تماماً. كان مصتق قد سكر كثيراً، قفز عن العربة، واقترب من زوجته فرحاً. يحمل بيده رزمة من النقود، ويتمايل بمتعة: "انظري، انظري يا عوراء النحس، انظري إلى النقود!"

عندما سمعت المرأة لفظة النقود نسيت غضبها عليه، وسحبت رزمة النقود من يده، وأخذتها: "نقود ماذا هذه؟"

"نقود ماذا؟ هذه التي تفصل الأم عن ابنتها.. ألبسة ميت!"

لم تر المرأة طول حياتها قطعة مئة صحيحة. عدّتها فوراً. خمس أوراق: "خمس قطع، يعني كم ليرة هذه؟"

"خمسمئة!"

"خمسمئة؟ واااخ.. هل هذه لنا يا مصتق؟"

"اعتبريها لنا!"

شرح لها الوضع باختصار. دست المرأة النقود بصدرها: "يجب ألا تبقى معك بالليل، يمكن أن تضيعها. اتركها معي. وعندما تلزم.."

"هل أنت مجنونة يا امرأة؟ يمكن أن تلزم في أية لحظة. هاتي!"

"لا أعطيها!"

"قلت لك هاتي يا امرأة!"

"لا أعطيها يا مصتق، لا أعطيها في الليل. تقول إنك ستذهب إلى بيت مدير الأمن، وتخبره. اذهب. ما ضرورة النقود؟"

بدأ شجار في تلك الساعة القريبة من منتصف الليل، وفي ضوء القمر الخفيف، هو يلحق بها، وهي تلحق به. ثم هربت إلى الغرفة وأنزلت مزلاج الباب الخشبي.

الحوذي مصتق يصرخ في الخارج، ويلكم الباب دون جدوى. صارت جليدا وهي تجلس أمام النافذة متطلعة الى زوجها وهو يلكم الباب غاضباً، ولا تعيره اهتماماً.

وجد الرجل أن الأمر لن يُحلّ. قفز إلى عربته وهو يقول: "الله يبعث لك البلاء يا نجسة!" وأمسك بالمقود، وضرب بسوطه منفعلاً: "حاااا!"

عندما ابتعدت العربة بصخب، انسحبت من النافذة. أخرجت النقود من عبّها، عدتها بضوء مصباح الكاز الصغير الأصفر، ثم عدتها بالعكس، وبعد ذلك فرشتها على الأرض، وجلست أمامها. هذه النقود بالنسبة إليها قوة. ليس مهما الآن أن لا يعرج مصتق على البيت إذا أراد. خمس أوراق ذات المئة! إنها لا تستنفد!

أوقف العربة أمام بيت مدير الأمن غاضباً. وقبل أن ينزل شتم امرأته شتيمة ثقيلة. أي امرأة لعينة هذه! بلاء من الله، قذرة، لئيمة. كيف جعلها تأخذ النقود ببساطة؟ إنها لن تعطي الخمسمئة حتى لو انقلبت الأرض رأساً على عقب، وقامت القيامة. لا يمكن أن تصدق أن هذه النقود ليست له!

نظر إلى بيت مدير الأمن من الأسفل إلى الأعلى: كان بيتاً قديماً رسمياً، له نوافذ شبكية، ويسمى في مدن الأناضول من الدرجة الثانية "داراً". أحد أكثر بيوت المحافظة أبهة ولكن طرازه بات قديماً الى جانب البيوت الجديدة التي تبنى على وفق الطراز الحديث. البيت الذي يسكن فيه مدير الأمن هو ثاني بيت من ناحية الأبهة بعد بيت المحافظ. أما البيوت الحديثة الطراز فهي للصناعيين المشاهير، وكبار المزارعين، فلا يستطيع مدير الأمن، ولا المحافظ أن ينافسها.

كان هناك ضوء في نوافذ الطابق العلوي من البيت وهذا يعني أن الضيوف لم ينصرفوا. لعلهم يلعبون القمار أيضاً، من يعلم؟ هذا غير مهم بالنسبة إلى مصتق الأقرع. إنه مدير أمن قد الدنيا، ومحافظ قد الدنيا، يلعبان القمار مع أصدقائهما في أوقات فراغهما، ويشربان

المشروب، ويلتقيان ويتبادلان الحديث معهم، ويعملان ما يخطر ببالهما. يعملان، ولكن هذه المدينة عجيبة.

كأن على مدير الأمن أو المحافظ أن يخرجا من الإنسانية عندما يصبحان في هذا الموقع، وأن يجلسا في موقعهما مثل التماثيل وألا يلعبا مع الأصدقاء والأحباب البريدج والبوكر، وألا يشربا مع أحد كأساً. ما الذي يقال ؟ النميمة: وأخ يا سيدي، اتفق مدير الأمن مع المحافظ على الايقاع بأغنياء المدينة من صناعيين وتجار، أو الذين يأكلون النقود الجاهزة، ويقلبون المشروبات. واطبخ بعد ذلك إن كنت تطبخ! لماذا ؟ وهل الصناعيون والتجار ورجال الأعمال المطنطنون أولاداً ليخدعهم المحافظ ومدير والأمن؟ كل واحد من هؤلاء الكفرة ماكر يلبس الشيطان حذاءه بالمقلوب. عليهم أن لا يُخدعوا. ثم إن هذه لعبة ورق وحظ. نصفها حظ، ونصفها تلاعب بالورق. ليفتحوا أعينهم، وليس بالركض وراء الشرب على موائدهم، ويلعبون القمار على الطاولات المغطاة. ليس هناك مشكلة عندما يكسبون، أما إذا خسروا، فتبدأ النميمة في اليوم التالي كونهم خُنقوا بالقمار.

نزل من العربة بهدوء. ما دام هناك خبر سيهمس به "لحضرة السيد" فهو يأتي دائماً في أي ساعة من ساعات الليل، يطرق الباب، يوقظ حضرة السيد ويخبره. ذات مرة نقل له خبراً تافهاً، فتوقف عنده مدير الأمن ملياً ودقق به، وتعمق، فخرجت من تحته عملية تجسس كبرى وطابور خامس.

بينما كان متجهاً إلى الباب خطرت بباله امرأته مثل شتيمة. في هذه الأثناء كان المحافظ ومدير الأمن وتجار المدينة المعتبرين ومتعهدوها

وصناعيوها مجتمعين كما في كل مرة، يلعبون البريدج، ونساؤهم يجلسن جانباً، ويتحدثن فيما بينهن بمواضيع تهمهن.

عندما انتشر صوت جرس الباب في البيت، أنزل مدير الأمن الورق الذي بيده إلى ركبته، وأصغى باهتمام: من يمكن أن يكون في هذه الساعة من الليل؟

ذهبت عيناه نحو المحافظ العريض الكتفين، والضخم البنية. وبدؤوا يتكهنون.

"من؟"

"لا أعرف يا حضرة السيد."

"في هذه الساعة من الليل؟"

"نعم، غريب. لعلّ الأمر يتعلق بأمن المدينة."

"لو كان الأمر هكذا، ألا يوجد هاتف؟ ليكن من يكون، لماذا يأتي شخصياً؟ احذر أن يكون حوذيك الثرثار؟"

دخل هذا في عقل مدير الأمن. ممكن. نعم، نعم، إنه هو بالتأكيد. مع أن الخادمة بصدارتها البيضاء النظيفة الظريفة، وعينيها الطافحتين بالنعاس جاءت، وعندما همست بأذن حضرة السيد اسم الحوذي مصتق الأقرع، نظر إلى المحافظ مدركاً أنه لم يُخطئ بتوقعه. المحافظ أيضاً فهم من القادم من تلك النظرة. لم يتوقف عند الأمر. نعم، إنه أمر غير مناسب أن يأتي حوذي في هذه الساعة المتأخرة من الليل إلى بيت مدير أمن بقدر الدنيا ويزعجه. ولكن برغم هذا يجب أن لا يُعد غير مناسب. لا يمكن التفكير بأن هذا الأمر مناسب أو عدم مناسب عندما يتعلق بخبر يهم الأمن. لم يكن هو يحب هذا الحوذي التافه. فهو طوال عمره لا يحب

هذه النوعية التي تحب أن تكون صاحبة أهمية. ولكنه الموظف الأول المسؤول عن أمن المدينة..

نظّف بلعومه، وبعد أن بصق بمنديله، داهمه التثاؤب، وقال: "يا سيدي، أنا لاحظ لي في هذه الليلة!"

قلب أوراقه على غطاء الطاولة الأخضر وتركها: "من يخسر باللعب يكسب بالحب يا سيدي!"

المحافظ يخاف من زوجته الضئيلة الحجم برغم عرض كتفيه، وضخامة جسمه، وقوته. نظر بطرف عينه إلى زوجته الجالسة بين النساء في زاوية، وهي تتظاهر بأنها تستمع لما يُحكى متثائبة. كانت المرأة متجهة نحو الجهة المعاكسة الا انها كانت تتابع زوجها في عينيها وأذنيها خوفا من ملاحقته للنساء.

قال السيد المحافظ: "أرجوك يا سيدي، بعد هذا العمر، وبهذه البنية والهندام، وخاصة هذا البطن؟"

مع أن عمره أو بنيته وهندامه وبطنه لا تشكل عائقاً بهذه الأمور ولو بمقدار ذرة، وعلى العكس تماماً، فهو يُعد من الرجال الوسيمين في المحافظة.

أعجبت المرأة بجواب زوجها. وبدت كأنها غير مهتمة بمداعبة الصناعي، أو بجواب زوجها، وتستمع لما ترويه زوجة الصناعي الظريفة الأنيقة. ولأن المرأة الشابة درست في إحدى المدارس الفرنسية، فهي تعرف اللغة الفرنسية بشكل جميل جداً. تقرأ المقالات المنشورة في مجلات الموضة أو المنوعات التي تصلها اثنتان من كل عدد، وتتكلم في موضوعها في الاجتماعات. لهذا السبب، لعلها أكثر نساء المدينة ثقافة.

وكانت النساء كلهن من زوجة مدير الأمن إلى زوجات الموظفين الآخرين والتجار والمتعهدين والصناعيين، وعلى رأسهن زوجة المحافظ يغضبن منها. يغضبن ولكن إلى هذا الحد فقط، فهن يشعرن بالسعادة عندما يتخذن موقف عدم الاهتمام بما ترويه، ويلتفتن إلى جهة أخرى، أو يقلبن شفاههن لبعضهن مستخفات بها، وعندما يستخففن بها، يتخلصن من شعور الدونية نحوها.

جاء مدير الأمن وقد بدا عليه انهماكاً معيناً، وانحنى على أذن المحافظ بجدية كتلك التي يتخذها عند زيارته له في مكتبه. وحكى له بعدة كلمات رسمية الخبر الذي أخذه من الحوذي مصتق الأقرع.

قال السيد المحافظ بدهشة رسمية: "يا!"

هزّ مدير الأمن رأسه بالرسمية نفسها وقال: "نعم."

"حسنٌ، ماذا تفكر أن تعمل؟"

"إذا وجدتم الأمر مناسباً نتصل بالموظفين أصحاب العلاقة."

بعد أن فكر المحافظ قليلاً، قال: "ولن.."

مدير الأمن لبيب يفهم بالإشارة فقاطع السيد المحافظ: "لا تشغلوا بالكم يا سيدي، فلا هو ولا غيره سيشعر بشيء!"

"لأنه، معلوم.."

"معلوم يا سيدي. راحة المواطن بأن يتجول أينما يشاء في البلد.."

"أليس كذلك؟"

"معكم حق يا سيدي، لا تشغلوا بالكم أبداً!"

نظر المحافظ متوتراً إلى مدير الأمن المبتعد بقلقه. فقد مرحه فجأة. الحقيقة أنه لم يأكل نيئاً، ولم تؤلمه بطنه، وكل شي بحسب الأصول،

وبرغم هذا.. هذا يعني أن المعلومات ستجمع من الطبقات المتوسطة والدنيا، ولعل هناك "قضية" تشكل أساساً لتحقيق عميق؟ ما الذي يحدث بعد هذا؟

خطرت بباله تعهدات كثيرة ومناقصات وقروض مصرفية. لم يكن في أي واحدة منها سوء استخدام الوظيفة من قبله أو أي نقص إجرائي أو تصرف كيفي، ولكن برغم هذا لا يعرف حقا. تذكر أحد خصومه الأنداد في وزارة الداخلية الغليظ الحاجبين، والقصير القامة، والمرائي إلى أبعد الحدود، ففكر بصوت مرتفع: "كل قصير خبيث!"

لم يفهم أحد من المدعوين بمن فيهم النساء ما قصده المحافظ. كانوا ينظرون فقط إلى وجهه. وبعد أن هزّ رأسه إلى الجانبين قال: "يا إخوان، لا يوجد هنا أحد غريب. جاء من أنقرة على ما أعتقد مفتش داخلية، أرسلوه.."

الانتباه في النظرات والمشاعر استنفر "يا!"

"لماذا يا ترى؟"

"لماذا يأتي المفتشون إلى محافظة من دون علم كبير الموظفين في الداخلية للمحافظة؟"

قالت هذا زوجة السيد المحافظ، وهنا كان جوهر القضية. بحسب ما تعرفه هي ويعرفه الآخرون فإن المفتشين على الأغلب يأتون من أجل إجراء التدقيق في الدوائر الرسمية لتلك المحافظة، ويبلغّون المحافظ قبل مجيئهم، وبعد ذهابهم بالوضع. هذا يعني أن تحقيقاً سيفتح بحق السيد المحافظ هذه المرة!

لعلّ غالبية الجالسين لم يفكروا بهذا، ولكن السيد المحافظ غضب

مفترضاً أنهم فكروا بهذا وقال: "يمكن أن يأتي وعند الضرورة يلاحق أكبر موظف داخلية في المحافظة دون علمه، ويُنظم تقريرا بحقه!"

مدير الأمن الذي اتصل "بالمركز" فكر بالأمور نفسها أيضاً. وحاول هو الآخر تذكر أعدائه الذين فوق. هذا يعني أن هناك شكاوى من الناس، أو الأشخاص "المعتبرين" في المدينة، طارت إلى أنقرة، ما جعلهم يرسلون مفتشاً لعله يمتلك صلاحيات واسعة، ودون علم أكبر موظف داخلية في المحافظة. وإذا كان هذا المفتش ليس ناضجاً، وغراً، فيرسل ما يسمعه من الأهالي في تقرير، وهذا يعني أن هناك امكانية للنزول عن القمة ذات يوم..

"ألو.. هذا أنت يا فريد؟"

كان الضابط المناوب يصلح ربطة عنقه متضايقاً وراء طاولته والنوم يضغط عليه. عرف صوت مديره فردّ: "نعم يا سيدي!"

بعد ذلك، انفعل بما حكاه له مديره، فخرج من نومه، وقال برسمية انتظرها منه مديره: "يا!"

كان انفعاله يزداد مع استماعه: "هكذا إذن يا سيدي؟ ممكن، ممكن يا سيدي. فهمت، فهمت جيداً. طبعاً يا سيدي. كما تأمرون، كما تأمرون، الآن، فوراً. سأبلغكم بالنتيجة فوراً يا سيدي."

لم يبق أي أثر من التعب والنعاس، ونهض على قدميه بحيويته المعهودة من خلف طاولته. أدرك بعد ذلك أنه لا ضرورة لنهوضه عن الطاولة، فعاد وجلس. ضغط على الجرس، طلب من الحارس الذي دخل أن ينادي له أحد الضباط المدنيين المناوبين. خرج الحارس بخطوات شبيهة بالركض. بعد قليل جاء المدني المطلوب، وحيا آمره بحسب الأصول. لم

يتوقف الآمر عند هذا وأبلغه بالأمر الذي تلقاه: "سيأتي الآن الحوذي مصتق. اذهب معه إلى فندق (إزمير الجميل)، ولكن لا تجعل أحد ينتبه إلى الأمر نهائياً. لا الرجل، ولا أحد هناك!"

"أمرك يا سيدي."

"انتظر، ستذهب إلى الفندق دون أن تلفت انتباه أحد، وتتحقق من شخصية حضرة السيد المطنطن. بصراحة، يُفهم أن الرجل قد جاء من أنقرة. يمكن أن يكون قد جاء من أجل فتح تحقيق واسع بشأن المديرين كما قال حضرة السيد المدير. ولكننا نحن لا نعرف هذا الجانب. أنت تفهم، يا؟ إذا كان قد جاء هنا بمهمة، فعلينا أن نقوم بمهمتنا أيضاً!"

"بالتأكيد يا سيدي.."

"يا الله، مع السلامة!"

عندما حيا المدني رئيسه وهم بالخروج، قال له الرئيس: "دقيقة. لا أنت، ولا أحد آخر يعرف أن هذا الرجل جاء من أنقرة، وأنه سيجمع معلومات حول الإدارات الحكومية والعدلية من الشعب. ولأننا نحن مكلفين بتحقيق الأمن في هذه المدينة، نهتم بكل من يأتي إلى فنادق المدينة، حتى ولو كان مفتشاً رفيع المستوى.. هذه هي القضية. نحن لا يهمنا، ولا يهمنا أبداً كونه مفتشاً أو غيره! فهمت، أليس كذلك؟"

"فهمت يا سيدي."

في الخارج كان ثمة صخب مجيء حنطور ووقوفه. عرج المدني على الغرفة التي نودي منها على عجل، وقال لأصدقائه: "بخاطركم حالياً!"

سأل الشابان الجريئان بفضول: "خير إن شاء الله؟"

خطر بباله أن يوحي بالأمر، ولكن لا، لن يكون لائقاً، فقال: "حالياً هو سر!" وخرج ذاهباً.

تبادل الشابان الجريئان النظر: ما الذي يمكن أن يكون سراً؟

قال الأشقر: "غريب!"

كان الأسمر بالقناعة نفسها: "أي سر هذا الذي يخفى حتى عنا؟"

تعلقت عيناه بالحارس. كان يبتسم كأنه يعرف شيئاً. سأله الأشقر: "ما سر هذا الأمر؟"

يمكن ألا يكون إخفاء الأمر مهماً بالنسبة إلى الحارس. ولم يُقل له: "احذر من القول لأحد!"، فأفرغ ما تبقى في عقله مما شرحه الرئيس قبل قليل للمدني، وبحسب ما فهمه: "لا تقولوا إنكم سمعتم مني. جاء من أنقرة مفتش رفيع، وسيجمع من الناس معلومات حول الموظفين هنا!"

تبادل الصديقان النظر باهتمام. هذا يعني أن هناك فساداً كبيراً إلى حد أنه يضع موظفي البلد كلهم في فوهة المدفع، ما جعلهم يرسلون مفتشاً من أنقرة دون علم المحافظة ومديرية الأمن؟

قال الأسمر: "حسنٌ، مرة أخرى من يعلم، من اشتكى بشكل ما للأعلى!"

"بالتأكيد"

وبسبب زميلهم الذي كلف قبل قليل بالمهمة: "حسنٌ، ولكن كيف سيحقق فائق بالأمر؟"

قال الأشقر: "لا يستطيع التحقيق، في أفضل الحالات، يطلب هوية الرجل، وينتهي كل شي."

"حسنٌ، ولكن مهمة الرجل غير مكتوبة بهويته"

- ٥ -

كان مصتق الأقرع الذي ركب الضابط في عربته يفكر بالأمر نفسه: عرفنا هوية الرجل. لنقل إنه المرعشي، أو الأضني، أو الاسطنبولي فلان بن فلان. ماذا ينتج عن هذا؟ حتى لو سألته عن سبب مجيئه إلى هنا، فهل يقول التفتيش؟ لا يقول إنه سيحقق بشأن المحافظ والموظفين الآخرين نتيجة شكاوى ضدهم. سيقول جئت للنزهة. ليس هنالك قيود على حرية التنقل!

سأل الحوذي بنبرة قريبة من "الأمر": "هل تعرف إلى أين نحن ذاهبون؟"

مصتق الحوذي منذ أربعين سنة لا يعرف، فهل سيعرف هو؟

قال: "طبعاً أعرف."

تعلق المدني بكلمة "طبعاً" هذه، فقال: "لماذا طبعاً؟"

طار صواب مصتق الأقرع. "طبعاً" بالتأكيد. إنه الشخص الذي لم يعط هذه المعلومة فقط لمدير الأمن، بل معلومات كثيرة، وهو مساعد الأمن. وهو أكثر المساعدين صدقاً. من أعطى معلومات أهم من التي أعطاها، وكان سبباً بإلقاء القبض على الجواسيس والطابور الخامس؟

وجد من المناسب أن لا يرد على سؤال: "لماذا طبعاً؟". لأن صوابه قد

طار تماماً. فمن جهة استيلاء "زوجته القذرة" على الخمسمئة، ومن جهة أخرى عدم معرفة أحد منتسبي الأمن له، وهو الذي قدم كل هذه الخدمات للأمن. هوى بسوطه بغضب: "حاااا!"

نزوله بالسوط، وإطلاقه "حاااا!!" بحنق، جعل الشرطي المدني يفور. إنه مجرد حوذي فقال: "ها؟ لماذا طبعاً؟"

مازال مصتق الأقرع مستمتعاً إلى الذروة، وباعتياده الدائم انحنى قليلاً نحو اليمين إلى الخلف، وقال: "إعرفني جيداً!"

"ماذا سأعرف عنك أنت؟"

غضب الأقرع فجأة. ماذا سيعرف ها؟ واخ من أمه! هذا يعني أن عمله حوذياً في هذه المدينة منذ أربعين سنة، وإخبار أكبر من في المدينة عن المشتبه بهم بين القادمين بالقطار، وقول أكبر من في المدينة: "أحسنت يا مصتق أفندي، تسلم، الله يديمك!" لا معنى لها عند هذا الشرطي المدني ها؟

بحدة ازدادت قليلاً قال: "لن أقول لك أكثر من هذا. إعرفني جيداً!"

توتر الشرطي المدني إلى حد كاد سيصفع الحوذي على وجهه. وفي الحقيقة كان قد نُقل حديثاً إلى هذه المدينة، وليس عليه أن يكون مضطرا لأن "يعرف جيداً" كل من يأتي أمامه وخاصة مجرد حوذي؟

"هذا يعني إنني يجب أن أعرفك جيداً، ها؟"

"إعرفني جيداً!"

"أخشى أنك وزير أو رئيس حكومة؟"

كانا قد وصلا إلى أمام فندق (إزمير الجميلة). أوقف مصتق الأقرع

العربة. لم يكن وزيراً، أو رئيس حكومة، ولكنه إنسان يقدره مدير الأمن. وطالما أن الشمس موجودة، فهل سيتعب نفسه مع النجوم؟

عندما نزل الشرطي المدني شدّ المقود وبحنق أقل هوى بسوطه على مؤخرتي البغلين، وصرخ: "حاا!!!"

لم يتوقف الشرطي المدني كثيراً عند الحوذي الذي لم يأخذه على محمل الجد، وخاصة أنه فقد أهميته تماماً بعد أن نزل من عربته. دخل إلى الفندق من بابه المفتوح. وبينما كان يصعد الدرج ببطء، رأى كاتب الفندق يثبت نايلون الدرج، فتوقف.

كان الكاتب قد أنهى عمله أصلاً. نهض وهو يحمل المطرقة بيده. عندما رأى أمامه الشرطي المدني الذي يعرفه جيداً، قال له باحترام: "أمرك يا أخي!"

غمز الشرطي المدني، وقال: "ماذا هناك؟"

"سلامتك يا أخي!"

صعدا إلى الأعلى. وقف الكاتب عند باب غرفته. كان قد فهم بأن شيئاً ما مختبئاً تحت لسان الشرطي المدني، ولكنه يتظاهر بعدم المعرفة. يريده أن يسأل.

بعد أن ألقى الشرطي المدني نظرة على ما حوله، اقترب من الكاتب وبدا كأنه يعطيه سراً: "دع عنك سلامتي. هل الأمن مستتب؟"

نشف دم الكاتب فوراً. ماذا يقصد؟ أخشى أنه يريد معلومات عن "المتنفذ" المهيب البنية الذي غادر قبل قليل؟ إذا كان الأمر على هذا النحو، فسيأخذ هواء. فقد نبهه مصتق الأقرع كثيراً: أرسلوا الرجل بشكل خاص من أنقرة إلى هنا. سيفتش المحافظة كلها، ويتحقق من

شكاوى المواطنين. يجب أن لا يسمع هذا مني خوفا من البلاء. هذا أمر سري عن المحافظ ومدير الأمن. لا تنظر إلي، أنا أغلقت فمي. أنا الذي أعرف هذا الأمر في هذا البلد، وهناك المزارع الكبير كمال آغا. والآن ستعرف أنت!"

أجاب عن سؤال الشرطي المدني: "بإذن الله، وبعد ذلك، بفضلكم بالتأكيد يا أخي!"

فهم بأن المدني يريد أن يعرف شيئاً ما. ما الضرورة لهذا، وهل هو مجنون ليفتح أمراً هو سر عن المحافظ لشرطي مدني؟

وبينما كان الشرطي المدني يتجه إلى داخل الفندق ويداه خلف ظهره كما يفعل في تفتيشه المعهود، تذكر الكاتب ما وقع قبل قليل: جاء صاحب الفندق متلاحق الأنفاس، ووجد "المتنفذ" وهو يفتش الفندق. وجده، ولكنه ماذا سيقول إزاء صراخ الرجل وزعيقه؟ لا شيء. انكمش كقط سفح الحليب. يا روحي، لم يكن الرجل غير محق. أولاً، إن الفندق يشبه كل شيء عدا الفندق. البناء قديم، متصدع، والفرش واللحف وأغطيتها والمخدات كلها قذرة. الزبون القادم بغبار وطين الطريق يلقي بنفسه على واحد من تلك الفرش الموسخة، فيمتلئ بالفسفس ودم البراغيث، فيوسخها أكثر، وفي اليوم التالي، يحمل نفسه، ويذهب من دون أن ينظر خلفه.

عندما رفع "الرجل" اللحاف، وشاهد الفراش الملطخ بوسخ البراغيث والفسفس والأرجل، بدأ يصرخ بكل ما أوتي من قوة: "ما هذه القذارة، وما هذه السفالة؟ أنتم لا تراعون النظافة. هذا اغتيال لصحة المواطن الذي يدفع حفنة نقود هنا، اغتيال!"

بدأ المعلم يرتجف جانباً. وكان ينظر إلى الكاتب بخوف، وأراد أن يقول له: "أرجوك، ادخل تحت إبط هذا الرجل، واقذف ببضع ليرات في فمه لكي يسكت. لقد أدخل الشؤون الصحية للبلدية في الأمر، وما الشؤون الصحية؟ سيدخل رأسنا تحت بلية حقيقية!" ماذا يستطيع أن يفعل لمفتش غاضب كهذا؟ فوق هذا إنه لم يسحبهم جانباً ليتكلم عن القذارة بهدوء لكي يفسح المجال للمساومة، بل صرخ بكل قوته، فخرب كل شي. والأهم أنه لم يخطر بباله أن يفتش خزنة الفندق والحمد الله. لو كان قد دقق قليلاً لاحترق مثل البنزين!

أهم ما في الأمر.. ولكن هذا غير ممكن، فلن يبوح به لأحد حتى لو قطعوا رأسه. هذه جريمة! يقبضون على الرجل فوراً، ويلقونه في السجن معاذ الله.

بينما كان "الرجل" يصرخ بأعلى صوته، جاء صاحب الفندق. أصلاً هو جبان، خواف، لو قلت له: "بَه" فسيهرب. عندما يأتي آمر أو مأمور، ويبدأ بالصراخ، تفلت يداه ورجلاه، ويدس بيد الكاتب القطع ذات المئة، ويقول: "أرجوك احك مع هذا الرجل، والق هذه في فمه!" يأخذ الكاتب النقود، فإما أن يتفق معه، ويعطيها له، وعندما لا يتطلب الأمر، لا يفتح موضوع النقود. لا يفتحها، ولكنه ليس ساذجاً إلى حد أن يذهب إلى معلمه، ليقول له: "تفضل يا معلم. حللتها دون الحاجة للنقود!"

هذه المرة أيضاً كان الرجل يصرخ هكذا في إحدى غرف الفندق، فدس المعلم بيد الكاتب قطعتين من ذات المائة. والكاتب أيضاً.. إنه العقل. هل يمكن أن تسلم لرجل كهذا، رجل كالجمل قطعتين من ذات المئة رشوة؟ مع أنه عندما رأى المئتين، حملقت عيناه، وقال: "نقود، ماذا، هذه؟"

"لا شيء يا سيدي، هكذا"

"كيف هكذا؟"

"هكذا فقط"

سحب النقود من يده، ورفع صوته: "يعني رشوة ها؟"

"أستغفر الله يا حضرة السيد"

"لا تقوموا بمهمتكم الأساسية للمواطن، وتعبثون بصحة المواطن. بعد ذلك، تستخدموني بحركتكم السافلة هذه.. حسنٌ، حسنٌ، أنا أعرف ما سأفعله بكم"

عبر بهو الفندق، ثم نزل الدرج المهلهل الخشب، والصدئة مساميره حاملاً بيده المئتي ليرة وهو يصدر وقع قدمين: ظط، ظط، ظط، وخرج.. خرج، ولكنه رأى شخصين دون هوية، ودون بيان للشرطة نزلا في الفندق. قضية أخرى غير عدم تطابق الفندق مع القواعد الصحية. لعله لم يكن لينتبه لهما، ولكن الرجلين عندما سمعا "بالمفتش"، حملا ألبستهما تحت إبطيهما، وهربا من الفندق.

نظر خلف الهاربين نظرة ذات دلالة، وسأل: "من هذين؟"

"لا أحد يا سيدي"

"كيف لا أحد؟ لماذا هربا بالسراويل الداخلية عندما شاهداني؟"

"لا أعرف يا سيدي"

"أنا أعرف.. كأن إدارتكم للفندق كمزبلة لا تكفي، فتقبل بنزول أشخاص هاربين دون بيان، بعد ذلك تحاولون إعطائي رشوة. حسنٌ، حسنٌ.."

المعلم، المعلم الجبان، ركض خلف الرجل. انتهى.

استنتج الشرطي المدني ما حدث واقترب من الكاتب وغمزه: "هل نام؟"

أظهر كاتب الفندق أنه لم يفهم: "من؟"

"السيد.."

"أي سيد؟"

"روحي، السيد المفتش؟"

بعد ذلك، صحا، منتبهاً لما حطمه: قال له رئيسه، إن أحداً لا يعرف أن الرجل أتى من أنقرة، وأنهم لا يعرفون بأنه مفتش رفيع المستوى، وطلب منه أن يعرف الموضوع من خلال تظاهره بأنه يقوم بتفتيش عادي على الفنادق من أجل أمن المدينة. أما الآن فقد خرج الأمر عن مساره. ولكي يتدارك الأمر، ويصحح الوضع، قطب حاجبيه بجدية رسمية: "اسمعني جيداً، لا أنت، ولا أنا، ولا أحد آخر نعرف نهائياً بأن الرجل جاء من أنقرة ليقوم بالتفتيش، فهمت؟"

قال الكاتب: "فهمت يا سيدي!"

"أنا جئت الآن إلى هنا بصفتي رجل أمن يقوم بتفتيش عادي من أجل ضبط الأمن في المدينة. وخلال ذلك، يمكن أن أكون قد سألتك بشكل خاص. القضية كلها، هي بين الخصوصية والرسمية.. مفهوم؟"

"صحيح جداً يا أخي. شاي، قهوة، ألا تأمرون بشيء آخر؟"

ارتاح الشرطي المدني، فقال: "لا، ميرسي.. هل نام؟"

كان الكاتب سارحاً في مكان آخر: "هذا يعني أنه جاء من أنقرة؟"

غضب الشرطي المدني: "دع عنك أنقرة يا ابني، لا تذكرها على لسانك. ماذا أقول؟ هناك أمر صارم من السيد المدير، نحن لا نعرف أن

الرجل، عفواً، السيد المفتش قد جاء من أنقرة، وأنه رجل مهم إلى حد أنه أربك السيد المحافظ ومدير الأمن!"

استعرض الكاتب مطولاً، ثم قال: "ليس خيرا إذا ما انتشر الخبرً!"

لم يفهم الكاتب عبارة "ليس خيراً"، فقال: "أخي، أريد أن أسألك."

قلق الشرطي المدني تماماً، وقال: "دع عنك السؤال، وأجب! ما رقم الغرفة التي يقيم فيها حضرة السيد؟ هل نام؟ أو ما زال مستيقضاً؟"

"حضرة السيد؟"

ابتلع ريقه. غضب الرجل، وذهب. ماذا سيقول له إذا سأل عن سبب غضبه؟ هل سيقول له: "لم تعجبه الفرش والأغطية، ورأى أننا ننزل أشخاصاً هاربين في الفندق دون بيان، وفوق هذا أعطيناه رشوة.. فغضب من كل هذا، وذهب"؟

ما من جواب آخر غير: "إنه لا ينام"

"هل يجلس؟"

"إنه لا ينام، ولا يجلس.. غير موجود هنا!"

لم يصدق الشرطي المدني: "كيف غير موجود؟ أليس هذا فندق إزمير الجميلة؟"

"هذا هو."

"حسنٌ"

"ما ستفهمه يا أخي الكبير، لم يعجبه الفندق، فغضب، وذهب! دع عنك الاستفسار بهذا الأمر، ما يقلقني الآن.."

فجأة عاد صوابه إلى رأسه، فأمسك بلسانه خشية أن ينفضح بأن صراخ "الرجل" كان بسبب قذارة الفندق وعدم التزامه بأي شرط من

شروط النظافة، وغضب حضرة السيد من التصرف السيئ بإعطاء صاحب الفندق المئتي ليرة عن طريق الكاتب، ومحاولة معرفة ما إن كان المذنب هو صاحب الفندق أم الكاتب. نعم، هكذا ياه، فهو لا أكل، ولا شرب. قال صاحب الفندق: "خذها، وأعطه إياها بحسب الأصول." كثيراً ما فعل هذا على هذا النحو. من أين سيعرف بأن "الرجل شريف جداً"؟ ثم إنه إذا عرف، فطالما أن المعلم قد أمره، فهو مضطر لتنفيذ أمر المعلم. إذا لم يعطه إياها، فسيغضب المعلم، ويمكن أن يقول له، سلّم الطاولة والخزنة، وانقلع من هنا. لولا النقص في الخزنة، لما همه أي شيء، ولكن هناك نقصا في الخزنة.

قال الشرطي المدني: "بعد ذلك؟"

"بعد ذلك، جاء المعلم وهو يصرخ. انقطع قلب المخبول.."

تذكر الشرطي المدني المعلم، فضحك: "هذا يعني انقطع قلبه؟"

"ألا ينقطع؟ قلت له ألف مرة بأن هذه الفرش واللحف والأغطية سيئة، لنغيرها. وقلت له يمكن أن يأتي آمر أو مأمور، ولكنه لم يبال. وهاهو الرجل، عفواً المفتش قد جاء، رأى، وغضب، وحمل نفسه، وذهب. أليس هذا حق؟ لو كنت مفتشاً مثلاً يا أخي؟ ها؟"

"أين المعلم؟"

"من أين لي أن أعرف؟ حمل نفسه، وذهب خلفه."

"هل تعرف إلى أين ذهب حضرة السيد؟"

هز الكاتب كتفيه: "من أين سأعرف؟"

"هذا يعني أنه غير موجود الآن؟"

"لم تمر نصف ساعة على ذهابه"

فقد الكاتب أهميته فجأة، فتركه الشرطي المدني مسرعاً، وقبل أن يبلغ رئيسه بالأمر قال بمزيج من التهديد والكلام المجرد: "اسمعني، أقول لك مرة أخرى: لا أنت، ولا أنا أعرف بأن الرجل هو مفتش رفيع جاء من أنقرة. إحذر من أن يفلت هذا عن لسانك لأنك بعد ذلك ستحترق مثل البنزين، مفهوم؟"

وخرج من الفندق راكضاً. بدأ يبحث عن هاتف لإبلاغ رئيسه بالوضع. فجأة وقعت تحت بصره صيدلية الحي المناوبة. كتب على الواجهة الزجاجة شبه المضاءة: "المناوبة"، ولكن الباب مغلق، ولا يبدو أن أحداً هناك."

ضغط على الجرس. ضغط مرة أخرى، ثم مرة أخرى. بعد فترة طويلة خرج الأجير بالقميص والسروال الداخليين من مكان ما في الداخل خلف حاجز. فتح الباب دون رغبة، وهو يشخر، وسأل بحدة: "ماذا هناك؟ ماذا تريد؟"

عرف الشرطي المدني بنفسه، وذهب إلى الهاتف، ودور قرص الهاتف بحركة معتادة: "ألو.."

قال رئيسه على الجهة الأخرى وهو شبه نائم وراء الطاولة: "نعم؟"

بعد ذلك، ازداد اهتمامه فوراً: "يا! هذا يعني أنه وجد الفندق قذراً جداً؟ حسنٌ، أين هو الآن؟ ألا تعرف؟ لو سألت الكاتب. هو أيضاً لا يعرف؟ حسنٌ، ماذا ستفعل الآن؟ حسنٌ. در على الفنادق كلها. لابد أنه في واحد منها. أنا انتظر النتيجة عند الهاتف. مع السلامة!"

أغلق الهاتف ثم رفع السماعة مرة ثانية، ودوّر القرص: "ألو، سيدي.. نعم يا سيدي هذا أنا. الخبر الأول، ذهب إلى فندق إزمير

الجميلة. نتيجة التفتيش سيئة مع الأسف. نعم يا سيدي، سيئة، مع الأسف.."

التفت مدير الأمن إلى المحافظ براحة: ما زال السيد المحافظ هناك، وسينتظر حتى الصباح إن لزم الأمر لمعرفة شخصية "الرجل". أرسل زوجته، كما انصرف الضيوف، وراح يذرع المكان ويداه خلف ظهره مفكرا بتفسيرات مختلفة حول "الرجل"، ومن هاتف مدير الأمن بدا كأنه فهم هوية الرجل، فقال: "هذا.. الوضع مفهوم."

أغلق مدير الأمن الهاتف، واقترب منه: "نعم يا سيدي. بما أنه بدأ يفتش على الفنادق.. يا سيدي؟"

"إنه مفتش بلدية!"

"نعم، مفتش بلدية!"

" اعتقدت شيئاً آخر"

"وأنا محسوبكم كذلك يا سيدي؟"

"لا يستحق الوقوف عند الأمر، والمبالغة به. جدوا لي رئيس البلدية لو سمحتم"

اتصل مدير الأمن برئيس البلدية.

رئيس البلدية رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، ويعاني من داء السكري وتصلب الشرايين، وقصور في القلب، وتجلط في الشريان الأبهر إضافة إلى العديد من الأمراض. اتصال المحافظ به في هذه الساعة قطع مرارته من الخوف، ولم يرتفع ضغطه فقط، بل بدأت يداه ورجلاه بالارتجاف. إنه رئيس بلدية منذ سنوات طويلة، ولم يتصل به محافظ في ساعة مبكرة مثل هذه.

ركض إلى الهاتف: "أستغفر الله يا حضرة السيد. نحن تحت أمر سيادتك؟ يا! هل فتشوا؟ أي فندق؟ فندق إزمير الجميلة.. أنا لا أتذكر فندقاً بهذا الاسم.. ها، عرفته، عرفته. هذا يعني أنه لم يعجب سيادته؟ يعني، صرخ، وزعق بهم؟ يعني."

- ٦ -

كانت ليلة الأناضول الحارة تستمر آخذة بالعمق.

يداه خلف ظهره، وحقيبته في يده، وقبعته الأسطوانية على رأسه، ووقع أقدامه: ظط، ظط، ظط.. انعطف إلى زقاق فرعي. كان هدفه أن يتبول في زاوية مظلمة مناسبة. فجأة سمع وقع أقدام خلفه. تخلى عن التبول. يمكن أن يكون عنصر أمن: حارس أو شرطي.

تذكر المئتي ليرة التي أخذها من كاتب الفندق، ودسها بجيب بنطاله غاضباً. قد يوجد بلاغ بحقه. يمكن أن يكونوا قد أعطوه قطعاً نقدية محددة أرقامها، والآن..

ولكن لا، فبحسب الحدس الذي اكتسبه عبر تجربة سنوات طويلة فهم الأمر للمرة التي لا يعرف عدّها بأن القادم ليس رجل أمن، ولن يكون غير الكاتب الذي أعطاه المئتي ليرة. كانت الخطوات متوجسة، لأنها فاقدة الإرادة، ومترددة، وغبية.

"يا حضرة السيد، يا عزيزي حضرة السيد.."

توقف، والتفت التفاتة خفيفة نحو اليسار، وقال بتكبر: "نعم؟"

وفي الضوء الخفيف الذي لا يعرف من أين يأتي، نظر إلى الرجل. لا، لم يكن الكاتب. وإذا كان قد شعر للحظة بارتباك، فإنه لم يكن هناك ما يدعو للقلق. لا يمكن أن تكون الخطوات المترددة والمتوجسة

والخائفة قبل قليل هي خطوات رجل أمن، لأنه لا يمكن لرجل أمن أن يقترب من صيده بخطوات ضعيفة بلا إرادة كهذه. استجمع نفسه ونظر من جديد: إنه رجل طويل، نحيل. أعجبه فرك يديه إحداهما بالأخرى، وتردده، وحديثه المفاجئ، وابتلاعه ريقه، فقال: "من حضرتك؟ ماذا تريد؟"

تأتأ الرجل بخجل: "أنا، محسوبكم"

"نعم؟"

"التفتيش الذي تفضلتم به قبل قليل"

"نعم؟"

"ذاك الفندق"

"نعم؟"

"أ.. أنا صاحبه يا سيدي!"

استجمع "المتنفذ" نفسه أزاء أي احتمال، وقال: "لم أفتش الفندق أو غيره بصفتي مفتشاً. أنا مواطن فقط! مواطن جاء إلى محافظتكم، وأراد أن يبيت ليلته في فندقكم، وبدأ يصرخ نتيجة التوتر الذي أصابه من قذارة كل شي كان يثير التقيؤ! هل فهمت؟"

بدأت فكرة تشتعل وتنطفئ في رأس صاحب الفندق النحيل: هكذا إذاً، بالتأكيد سيتكلم على هذا النحو. لن يقول أنا مفتش، وسأفتش على الجميع في محافظتكم من المحافظ إلى الزبال، فقال: "أعرف يا حضرة السيد، ولكن"

"ولكن ماذا؟"

"بشأن قذارة فندقنا"

"نعم؟"

"للبلدية، أو غيرها"

"غيرها؟"

"أي شكوى"

"نعم؟"

"لن تقدمونها، ولكن بالتأكيد.."

تظاهر بالغضب: "ماذا يعني هذا؟ لماذا لا أشتكي عليكم؟ ولماذا بالتأكيد؟ بأي حق تطعمون هذه الأمة المسكينة، المثقلة بالهموم، المضحية في مطاعمكم القذرة مقابل حفنة نقود، وتجعلونها تنام بين هذه الأسمال القذرة التي تتردد حتى الكلاب بالنوم عليها؟"

جف صاحب الفندق إلى أبعد الحدود خلال لحظة. ما هذا اللسان ولاه؟ إنه لسان مرشح للبرلمان خرج ليخدع الناخبين! لاشك بأن الرجل مفتش حزبي، ولعله مفتش المفتشين. يا لهذا الكلام! ثم إنه يليق به أيضاً. كان من هذا الكلام الذي يطلقه المرشحون الحزبيون للنيابة منذ سنوات على منصات يملؤونها لتشبه تلك التي في الأعياد القومية، ويجعلون أنفاس المستمعين تلهث بصراخهم، ولكن هذا الكلام أكثر تأثيراً. كان يعرف أن فندقه لا يلتزم بأي قاعدة من القواعد الصحية، وأنه قذر إلى حد استحقاقه كدس مخالفات، لهذا فهو مذنب. إذا ذهب في الصباح الباكر إلى البلدية، وأبلغهم بالوضع، فستبدأ اللجنة الصحية بالإجراءات اللازمة لا مبالية بما أكلت وما شربت، ثم هاك أخرج من هذا المأزق إن استطعت. ماذا لو التقطت الحكومة طرف الذيل؟ إذا التقطته، فإن كل شي سيقع واحداً تلو الآخر. ستأتي عقوبة، وبعدها عقوبة أخرى،

وعقوبة العقوبات، وقرار إغلاق لأسابيع وأشهر، وحتى تقارير مختلفة للشؤون الفنية. لأنه يعرف جيداً بأن استخدامه للمكان فندقاً تم بطريقة غير شرعية، وبشكوى، شكوى صغيرة، سيعبر من بين يدي اللجنة الصحية، وستغرز الشؤون الفنية مخلبها، ثم يأتي دور الموظفين الكبار والصغار يومياً. وإذا هدم الفندق، وعمل على بنائه من جديد، فهذا يعني نفقات تصل إلى عدة مئات من الألوف. هذه الدار المتصدعة الآيلة إليه من جده أو والد جده، كانت ضمن المخطط التنظيمي للبلدية، وبحسب هذا المخطط فهو مضطر لإنشاء بناء ضخم وفخم يُستفاد منه بصيد السياح. لهذا السبب عليه أن يجد طريقة يتفاهم بها مع حضرة السيد هذه الليلة، ويغلق القضية. وغير عدم قبوله بالمئتي ليرة التي قدمهما له بيد الكاتب، فقد رأى النائمين تهريباً في الفندق، بمعنى أنه إذا ما اشتكى فلن ينتهي الأمر بالعقوبة المادية، ولا بالإغلاق أسبوع أو عشرة أيام، إذ يمكن أن يمنع من ممارسة المهنة.

قال: "معكم حق، من الأرض إلى السماء معكم حق يا حضرة السيد. نحن، أي نحن أصحاب المحلات الأغبياء الذين لا نفكر بالفقراء.."

"ماذا يعني الفقراء؟"

"يعني هذا.."

"لا تستخدم مفردة الفقراء التي تدل على استخدام صراع الطبقات. ليس لك حق بهذا!"

"يا حضرة السيد، لحظة يا حضرة السيد"

"لا تقاطعني بالكلام! لا يوجد في هذا البلد طبقة أغنياء وطبقة

فقراء! بحسب القانون في بلدنا هناك جماهير مندمجة فيما بينها متساوية تماماً. وهذه الجماهير كلها تشكل الأمة التركية السامية، مفهوم؟"

نشف دم صاحب الفندق تماماً: "مفهوم يا سيدي"

"ولا تنظر إلى الخلافات بين الأحزاب، وتظن أن مواطنينا ضد بعضهم بعضاً!"

"لا أظن يا سيدي، صحيح تماماً، ومن السماء إلى الأرض"

"معي الحق، أليس كذلك؟"

"بالتأكيد يا حضرة السيد"

"في هذه الحال، غداً سيجري تحقيق لدى المسؤولين.."

اعتقد صاحب الفندق أنه مُحق.

"لمساءلتهم عما إذا كان لديهم علم بمأوى القذارة والوساخة الذي لا يعرف ما هو تحت اسم فندق"

"الله.. احترقت!"

"اسمح لي بمساءلتهم، وإذا لم يكن لديهم علم، لتنظم الملاحقة القانونية ضدهم.."

"يا حضرة السيد!"

"وبموجب قاعدة أن الفيل أكبر من الجمل، يجب معاقبتهم، أو جعل الآخرين يعاقبونهم، وهذا حقي بصفتي مواطناً، أليس كذلك؟"

كاد صاحب الفندق ينهار. أمسك بنفسه بصعوبة، وقال كالأنين: "يا حضرة السيد، سيمحقونني يا عزيزي حضرة السيد!"

دفع الرجل من صدره وقال: "اسمح لي.. وبمناسبة المئتي ليرة التي دسهما الكاتب بيدي"

لم يبق لصاحب الفندق ما يرجوه. كاد أن يُغمى عليه.

برغم انتباه الآخر لكل شيء، أنزل الضربة القاضية بلؤم: "وهل أنا متسول ولاه؟"

مفردة "ولاه" التي ينهي فيها الجملة عندما يكون غاضباً، لم تعبر في تلك اللحظة عن الغضب، بل عن الرغبة بفتح باب التفاهم مع الرجل، وهذا ما أفرحه. نعم ياه، وهل كان غير محق بقوله: "وهل أنا متسول ولاه؟ وهل تملأ مئتي ليرة ضرس رجل له كل هذا الوقع مثلي؟ ثم فكر، إذا اشتكيت عليك، وجعلتهم يلاحقونك، فستبلغ أضرارك آلاف وعشرات آلاف الليرات. هل تكفي مئتا ليرة تافهة لقضية بهذا الحجم؟"

قال بأمل بارق: "أستغفر الله يا حضرة السيد. ما هذا الكلام؟ من يستطيع أن يدعي أن سموكم له علاقة بالتسول؟ ومن تبلغ به الجرأة؟"

"لا تبلغ به الجرأة، ولكن كاتبك أو لا أدري من هو، صاحب وجه القرد، تجرأ على هذا دون خجل أو حياء. الإنسان في هذه الحال..."

"أقدم على جهالة يا حضرة السيد، لم يعرف سموكم.."

"أنام المواطنين على فرش قذرة لا تتناسب مع اعتبارات المواطنة من جهة، واعتبر أن الذي أمامك متسولاً من جهة أخرى! مستحيل، مستحيل، مستحيل!"

بدأ يمشي مصدراً وقعَ: ظط، ظط، ظط.. انعطف من عند الزاوية. صاحب الفندق مشى خلفه بذاك الأمل البراق، وبينما كان يفكر بالمبلغ الذي يمكن أن يعطيه لهذا "المناهض للطبقات"، و"الجماهيري" لكي لا يوقعه بموقع المتسول، انعطف الرجل من زاوية أخرى مظلمة، ومظلمة جداً، وتوقف.

صاحب الفندق أيضاً اقترب متردداً. نظر بانتباه إلى حيث ينظر حضرة السيد: حارس. نعم، نعم، إنه حارس، وا ءم نفسه مع الظلام، وهو يشخر بلا انقطاع.

قال حضرة السيد وهو ينخر: "سفالة، احتيال. ما هذه الأوضاع في هذا البلد؟ ما هذا التسيب؟ أي جهل بحدود الوظيفة هذه؟ أي لا مبالاة؟"

قال صاحب الفندق معتقداً بأن السؤال موجه إليه: "معكم الحق يا سمو حضرة السيد."

"مفهوم يا سيد، السيد في هذا البلد مجهول، والساحة خاوية. هذا يعني أن الشعب من جهة، وأصحاب المحلات من جهة، والجهات الإدارية والعدلية من جهة أخرى.. أوووه.. الله يعطيهم العافية، فالأمور تسير بمجراها.."

"..............؟"

أمره: "ايقظ هذا!"

صاحب الفندق المدلل، الممتلئ الجيب، لا يقبل هذا الأمر أو أمراً مشابهاً حتى لو صدر عن أعلى مسؤول في الدولة، ويعتبر هذا إهانة له. ولكن الثمن الآن باهظ. لو قال له ادخل بقشرة البندق فسيفعل، وإن لم يستطع الدخول، فسيجرب..

اقترب من الحارس، وهزه من كتفه: "يا ابن البلد، هيه، يا ابن البلد!"

استيقظ الحارس الفظ المتقدم كثيراً في السن فوراً. بداية استمع لشخيره، وبعد أن استمع فترة كأنه مازال نائماً، قال: "هه!"

"هيه، يا ابن البلد، استيقظ، استيقظ!"

انتفض، ونهض: "ما كنت نائماً.."

وبقلقه من إلقاء القبض عليه متلبساً كان يشد طرفي سترته وهو يحاول الوقوف على قدميه: "أغمضت جفني قليلاً. والله ما كنت نائماً."

كان يتضاءل أمام الرجل صاحب الشاربين الضخمين، والحاجبين الكثيفين المقطبين، والناظر إليه كأنه يريد أكله، وأعاد عذره: " والله. أغمضت جفني قليلاً"

قال "المتنفذ": "ما أغرب هذا البلد! نعم، نعم من الواضح أن السيد في هذا البلد مجهول، والساحة فارغة. لا أحد يعرف الآمر من المأمور. عندما يقوم الإنسان بجولة، يدرك أن المطاعم قذرة، ومزرية، والفنادق هكذا، والحراس المؤتمنين على أموال المواطنين وأرواحهم يدّعون أنهم لا ينامون برغم شخيرهم واختبائهم في الظلام. رائع، في الحقيقة رائع جداً"

قال الحارس مندهشاً: "ما كنت نائماً. أغمضت عيني ليس الا"

وبعد أن نظر إليه بحدة من لم يجد جواباً إزاء إنكار المقابل له، تركه وهو يبتلع ريقه، وابتعد حذاءه وهو يصدر توقيعه.

اقترب الحارس من الرجل الطويل النحيل، وقال: "من هذا، أنا قربانك؟"

قال صاحب الفندق: "مفتش، وأكبر من المفتش." ثم بدا كأنه يركض خلف "المتنفذ".

عرف "المتنفذ" وقع القدمين الراكضين خلفه، فشعر بالضيق. لماذا يأتيه مرة أخرى هذا الرجل؟ تضايق بشكل رهيب من ضغط مثانته فقد كان يبحث عبر هذه الأزقة المظلمة القذرة عن مكان يتبول فيه. وإذا

استمر هذا الرجل بملاحقته كأنه ظله فلن يستطيع أن يتبول بمتعة. توقف. صاحب الفندق أيضاً توقف وهو يفرك بيده.

قال "المتنفذ": "نعم؟"

تمتم الآخر بأمور غير مفهومة.

"مفهوم، أحك بصوت أعلى!"

استجمع نفسه، وقال: "كان يشخر"

"من؟"

"الحارس"

"شخيره الى جانب شخيرك يبقى بريئاً جداً. احك أنت كي نرى. لماذا تمشي خلفي مثل ظلي؟"

ابتلع صاحب الفندق ريقه، ثم استجمع قوته: "عفوكم، أريد أن استعطفكم بأمر"

"ما هو، هات لنرى"

"تأخر الوقت كثيراً. فكرت بأنكم يمكن أن ترغبوا بالنوم والراحة"

حقيقة كان الوقت قد تأخر كثيراً: "هل ستنومني على فرشك الشبيهة بالجيف، في فندقك القذر؟"

"أرجوك يا سيدي، أرجوك"

"حسنٌ؟"

"أقول لو تنازلتم، ومنحتموني شرف المبيت هذه الليلة في بيتنا المتواضع.." ثم أضاف بسرعة: "طبعاً إذا كان هذا ممكناً"

هه، لا اعتراض على هذا. ينام على فراش بيتي براحة، ويضيف صباحاً، والأهم من هذه يمكن أن تأتي تكملة المائتين.

برغم هذا قال: "وهل الفنادق كلها هنا تفتح النفس، ونظيفة، ومبهجة مثل فندقك؟"

كان صاحب الفندق ذكياً إلى الحد الذي يمكنه من إدراك السخرية في هذه الكلمات. ضحك: "صدق يا حضرة السيد أنها أقذر من فندقي!"

"الله الله.."

"كونوا على ثقة بهذا"

"هذا يعني أن المكان هنا"

"لمعرفتي بأنكم لن تستطيعوا أن تحركوا أجفان أعينكم طوال الليل، فلا أستطيع أن أقترح عليكم فندقاً آخر!"

"اختصر" قال هذا تحت تأثير ضغط مثانته فكان لا يستطيع الوقوف على قدميه: "ياا.."

"نعم يا حضرة السيد"

"وهل بيتك بعيد؟"

"لا يا حضرة السيد. تفضلوا، لنذهب!"

ليراني "مفتشا" أو "مفتش المفتشين" أو أي شيء آخر. فهو لم يقل شيئاً خاطئا حول هذا الموضوع! إنه في النهاية مواطن. ومثل أي مواطن مدني يدور لسانه في فمه، ويعمل عقله، ويستطيع تمييز السيئ من الجيد بنظرة واحدة، وعند مجيئه إلى هذه المدينة، اكتشف فوراً مخالفات كثيرة للقواعد الصحية والفنية، وبدل أن يصمت كالآخرين، صرح بما رآه. وإذا كان هذا التصريح "يشبه تصريح أي متنفذ قادم من أنقرة"، وأن الذين من حوله يخافون، ويهلعون، فهل هذا ذنبه؟

كان صاحب الفندق يواصل الكلام خلفه بمقدار نصف خطوة، وفهم من حديثه كله أنه يريد أن يقول بأن هذه المدينة مثلها مثل المدن الأخرى خربة من ألفها إلى يائها. عبرا زقاقاً آخر فظهرت دار صاحب الفندق، داكنة تماماً تستند إلى السماء المليئة بالنجوم والمنارة قليلاً وسط الليل.

قبل أن يشير صاحب الفندق إلى الدار قال: "الحق معكم من الأرض إلى السماء يا حضرة السيد. كل شي خرب من ألفه إلى يائه!"

"القضية كلها تكمن في رؤية الغلط، والقبول بأنه غلط، وتصحيحه!"

"صحيح."

"لو نظف كل شخص أمام بيته، فستغدو المدينة نظيفة."

"صحيح جداً يا سيد"

خطر بباله "كل شخص" نعم كل شخص.. أي أصحاب المطاعم، والفنادق، والبقالون، والجزارون، وباعة الخضرة بمن فيهم هو. إذا أخذوا التفتيش الصحي على محمل الجد، وخولفوا دون رحمة، فمن المؤكد أن الأمور ستسير مثل الساعة، ولكن من يلتزم؟

"ها هو بيتنا المتواضع يا حضرة السيد!"

توقف "حضرة السيد" ونظر إلى الباب من الأسفل إلى الأعلى. كان البرواز فوق الباب محفوراً كالدانتيل، والدار قديمة خشبية بخمسة طوابق. وبينما كان ينظر من الأسفل إلى الأعلى كادت قبعته الاسطوانية تقع.

قال: "هذا البيت أيضاً مثل فندقك آيل إلى الهدم"

قفز قلب صاحب الفندق بعد أن ارتاح كثيراً. نعم هذا هو الوصف الحقيقي، وخاصة الفندق. فقد جاء في تقرير الشؤون الفنية هذا التقييم: "إنه آيل إلى الهدم. ولا يمكن استخدامه فندقاً..." لكنه وجد حلاً، وتدبر الأمر.

عندما لم يتلق "المتنفذ" رداً على عبارة: "هذا البيت أيضاً مثل فندقك آيل إلى الهدم."، شعر بالاحتيال فوراً، وقال: "ها؟"

استجمع صاحب الفندق نفسه مرة أخرى، وقال: "نعم يا سيدي؟.. ماذا تفضلتم؟" وكان في هذه الأثناء قد أخرج المفتاح من جيبه، وأدخله بالقفل، وأداره.

"أقول إن هذا البيت أيضاً مثل فندقك آيل إلى السقوط"

فتح صاحب الفندق الباب وقال: "تفضل يا حضرة السيد.."

إزاء تردد "حضرة السيد" بالدخول قليلاً قال يائسا: "كما تفضلتم قبل قليل، فإن مدينتنا خرابة كلها من ألفها إلى يائها. وكما تقدرون، فإن الزهرة لا تجلب ربيعاً.. محسوبكم.. تفضلوا يا سيدي!"

أغلق صاحب الفندق الباب خلفه بهدوء. كان على قناعة بأن أموره تمشي على ما يرام.

كان الدرج الصاعد إلى الأعلى يوحي بالنظافة. هذا يعني أن "الرجل" بقدر ما هو قذر في فندقه نظيف في بيته.

"بيتك لا يشبه فندقك أبداً!"

أمسك صاحب الفندق مصباح كاز، وبرم مفتاح تقويته، فقوي الضوء، ووقف الى جانب الدرج ضاحكا: "لا يشبهه يا حضرة السيد.. تفضل!"

"كما تعلمون، يقولون الأسد يعرف من عرينه"

"معكم حق"

"لا تنس أن فندقك مثل بيتك يعتبر عرينك!"

لحظة أراد أن يقول "سمو حضرتك معك حق!" سمع وقع حدوات بغلين يجران عربة مهترئة تنتشر في سكون الليل، فتذكر مصتق الأقرع.

وتذكر "المتنفذ" أيضاً.

قال: "مصتق الأقرع منهمك مرة أخرى!"

برغم معرفته به جيداً وجد أن من المناسب التظاهر بعدم معرفته، فسأل: "من هذا؟"

"حوذي يا حضرة السيد. إنه الحوذي البالغ الستين تقريباً، والسكران، والثرثار الذي جلب حضرتكم إلى فندقنا".

كانت الدرجات التي تمسحها نساء مدن الأناضول بعناد، وبتعلق، وغضب، حتى وإن توترت منها، وتجعلها مثل صفرة الكهرمان، تصر تحت وقع أقدامه. توقف وقال: "ها، هذا، نعم. إنه رجل ثرثار أكثر من اللازم. يطرح أسئلة على الشخص، ويفتش حتى يجعله يشك بأمره"

قال صاحب الفندق وهو يحمل مصباح الكاز كأنه يعطيه سراً: "عنده هدف من هذا لذلك يفعل".

"هل لديه هدف؟ ما هو؟"

"أنتم تعرفون أكثر طبعاً. إنه يتعرف على الأشخاص الذين يأتون من المحطة إلى المدينة، ويبلغ عنهم الأمن!"

صحيح أن شيئا في داخل "المتنفذ" قد تكّ، الا انه لم يتوقف عنده مطولا. فهو لم يعط أي طرف خيطا. قيامه بالمشاوير يميناً ويساراً ليس مهماً. أما بالنسبة للنقود التي أخذها.. فهل سيأتي الخمار، أم صاحب الفندق ليخبر عنها؟ لم يكن يعتقد هذا. بقي أنه أخذ النقود بلمح البصر، دون أي شاهد.

الطابق الثاني ثم الثالث. كان كل شيء نظيفاً جداً بدءاً من الطابق الأسفل إلى هذا الطابق. خطرت بباله أمه: كانت امرأة مكتنزة، من تلك التي يسميها الأقدمون "معجونة" ويمتدحون شهامتها بلقب "امرأة

عثمانية". كانت أمه على هذا النحو تمسح الدرج، والموزع، والغرف كأنها تحفرها. على عكس أمه كانت زوجته.. قطب وجهه بحقد. تذكر، بغير رغبة، زوجته النحيلة جداً، والثرثارة، التي تقترب عيناها الصغيرتان من أنفها كأن فيهما حوّل. من يعلم ماذا تفعل في هذه الساعة، فهل تتشاجر مع أمه بشراسة، أم أنها أهملت الأولاد والبيت، وتلعب مع النساء المتعلقات بالمظاهر من أمثالها البوكر والبريدج، أم أنها تقوم بنزهة بالسيارة؟ لعلها مع صديقتها العزيزة السيدة الداية.

كأنه رمى نفسه إلى ما وراء خيالاته نسي. وفي تلك اللحظة بالضبط، فُتح الباب مصدراً صريراً، وظهرت امرأة منكوشة الشعر، ترتدي ثوباً مكشوف الصدر والظهر، وعيناها طافحتان بالنعاس: "هل جئت؟"

ولكن هناك شخصا آخر الى جانب صاحب الفندق. شخص محترم، طويل القامة وممتلئ الجسم، له شاربان سوداوان، ووسيم جداً، ولا تعرفه أبداً. كانت تدوخ إعجاباً بأمثاله. تفوح من هؤلاء أصحاب الأيدي الضخمة، والأذرع المفتولة رائحة الرجولة، فهم يعانقون جيداً، ويعتصرون الواحدة عصراً.

عرّف صاحب الفندق بالمرأة: "إنها زوجتي الثانية!" بعد ذلك عرفها "بالمتنفذ": "حضرة السيد قادم من أنقرة. حضرته مفتش رفيع!"

شعر "المتنفذ" بالضيق: "لا، لا. أنا لست مفتشاً، ولا غيره. مسافر مرّ بمدينتكم فقط!"

مهما يكن فإن خليلة صاحب الفندق التي قال عنها: "زوجتي الثانية" قد أحبت الرجل فجأة. لعله ليس حباً، بل هو إعجاب فقط. ليكن مفتشاً أو مسافراً. إنه رجل، ورجل حتى النخاع!

أخذت مصباح الكاز من يد صاحب الفندق، وقالت: "هاته يا عزيزي"

أعطاها إياه، وفي هذه الأثناء، همس لها: لنفتح غرفة الضيوف لحضرة السيد!"

التفتت المرأة الشابة، وقالت: "تفضل يا حضرة السيد!" ومشت نحو الدرج.

ارتبك "المتنفذ" إزاء جمال هذه المرأة الحارق الأبيض التي ظهرت أمامه كلصاعقة بشكل غير متوقع في هذه الساعة من الليل. استجمع نفسه، وقال: "يا سيدتي، أنا آسف لإزعاجك في هذا الوقت المتأخر من الليل. أنا آسف"

قالت المرأة بلهجة اسطنبولية جميلة جداً: "العفو يا سيدي، أرجوك"

انطلقت أمامه، وبقفزاتها السريعة على الدرج، وهفهفة ثوبها، وارتفاعه مع كل قفزة، عرضت فخذيها الناصعي البياض. انتهى "المتنفذ" بين جمال فخذيها المكشوفين والمستورين كأنهما يغمزان له، وبين تضوع جسمها رائحة رطبة، رائحة شبيهة بالأسانس المثير يمتزج بأنفاسه.

صعدوا إلى الطابق الرابع. قالت المرأة: "لحظة، لأشعل المصباح" دخلت إلى غرفة الضيوف بسرعة. أشعلت المصباح الكبير البطيخي الشكل المرفوع فوق عمود من خشب الجوز الثقيل. قالت "للمتنفذ" الواقف الى جانب زوجها في الموزع بطريقة تذيب قلب الرجل: "تفضل يا سيدي!"

أفسحت الطريق أمامه. دخل "المتنفذ". خرجت المرأة بسرعة ونادت زوجها. نزلا إلى الطابق الثالث. وقفا عند الدرجة الأخيرة. سألت المرأة: "من هذا الرجل؟"

طار صواب صاحب الفندق: "ششششش.."

"لماذا؟"

"ماذا لو سمع؟"

"ماذا يحدث؟"

"يا زوجتي، يا روحي، هل تعرفين من هذا الرجل؟"

"لا.."

"أرسلوه من أنقرة لتفتيش مدينتنا. سيفتش على الجميع من الزبال إلى المحافظ، وسيفتش على المحلات كلها، مطاعم وفنادق وبقاليات ومكاتب، ولكنه يخفي أنه مفتش. جاء سراً".

"إذا كان قد جاء سراً، فمن أين أنت تعرف؟"

"لا تقفي عند هذا الموضوع، أنا أعرف وكفى!"

"إذا كنت تعرف فهذا يعني أن الكل يعرفون."

"وليه، يا امرأة، لا تبدئي بالنق على رأسي"

"المهم، دع هذا الآن. هل طلبت عشاء؟ "

"لا يا روحي."

خطر ببال المرأة قضية أخرى، فقالت: "لماذا جلبته إلى البيت؟"

"مضطر"

نظرت المرأة باستخفاف، وقالت: "قال مضطر. ما الذي يضطرك؟"

"يا زوجتي العزيزة، كما تعرفين، أنا مثل بقية أصحاب المحلات لدي بعض الأعمال السرية المخالفة للقانون والنظام. دخل الرجل فجأة إلى فندقنا. تفتيش. طبعاً لم يعجبه شيء. وفوق هذا، البناء آيل إلى الهدم"

قاطعته المرأة: "ماذا، ماذا؟.. ماذا؟"

"آيل إلى الهدم. أي أنه انتبه إلى أنه على وشك الانهيار من نظرة واحدة. سأل. طار صوابي. لو أبلغ البلدية بهذا الأمر فإنهم يبحثون على أمر كهذا، وسيبدؤون بالمعاول والمجارف. البركة بالكاتب، اتصل بي"

تذكرت المرأة: "الهذا اتصل؟"

"طبعاً يا. وغضبت أيضاً، على أنني أكذب. نهضت ورحت، الله يبارك فيه.."

"أما قلت إن المتصل هو الحوذي مصتق؟"

"مصتق اتصل، صحيح"

"ولكنك قبل قليل قلت: الكاتب اتصل؟"

"يا سيدتي، الكاتب طلب من مصتق أن يتصل، وهذا ركض واتصل. المشكلة ليست هنا، هناك أمور لا تفهمينها!"

"غضبت المرأة الشابة من جديد: "هكذا إذن، وهل أنا أفهم؟ أنا دون عقد زواج، أعيش حياة خليلة. لو كنت زوجتك الشرعية، كنت فهمت"

"يا زوجتي العزيزة، يا روحي زوجتي العزيزة"

"هيا، هيا"

حاول أن يعانقها ولكنها دفعته بقوة: "انقلع، انقلع إلى تلك التي تفوح رائحتها!"

"ولكن يا زوجتي العزيزة أقول.."

"لو ما قلت.."

"دعي المزاح"

"اسمع: إذا بقيت تهينني على هذا النحو فإنني والله وبالله أذهب فوراً إلى اسطنبول!"

"..............."

"..............."

سمعت زوجة صاحب الفندق الشرعية كل هذا الحوار والتجاذب وهي في سريرها كما يحدث دائماً، واجتاحت الحرارة جسمها، ونزلت عن سريرها بهدوء، ولكي تسمع بوضوح أكبر اقتربت من الباب على قدميها الحافيتين وأسندت أذنها على ثقب قفل الباب.

كانت امرأة قريبة من الأربعين، مترهلة، يداها ورجلاها ضخمة. وهي امرأة ثرثارة، شيطانة، جاءت "ضرة"، ورغم هذا تغضب زوجها كثيراً. وكلما أرادت أن تنتزع من الرجل شيئاً تتعالى، وتصده، وتهدد بأنها ستذهب إلى اسطنبول.

"لا توترني، والله بالله أذهب إلى اسطنبول!"

"حسنٌ، ولكن لماذا؟"

"لا يوجد سبب، ولا غيره. أنا لست امرأتك الشرعية. أنا غريبة هنا. لا يمكنك أن تمسك بي كما تمسك بزوجتك المعقود عليها. لا تستطيع أن تفرض علي كلمتك، مفهوم؟"

"إذا ذهبتِ، فماذا أفعل من دونك؟"

"اعمل ما تشاء."

"أبكي"

"زوجتك الشرعية ستكفكف دموعك!"

"..............."

"..............."

يبدو أن للرجل تصرفا بشعا يجعلها تصده، وتحتد بوجهه، وتبيع

نفسها له جزءاً جزءاً. وكما قالت زوجة الخياط فإن الخليلات يكنّ ماكرات كالثعالب. ولكن امرأة الخياط تتمادى كثيراً. تقول إخبري الحكومة، وتدبري مداهمة البيت، وارمي زوجك وخليلته في السجن، ولكن نفسها لا تطاوعها على هذا. لو أنهم يلقون الخليلة في السجن، أو الأفضل يعلقون مشنقتها، لما ترددت لحظة. أما بالنسبة إلى زوجها فلا. فالمرأة حناء يد زوجها. ثم إنه رجل، إله المرأة الصغير. فلتدع هذا جانباً، إنه أب ابنها الذي يدرس في جامعة اسطنبول، وابنتها التي عند زوجها. لا تستطيع أن تفعل هذا. هل قصّر حتى اليوم بطعام البيت وخبزه وحلوه ومالحه ولباسه؟ لا. لا تستطيع أن تكره الرجل. لهذا..

فجأة، قبلة وصوت تقبيل.

طار صوابها، وانقطع شريط أفكارها. نوم زوجها مع الثانية، وكلامه الكثير معها، وهذا وذاك جعلها تفقد اعصابها، وتنسى كل شيء. فتحت الباب بهدوء، ونظرت إلى الخارج: كان زوجها قد احتضن الأخرى يقبلها بشكل متواصل في ضوء مصباح الكاز الأصفر، وفي أثناء التقبيل يكلمها كلاماً حلواً: "يا امرأتي، يا روحي، يا حلوة، يا من ليس لي غيرها. مريني بما تريدين. مريني يا من ليس لي غيرها لأنفذ فوراً. سوار ذهبي، قرط بحجر ماسي، قماش ثوب، كل ما تريدين!"

كانت يدا زوجته الشرعية ورجلاها ترتجف. فعلى مدى زواجهما طيلة خمسة وعشرين عاماً لم تسمع كلاماً كهذا، ولا حتى عبارة واحدة منه. هل يجب أن تكون خليلة لكي تُحب، وتداعب؟ بحسب رأي زوجة الخياط، فإنها يجب أن تصرخ، وتقيم القيامة، وأن يقع ما سيقع في هذا المساء، وأن يُزج كلاهما، نعم كلاهما، في السجن.

قفزت إلى الخارج، وهاجمتهما، وفي الوقت نفسه كانت تصرخ بأعلى صوتها: "يا سيدي المفتش، الحق بي يا سيدي المفتش حباً بالله! إن كنت قد جئت من أنقرة، أو أي مكان آخر، فقد أرسلك الله إلينا. الأصبع الذي يُقطع بالشرع لا يؤلم. ضع يدك على هذه السفالة. إما أن تعاقبني، أو تعاقب هذين الوقحين اللذين لا يستحيان!"

كان "المتنفذ" في الغرفة التي ضيّف فيها شارداً بخيال المرأة الشابة ذات نظرة المها والبيضاء التي صدمته مثل صاعقة. ارتبك عندما بدأت زوجة صاحب الفندق الصراخ بأعلى صوتها. ها هو يزج في هذا الأمر أيضاً. ماذا يجب أن يفعل؟ كانت المرأة تبدأ كل جملة من جملها بـ: "يا سيدي المفتش، يا سيدي المفتش!" فهذا يمكن أن ينتشر في الحي، ومنه إلى المدينة، ويصل إلى آذان المسؤولين، وهذا ذنب لا يريده، بل لا يريده أبداً. في الحقيقة أنه لم يقل في أي مكان، ولا لأحد أنه مفتش، أو أي شيء آخر، ولا أوحى بهذا، ولكن الأمر يتجه ليشكل على رأسه مصيبة.

صوت امرأة حيزبون يُفهم من صوتها أنها زوجة صاحب الفندق الشرعية تقلب الليل رأساً على عقب بشكل متوتر: "... كفى حتى الآن إن كان آمراً أو مأموراً أو رجل قانون. ضعوا يدكم على هذه السفالة. الرجل يؤوي خليلة في بيتي منذ أشهر. فهل هذا قانوني؟ عنده أولاد بعمرها، وهي امرأة بعمر ابنته"

وإذا كان صوت المرأة قد انقطع بصوت صفعات، فإنها استمرت بصوت أقوى من السابق، وكأن لحمها يُنهش: "يا سيدي المفتش! النجدة يا سيدي المفتش!"

يجب ألا يتوقف بعد الآن، وأن يسيطر على الوضع. ألقى قبعته

الاسطوانية، وحقيبته على المقعد المطاول، وركض. نزل الدرج على نفس واحد وهو يصر بقدميه الكبيرين، جسمه الثقيل على الدرج، واقترب من المتشاجرين. كانت المرأتان تشد إحداهما شعر الأخرى. صاحب الفندق مندهش. وكانت الزوجة الشرعية على الأغلب تطلق شتائم بمنتهى السفالة، فتدخل قائلاً: "هيـ...ـه، اسمعاني، اسمعاني! ماذا يحدث؟ ماذا جرى لكما؟"

ليس هناك من يعير انتباهاً.

أما صاحب الفندق، فقد كان يردد من حيث يقف جانباً: "عيب، هذا عيب كبير أمام حضرة السيد!"

نظر "حضرة السيد" فوجد أن أحداً لا يعير انتباهاً للعيب. فدخل بجسمه الثقيل والذكري حتى النخاع بين المرأتين. وعمل على أن لا يلمس العجوز، وأخذ الأخرى بين ذراعيه، وحملها جانباً وقال: "ما هذه السفالة في هذه الساعة من الليل يا صاحب الفندق! ألهذا دعوتني إلى بيتك؟"

صاحب الفندق أراد أن يقول شيئاً ما، لكنه لم يستطع. اكتفى بالذهاب إلى جانب امرأته الشرعية، ودفعها نحو غرفتها، ولكن السهم انفلت من القوس، فكانت تصرخ: "اتركني، اترك!"

"يا امرأة، عيب، عيب جداً. حباً بالله، دعي عنك هذا"

لم تكن تصغي: "يكفي إذا كان عيباً وحراماً وسفالة. إذا كنت لا تفكر بالعيب والحرام، فهل أنا التي سأفكر؟ منذ أشهر وأنت تضع هذه الخليلة غير الشرعية في بيتي!"

ردت "الخليلة" وهي بين ذراعي "السيد المفتش": "يا كلبة! نعم أنا خليلة، وغير شرعية، ولكنني لا أبدل بألف ظرف زيت مثلك!"

"يا وقحة لا تستحي ذات الوجه الشبيه بكسرة الزجاج!"

"يا حيزبون، يا حيزبون.. يا كريهة الرائحة!"

كادت الشرعية تفقد وعيها، ومازالت تصرخ: "يا سيدي المفتش!"

أخيراً استطاع زوجها أن يدخلها إلى الغرفة، ويقطع صوتها. أما ذات نظرة المها التي بين ذراعي السيد المتنفذ فقد دفعت الى غرفتها - هذه الغرفة كانت تفوح براحة تشبه بالضبط رائحة جسدها الرائع. كانت غرفة مزينة مثل غرفة عروس. وفي إحدى الزوايا سرير رائع، وسط أقمشة شفافة وبراقة، ومطرزة بالخرز. وثمة مقاعد ظريفة، وسجادة ثمينة جداً على الأرض، وعلى الجدران لوحات نساء عاريات أو شبه عاريات.

وانتفضت المرأة الشابة انتفاضة حادة متوترة، فتخلصت من بين ذراعي "حضرة السيد"، وألقت بنفسها على إحدى الأرائك. ارتفع ثوبها القصير عن فخذيها المكتنزين، وبدأت جاذبية الفخذين تدوخ "حضرة السيد".

وفي اللحظة التي أخرجت علبة سجائر "غلينجيك" من عبها، وتناولت سيجارة، هرع "حضرة السيد" بالقداحة.

دخنت المرأة الشابة سيكارتها متوترة، بعد ذلك، قالت: "لماذا تقف؟ نفذ أمر الحيزبون!"

أطفأ قداحته، ودسها في جيب صدارته، ثم سأل مندهشاً: "أمر ماذا؟ ماذا يجب أن أفعل؟"

"أما سمعت؟ أما أمرت كما تأمر خادم أبيها، إذا كان آمر أو مأمور أو رجل قانون، فليضع يده على هذه السافلة! ضع يدك! اجعلهم يقبضون علينا متلبسين، وأدخلنا السجن. كأن هناك من يخاف من السجن أو السكين أو المسدس!"

سحبت سحبة ظريفة من سيجارتها الرفيعة، ونفختها نحو السقف المرتفع المدهون بالدهان الزيتي. ثم وضعت رجلاً على رجل، وقالت: "تلك المرأة الحمارة لا تعرف، ولكنني أدرك إلى حد ما إنك لا تستطيع القائي في السجن!"

كان "المتنفذ" ينظر نظرة خاوية.

"هل تستطيع أن تجعلهم يلقونني؟"

اقترب خطوة: "لا ألقيك!"

"قل لهذه إنك لا تستطيع! نحن نفهم بالقانون قليلاً يا ابني. هل تستطيع أن تجعلهم يلقونني؟ أنا امرأة حرة. صاحب الفندق هو المتزوج والمرتبط. حتى لو جعلتهم يقبضون علينا متلبسين، فهذا لا يؤثر علي!"

توترت من نظرة الرجل الشاردة، فنفضت سيجارتها على الأرض: "هل أنت مفتش بجد؟"

اقترب خطوة أخرى. قال وعيناه على ثدييها المرصوصين بقوة: "لا"

"لست كذلك؟"

"لست مفتشاً"

"قال إنك فتشت فندقنا؟"

رفضه التام لهذا يمكن أن يكسر هيبته.

"دعك الآن من هذا، واحكي لي"

"ماذا؟"

"كيف حدث هذا الأمر؟"

قالت بحدة جارحة: "أي أمر؟"

"أي كيف جئت إلى هذا البيت؟"

"عليك أن تسأل أصلاً كيف سقطت في هذه الحياة، وليس في هذا البيت. أم أن تربيتك لا تساعد على هذا؟"

بعد ذلك، استجمعت قوتها، ونهضت على قدميها: "عفواً. أنا آسفة جداً. أنا أتحدث برفع الكلفة مع سيد تعرفت إليه تواً. ولكن آه من العقل. وهل العيش ممكن مع ناس كهؤلاء؟ تسأل عن العقل؟ وهل يعيش إنسان في رأسه عقل، أو امرأة في هذه المدينة العمياء، وبين هؤلاء المتخلفين؟ أليس كذلك؟"

"لدي فضول لمعرفة قصة حياتك"

"قصة حياتي. أوووه.. وماذا سيحدث من قصة حياتي؟"

أخذت نفساً جديداً من سيجارتها، ولمعت عيناها وهي تنظر إلى "حضرة السيد"، وقالت: "أنا اسطنبولية. من قوم قابِ"

"يا.. هذا يعني أننا أولاد بلد؟"

"حضرتك أيضاً اسطنبولي؟"

"نعم"

"من أين منها؟"

"كاد أن يزل لسانه، فضبط نفسه: "دعك الآن من هذا"

"ولكن عملك في أنقرة، أليس كذلك؟"

"من أين تعرفين؟"

"أنا أعرف. حضرتكم مفتش، ستتجولون على هذه المدينة القذرة، وتقدمون تقريراً لأنقرة، لكبار رجال الدولة. وأعتقد أنكم ستكتبون عن سفالة هذه الليلة في تقريركم، أليس كذلك؟"

"يا عزيزتي، يا سيدتي، دعك الآن من هذا. إذاً أنت من قوم قابِ؟"

هزت كتفها: "أنا من حيث أنا. هل ستقولون حضرتكم من أين أنتم؟"

"يعني أين صادفت هذا الرجل؟"

"ولا في مكان، هو صادفني"

"أين؟"

"في اسطنبول. ما ستفهمه أنني تمردت على أبي وأمي، وأردت أن أكون فنانة غناء. وصرت كذلك. المهم، وقع طريقي على طريق السينمائيين. عملت كومبارسا ثم عدت إلى فن الغناء. فجأة خرجت في جولة فنية، وكانت هذه المدينة ضمن جولتنا، وتعرفت خلال الطريق في القطار على صاحب الفندق. هذه هي القضية."

في تلك اللحظة بالضبط حدث تراكض وملاحقة، ويبدو أن صاحب الفندق وزوجته كان يلحق أحدهما بالآخر ودخلا الغرفة. قالت المرأة: "يا سيدي المفتش، أنا قربانك يا سيدي المفتش.. ليحدث ما يحدث هذه الليلة. إما أن تلقوني بالسجن، أو تلقوا هذه السافلة في السجن، حباً بالله وبالرسول. برؤوس أولادكم افعلوا هذا! سئمت ومللت من هذه المعيشة. لن أستطيع الاحتمال. لم أعد أستطيع النظر بوجوه أهل الحي. الكل يقولون، تفوه، الله يلعنك يا امرأة. طالما أن القانون يعطي الحق للمرأة الشرعية، فلماذا لا أستفيد من هذه الحقوق؟ لم تبق لدي إمكانية الاحتمال!"

المرأة التي تسحب الدخان من بين أصابعها الظريفة وتنفثه نحو السقف،قالت: "وأنا أيضاً لم أعد أحتمل. وأنا أيضاً"

صرخت الحيزبون بصوت فظ، يذكر بصوت الرجال على الأكثر: "إذا لم تعودي تحتملي، فاذهبي، وانقلعي!"

"إحكي بشكل مؤدب يا سافلة!"

"أنت السافلة والوقحة وعديمة الحياء. واحدة مثلك لا يحق لها أن تتكلم عن تربيتي. انظري إلى نفسك. لا تخجلين من الجلوس كاشفة هذا وذاك من جسمك أمام رجل غريب عنك، أليس كذلك؟"

"هه، هه، هيـ...ـه!"

"عديمة الحياء والأدب. يا مشطوبة الوجه بكسرة كأس!"

"ليس كأساً، قطعة زجاج"

"كسرة الكأس أو الزجاج، كله مثل بعضه"

"طبعاً يا.. بالنسبة لأمثالك، فحبة الخوشاف مثل ماؤه!"

"ماذا يعني؟ هل تعتبرينني حمارة من كل عقلك؟"

"أنا لا أعتبرك، أنت وجدت مكانك"

"اخرسي، يا الله اخرسي. أنا لا أنوي أن أنافسك بالكلام!"

"اقطعي الثرثرة إذاً !"

"أنت اقطعيها"

"أنت مثل حماتي اخجلي من نفسك!"

"..............."

"..............."

"..............."

كان "المتنفذ" يدوخ إعجاباً بطريقة كلام المرأة الشابة. طريقتها بهز يدها بعصبية وهي تتكلم، وسخريتها المبطنة. فجأة تذكر زوجته.. فحتى زوجة صاحب الفندق هذه أكثر جاذبية من زوجته الجافة. فهذه على الأقل مكتنزة أما زوجته فهي مثل العكاز تقريباً. وخاصة أنفها، وعينيها

المنزلقتين الى الاسفل كأن فيهما حولاً، وحبها لبس البنطلون الضيق من تحت الركب والعريض من الأعلى وركوب الخيل يجعلها أعجوبة!

تنهد مهموماً. لولا وجود تلك المرأة، سيلتقط الأخرى التي يكاد يقع في هواها.. ولكن، لعله يفكر بشيء ما.

اقترب من المرأتين اللتين مازالتا تتهاتران، وقال: "أرجوكما دقيقة"

صمتت المرأتان. كانت امرأة صاحب الفندق الشرعية تنظر إلى الرجل بفضول، متوسلة النجدة، وعينها اليمنى ترف من دون انقطاع وهذا يمنحها شعورا جيدا. إن شاء الله تُحل هذه المشكلة هنا وترتاح قبل أن يحلّ الصباح. هكذا إذن، فالرجل مفتش كبير، ولعله أيضاً مفتش المفتشين. والحقيقة إن هذا يليق به. إنه رجل وسيم.

التفت "مفتش المفتشين" إلى صاحب الفندق بأبهة مفتش حقيقية وقال: "بيتك وفندقك آيل إلى الهدم، فرشك ولحفك قذرة، وتنزل في فندقك رجالا دون بيان أنت مضطر بحكم القانون أن تقدمه للشرطة، وفي بيتك تضع امرأة أخرى إلى جانب امرأتك الشرعية"

وقبل أن يكمل خطابه، تدخلت زوجة صاحب الفندق الشرعية منفعلة: "هيه، أقبل فمك! الله أرسلك هذه الليلة إلى هنا، الله أرسلك!"

قالت المرأة الشابة التي فاض غضبها فجأة: "تفوه. تقول أقبل فمك!"

"انزلقت من لساني. درج كلام. أنا لست خليلة بجوار ابن الناس الغريب مثلك!"

"أنا خليلة، وسافلة، هل لديك أكثر من هذا تقولينه لي؟"

"ماذا سيكون لدي لأقوله؟ يا ذات الوجه المشطوب بكسرة الكأس"

"ليست كسرة كأس، زجاج!"

"همّ!"

"على قلبك!"

خطر بباله شيء آخر. حقيقة، لماذا لا يعطي لهذه المرأة التي تصرخ "سافلة" نصيبها أيضاً؟ فقال: "انظري إلي!" أسندت الزوجة الشرعية قبضتيها على خصريها: "أنظر، ماذا يوجد؟"

"لا تجعليني أفتح فمي، واجلسي في مكانك!"

نطت المرأة الحيزبون وحطت فجأة: "افتحي يا بنت، افتحي!"

"ولكن سيكون الأمر بشعاً جداً إذا فتحته.."

ردت بما تعنيه جملة: "يا.. ماذا يحدث يا ترى؟ لا تكوني قد رأيت شيئاً من أعمالي السرية"، وقالت: "أما قلت لك لا تجعليني أفتح فمي!"

خافت فجأة ونظرت إلى زوجها، ثم قللت أدبها: "لا تشككي بالإنسان يا بنت!"

"أنا لست بنتاً!"

"لتكوني قعر جهنم الذي تريدينه. لماذا تشككين بالإنسان وكأنه مذنب؟"

"نحن نعمل ذاك العمل علناً. أما أنت وأمثالك فتعملونه وراء ستار وبالسر!"

أرادت أن تهجم عليها، ولكنها ضبطت نفسها بعد ذلك: "ما هو الذي بالسر؟"

التفتت المرأة الشابة إلى صاحب الفندق، وقالت له: "بدّل بائع الماء، فهو لا يجلب ماء جيداً!"

فهمت المرأة الحيزبون كل شيء، فبدأت ترتجف: "هيا، هيا. نحن ممنونون من بائع الماء الذي لنا!"

ولكن الشك دب في قلب صاحب الفندق. فنط عرق الشرف عنده على الرغم من انه لم يغر أبداً، قال: "هل هذا صحيح يا بنت؟"

شحبت المرأة، ابتلعت ريقها، واغرورقت عيناها بالدموع، ثم بدأت تنشج قائلة: "والله كذب. والله وبالله كذب. إنها تفتري عليّ. أنا امرأة مسلمة متدينة أتوضأ وأصلي أوقاتي الخمسة. ألا تعرفني أنت؟ أنا زوجتك كل هذه السنوات، فهل ستأخذ كلام هذه وتلك، وتصدق كلام واحدة سافلة؟"

ولكي يعرف صاحب الفندق "الذي مُس شرفه" حقيقة الأمر، أخرجها من الغرفة.

قالت المرأة الشابة متوترة: "لم أكن أريد هذا، ولكنها أجبرتني. تقول مسلمة، وتصلي الأوقات الخمسة. إسلامها درع تختبئ خلفه. لم يمض شهران لي في هذا البيت وعرفت أي بضاعة هذه المرأة، ومن هم أحبابها. الشرف يسيل من أطرافها!"

فجأة التقت عيناها بنظرة "حضرة السيد" المفتونة، فانتبهت. ما هذا؟ هل وقع الرجل بالهيام؟ نظرت بانتباه أكبر: حسنٌ، إنها نظرة عبد مطيع. ولم يكن هذا سيئاً أبداً. كان رجلاً له أبهة، قامة وقوام، وفوق هذا وسيم جداً. إنه ليس ملتصقاً بقوقعته مثل صاحب الفندق! قال إنه اسطنبولي. من يعلم، لعله يأخذها معه وهو ذاهب. إذا لم تكن اسطنبول، فلتكن أنقرة. كلتاهما مدينتان كبيرتان، مدينتان جميلتان، مدينتان متحضرتان. ثم إنها ليست غير مجربة العيش مع رجل يمكنه أن يسحبها

إلى حيث يشاء، سواء كان مفتشا أو نائباً برلمانياً أو تاجراً أو متعهداً أو منتجَ أفلام. لتجعله يركض خلفها فترة في البداية. ولكن، ثمة ما يجب ان تعرفه.. ترى هل هو غني؟ فماذا يفيد أجمل رجل في الأرض إن لم يكن غنياً. فلماذا تتحمل عذاب صاحب الفندق لولا أنه غني؟

ضحكت. اهتز "المتنفذ". كانت تلك ضحكة مشبعة بكل شيء: الرغبة، والإعجاب، والعشق..

اقترب منها. لم تهرب المرأة. على العكس تماماً، نظرت إلى الرجل نظرة فيها حور خفيف، ولكنه حور يحرق تماماً، مفعم بالأنوثة. مد الرجل يده، فأمسكتها المرأة الشابة. مد الرجل يده الأخرى ليد المرأة الثانية، ولم تسحبها أيضاً. وبشفتيه المرتجفتين المحترقتين قبّل إحدى يديها أولاً. لم تبال المرأة أيضاً. قبّل الأخرى، ثم قبل هذه ثم تلك، ومرة أخرى هذه وتلك.. وقبلها ثم قبلها مثل بندقية رشاشة.. كاد يقترب من شفتيها، فدفعته المرأة بيدها من صدره: "لا.. ليس إلى هذا الحد!"

وبصوته الخافت المتوثب: "لماذا؟"

"يمكن أن يرانا الرجل!"

"ماذا ينجم عن هذا؟"

"لا شيء، ولكن الأفضل ألا يرى!"

"ليلاً؟ ها؟"

"ولكنك مستعجل كثيراً.. بدل أن تعمل على تخليصي من هنا.."

كاد "المتنفذ" يجن. ههنا لا توجد امرأته المنزلقة العينين نحو الأنف، ولا نقيقها، ولا أولاده، ولا أمه.

"هذا يعني أنك تريدين الخلاص من هنا؟"

"طبعاً أريد"

"هل هذا صعب؟"

"إن لم يكن صعباً، فلم انا باقية؟"

"لماذا؟"

"لا أستطيع أن آخذ أغراضي، وحاجياتي!"

"ماذا لديك؟"

"أساوري وأقراطي ذات الأحجار الماسية"

شردت عينا "المتنفذ" لحظة ثم عادت الى المرأة بانتباه، كان يفكر: كيف يجب أن أخلص المسكينة من هنا، وتكون الأساور والأقراط قد خلصت أيضاً!

"إذا أردت أن أنقذك"

"نعم؟"

"هل تثقي بي؟"

"لم أفهم؟"

"أي إنني إذا خلصتك مع أغراضك، فهل تثقي بي، وتسلميني أغراضك؟"

فهمت المرأة كل شي فقالت: "حسنٌ، ولكنني لا أعرف بعد أين تسكن، وماذا تعمل بشكل سليم!"

سحب بطاقة من محفظة أخرجها من جيب بنطاله الخلفي ومدّها اليها، وقال: "خبئي هذه جيداً. إذا جئتِ إلى اسطنبول يمكنك أن تجديني على هذا العنوان!"

سألت المرأة بذكاء: "أما كنت قادماً من أنقرة؟ أما كنت ستفتش هذه المدينة، وترفع تقريراً للكبار؟"

وجد أن من المناسب ألا يتوقف عند هذا الأمر: "لا تتدخلي أنت بهذا الأمر حالياً، وفي ما بعد ستعرفين كل شيء! اعتمدي عليّ، وثقي بي. أحببتك كثيراً. يجب على الإنسان أن يحمل امرأة شابة مثلك على رأسه. أنت رائعة!"

انفعل إلى حد نسيان احتراسه. جذب المرأة إليه بين ذراعيه القويين، وألصق شفتيه الغليظتين المكتنزتين بشفتيها الطازجتين المصبوغتين بأحمر الشفاه.

كان ينبعث صوت صفعات صاحب الفندق لزوجته من بعيد.

سحبت المرأة شفتيها من فم الرجل بارتباك وفرح: "إنه يضربها!"

"نعم يضربها"

"تستحق. وأنا كنت أريد هذا.."

"جدي طريقة ليلاً، واجلبي أساورك وغيرها لي، وأعطيك مقابلها سنداً. وفيما بعد تأتي إلى عنواني الذي على البطاقة، وتجدينني هناك. اتفقنا؟"

"اتفقنا.. لكن ألست متزوجاً؟"

قال: "لا يا روحي. الله لا يرينا!"

"هل تتزوجني؟"

"إذا كنت تريدين هذا"

قالت المرأة الشابة: "أريد"

"وأنا أيضاً"

مدت شفتيها وقالت: "قبلني!"

وبحملة هياج جديدة، وجديدة جداً، ألصق شفتيه بشفتيها. فيما

كان ينبعث من الداخل صوت نشيج بكاء الزوجة الشرعية، وشتائم صاحب الفندق.

جلبت المرأة علبة من الصفيح فيها أساورها، وأقراطها، وخواتمها، وأعطته إياها: "لا أريد سنداً، ولا غيره. خذ!"

أخذت المرأة الشابة العلبة الفارغة، ووضعتها في درج طاولة الزينة، ودفعت الدرج. وجاءت إلى جانب الرجل: "هل تذهب أنت من هنا إلى اسطنبول فوراً؟"

"لا."

"إلى أين؟"

لأول مرة تجاوز حدود "الذنب": "هناك أمكنة أخرى في الأناضول سأفتشها!"

أمسكت المرأة يد الرجل: "وأنا أيضاً سآتي معك!"

فكر الرجل للحظة. ما المانع؟

"حسنٌ!"

قالت فرحة: "اتفقنا؟"

"بعد أن تطلبي هذا"

"أنا أطلب هذا. لا تتركني، أرجوك لا تتركني. وطالما أنك تحبني.. أنا أيضاً أحبك. ثم أننا أولاد بلد واحد. اتفقنا؟ لن تتركني، أليس كذلك؟"

"لن أتركك"

"أريد أن أكون زوجتك وأتجول معك!"

"وأنا أيضاً"

"ما أجمل هذا، آه ما أجمله. سيعتقدون أنني زوجتك، ويقولون حضرة السيدة، حضرة السيدة"

ولكن "المتنفذ" قال: "لدي شرط واحد!"

"شرط ماذا؟"

"لن يحدث لي ما حدث مع صاحب الفندق!"

وإذا لم تغضب المرأة الشابة، فإنها حزنت قليلاً، أو جرحت. نظرت ببراءة، ومسكنة جعلت "المتنفذ" يصدق، حتى إنه خاف ذات لحظة أن تغضب المرأة، وتتخلى عنه.

لم تغضب المرأة، ولم تفكر بالتخلي عنه، وقالت: "وهل أنت صاحب فندق؟ أي امرأة تستطيع أن تخونك؟"

انتفخ صدره. لو تسمع زوجته الحولاء، والتافهة، والنحيلة إلى حد الجفاف. كانت تناديه فزاعة وتقول أن من يرى بنيتك وهندامك يعتقد أنك رجل، ويتعلق بك، ولكن سيرون عندما يدخلون إلى داخلك أن أي امرأة تركبك. أي امرأة، أي امرأة."

مرة أخرى ألقى من تفكيره زوجته النحيلة جداً بلا مبالاة، وقال: "حسنٌ. أولاً يجب إنقاذك من هنا. أنا سأحلّ هذا الأمر كما أخرج الشعرة من العجين!"

كان صوت أنين الزوجة الشرعية ينبعث من الداخل.

- ٧ -

صخب عربة مصتق الأقرع في شارع المدينة الرئيسي المرصوف بالحجارة والشوارع الفرعية لم يهدأ حتى ساعة متأخرة جداً من الليل. والناس الذين يعرفون صخبه، ينامون ويفيقون، وعندما يفيقون من نومهم الحلو، يطلقون الشتائم أولاً، ثم يسألون زوجاتهم اللواتي ينامون معهن في الفراش: "ما مشكلة هذا الرجل في هذه الليلة؟"

"والله كيف أعرف؟ أنام، وأفيق، وهذا يحدث!"

"غداً نعرف الأمر، لو نمضي هذه الليلة.."

برغم أن هذه المدينة هي مركز المحافظة فإن أهلها جميعاً يعرفون بعضهم بعضاً. الغريب سرعان ما يعرف. وقد عُرف الرجل "تغذية أنقرة" كما سمّاه الحوذي مصتق الأقرع فوراً. وتحت التأثير الكبير للمشروب الذي تقدمه الخمارة الصغيرة، نقلوا وقعه كما حصل من البداية: "هل تعرفون ما جرى في هذه الليلة؟"

أصغى الشباب والشيب ومتوسطو الأعمار الذين ملؤوا رؤوسهم في مختلف المطاعم والخمارات، ويلعبون الطاولة ومختلف ألعاب الورق.

"كنا نملأ رؤوسنا عند حيدر، فدخل فجأة متنفذ إلى الخمارة يا سيدي.. إنه صاحب بنية قوية. طار صوابنا كلنا. من هذا الرجل الضخم

ولاه؟ إنه على الأقل نائب في البرلمان أو وزير أو مفتش أو مفتش حزبي. تنظر إليه فتقول لنفسك إنه نائب بالتأكيد، بعد ذلك يتحدث، فتقول لا، إنه وزير، ثم فجأة تقول إنه مفتش صحة، ولكن بعد هذا تقتنع أكثر أنه مفتش حزبي. ولكن الرجل عندما تكلم تحول حتى حيدر الخمار إلى قرد صامت أمامه!"

"حسنٌ، من هو؟"

كان الذي ينبئ بالخبر يرفع كتفيه: "والله من أين أعرف؟ كما قلت، تنظر إليه فتعتقد أنه نائب، بعد ذلك تقول إنه وزير، وبعدها مفتش، وبعد هذا مفتش حزبي!"

ينفش نفسه أحد المتقاعدين الذين ضربوا شهرة واسعة بثرثرتهم: "حسنٌ، ألم تسألوه؟ أما سأله حيدر المخبول هذا؟ أما نظر إلى هويته؟"

يندهش ناقل الخبر: "يا هذا، ماذا أقول لك يا أبانا؟ إنه ضخم إلى حد أن الجميع يختلط عقلهم ببرازهم. من يستطيع أن يخرج ويسأل الرجل من أنت؟"

"أبونا" هذا أحد الذين كانوا يسمعون الكلمة قديماً. يرمي بالكلمات كما يشاء، لكنه خلال حياته كلها لم يقف أمام "ضخم" ليعارضه. شرب في تلك اللحظة، ولم يكن أمامه "متنفذ" أو "صاحب مال": "أنتم لهذا لا يمكن أن تكونوا رجالاً حقيقيين!"

يقطع كلامه أحد المتعلمين الآخرين: "لو كنت أنت ماذا تفعل؟"

كان بينهم الأفندي، أو من أمضى فترة في التعليم. ترك زبائن المقهى النميمة ولعب الورق، وراحوا يستمعون إليهم.

"ماذا كنت أفعل؟"

"ماذا كنت تفعل؟"

" كنت أطلقت صراخ: هووو.. له!"

"ماذا، هل كنت تركع له؟"

"أطلق له: هووو، ولا أركع له. أنا إنسان يتمتع بالجرأة الحضارية يا أخي. أنت لا تعرفني، ولكن اسأل الذين يعرفونني!"

"هيا يا صديقي، لا تعتبر نفسك نعمة مثل الفاصولياء!"

حلّ يوم السعد على زحام المقهى الجاهل. باشرها اثنان ممن تعلما في زمن ما، أو أمسكا القلم بيدهما، ما جعل الورقة تستغيث. بدأت شتائم تتناول الأم والزوجة، وبعدها كان هناك رفس وصفع. كان يومهم على اية حال. يقربون أوراق اللعب، ويفتحون أعينهم أكثر قليلاً: "انظر إلي!"

"ما هذا؟"

"علينا أن ننهش بعضنا بعضاً أمام الناس الجاهلين!"

"وإذا فعلنا ماذا يحدث؟"

"تسأل ما يحدث؟"

"ماذا يحدث؟"

"ماذا سيحدث؟ ستعرف كل رذائلك!"

"أنا؟"

"لأ أبوك!"

"لا تدخل أبي في الموضوع!"

"أنت أو أبوك، بماذا يختلف الأمر؟ هل ستحسبون أنفسكم نعمة مثل الفاصولياء؟ أنا أعرفك، وأبي يعرف أباك، وجدي يعرف جدك!"

"ماذا تعرف عنا؟"

"ولاه، ألم تكن كاتب نفوس؟ أما كنت تعطي قيود نفوس لأولاد الحرام مقابل خمس أو عشر ليرات؟"

"خمس أو عشر ليرات ذاك الزمان تساوي خمسين أو ستين الآن!"

يتنهد صاحب لحية بيضاء حسرة على الأيام الماضية: "قل خمسمائة وستمائة.."

"يسلم فمك، صحيح. دع عنك الخمس والعشر، هل هناك الآن من يعطي قيد النفوس بخمسين أو ستين؟"

"هناك من يعطيه!"

"من؟"

"رضا الذي نعرفه. هات خمسينية جديدة، فسوف يميتك بالنفوس، ويعطيك بعدها قيد نفوس!"

"..............."

"..............."

"..............."

وبينما كانت المناقشات الشبيهة بهذه تدور في كثير من أحياء المدينة، وتحدث مشاجرات بالصفعات والركلات، كان الحوذي مصتق الأقرع يبحث عن "مفتش المفتشين تغذية أنقرة" الذي فقده فجأة. ولاه تحول هذا الرجل إلى فص ملح وذاب! وليس هذا فقط، فقد كان المحافظ، ومدير الأمن معاً يضغطون عليه: "أين هذا الرجل؟ وإلى أين ذهب؟"

كان يفتح يديه إلى الجانبين ويشتكي: "لا أعرف يا حضرة السيد، والله بالله لا أعرف. الله يعمي عيني الاثنتين، ويجعلهما بيدي إذا كنت أعرف ولا أقول!"

على الأكثر، كان المحافظ صاحب الكرش الأكبر لا يستمع أبداً. وبينما كان يذرع البهو الواسع ذهاباً وإياباً، يقول: "لا حول ولا قوة إلا بالله!"

يقول هذا، ولكن بعد ذلك يبدأ بالضغط على مدير الأمن: "إنك ترى، أليس كذلك؟ ترى البهدلة بعينيك؟ يأتي إلى مدينتنا رجل هذا القد قدّه، ومثل الجمل، وبعد ذلك يغادر وهو يلوح بيديه! هل سحب نفسه، وذهب؟ هذا أيضاً غير معروف. لأنه إذا كان سيسحب نفسه، ويذهب، فلماذا أتى؟"

يدير عينيه الواسعتين إلى مدير الأمن كأنه سيأكله، ويسأله: "نعم؟"

مدير الأمن مؤمن بأنه حتى لو كان على حق، فليس أمامه سوى أن يقول لآمره: "الحق مع سيادتكم!" ولكنه صامت ويشعر بالذنب. لكنه برغم هذا يفكر: كانوا يلعبون البريدج معاً. فلا يمكن لأي مدير أمن أو مسؤول مكلف بالأمن في العالم أن يعرف كل آمر أو مواطن يدخل فجأة الى المدينة! بقي القول أن مدير الأمن ليس بالضرورة يعلم الغيب. وهذه على الأغلب مهمة المأمورين الصغار، أو المنشغلين بقضايا ثانوية على الأكثر. والحوذي مصتق واحد من هؤلاء. جاء وأخبرهم، ومنذ لحظة إخبارهم انتهت مهمته. الرجل أصلاً ليس مأموراً، ولكن السيد المحافظ صرخ من جديد، وحتى إنه قال: "رجل حمار!" ليس له الحق. لهذا كان المحافظ لا يحب الحوذي مصتق الأقرع! "ما علاقتي أنا بالمحافظ؟ هل آكل وأشرب معه؟ ولكن مدير الأمن له فضل على لحية أبي. فالرجل باسم الوجه، حلو اللسان، وخاصة السجائر التي يقدمها لي، فهي تساوي العالم كله!"

"لا تقف مثل الخازوق!"

نظر إليه كأنه يقول: "ماذا أفعل يا سيدي؟" ولكن السيد المحافظ فهم أنه ينظر بهذا المعنى: "اذهب، واسأل، وابحث، واعلم إلى أي جهنم انقلع الرجل. هيا!"

البركة بمدير الأمن الذي هرع لنجدته. داعب ظهره، وأوصله حتى باب البهو، وفي الوقت نفسه كان يخفف عنه، ويطيب خاطره: "لا تنظر إلى السيد المحافظ يا مصتق أفندي. اليوم هو شديد الغضب. لا يعرف ما يقول. أخرج واذهب وتجول على الفنادق كلها مرة ثانية. مهما كان فإن الأرض لم تنشق وتبلع الكافر!"

خرج، ودار على الفنادق للمرة التي لا يعرف عددها، ولأن أصحاب الفنادق التي تجوّل عليها أدركوا أهمية الأمر، أطلقوا نزلائهم التهريب من الأبواب الخلفية، وغيروا الأغطية القذرة، وكنسوا الغرف، وفعل الكتّاب ما فعلوه من أجل إغلاق نقص الخزينة عندهم. يمكن "للسيد المفتش" أن يأتي في أي لحظة. يمكن أن يأتي، ولكن أين هو؟ ها هو مصتق يمر من الشارع الرئيس مرة أخرى صاخباً!

ها هو يمر مثل شتيمة! ارتباكه ليس بسبب المحافظ أو غيره، بل بسبب الخمسمائة التي انتزعتها زوجته العوراء.

من يعلم كم مرة شدّ لجامي حيوانيه أمام باب بيته، وأوقف العربة ونزل. زجاجة العرق التي أكرمه بها صاحب المطعم انتهت منذ فترة طويلة، وقد داهمته نوبة لأنه لم يجد غيرها. كان سيضرب زوجته العوراء التي وضعت يدها على الخمسمائة لو وقعت بيده، ولكنها لا تقع. فقد وضعت المزلاج من الخلف ونامت. لم تعد تهتم إذا ما طرق

مصتق الباب براحة يده، أو حتى لو أطلقوا مدفعاً، واهتزت الأرض، وقامت القيامة. آآآه، آه يجب أن تكون معه الآن زجاجة عرق حتى يعرف ما سيفعله! ركلة للباب، وبعدها دفعة بالكتف، ثم ركلة أخرى. وسيلج إلى الداخل، ويلتقطها من شعرها.

نادى قائلاً: "يا حرمة! وليه حرمة، بعد هذا الليل نهار أيضاً. وسينظر أحدنا بوجه الآخر. افتحي هذا الباب!"

لم تفتح ولم تفتح. وقد تخلى عن فتحه، لأنها الآن لا تصدر صوتاً. إما أن "ابن آوى قد مات" أو أطلق عليه النار. لو كانت الخمسمئة له لما اهتم، ولما سأل عنها والله بالله. فهي زوجته طوال كل هذه السنوات، فلهذا سيشرب عليها كأس ماء بارد. ولكنها ليست له!

"يا حرمة، النقود ليست لنا، يجب أن أعطيها للسيد المفتش غداً. سيلقونني في السجن إذا لم أعطها له. لا تفعلي هذا، وافتحي هذا الباب!"

كلام الرجل منذ المساء: "سأعطي النقود للسيد المفتش، وإذا لم أعطه إياها، سيلقونني في السجن!" أثارت اهتمام الجيران إلى أبعد الحدود. بداية بدأ كل شخص منهم يقلب الأمر مع سكان بيته: "ما علاقة هذا الأقرع بالمفتش؟"

"إنه ليس أكثر من حوذي لا يساوي خمسة قروش!"

"أين المفتش منه؟"

"يخشى أن يكونوا قد عينوا مفتشاً على العربات؟"

بالطبع بات هذا الأمر لا يشغل أصحاب عربات نقل الركاب والأحمال فقط، بل وشكل هماً لزوجات هؤلاء وأخافهن. فأزواجهن لا

يكسبون كثيراً بالأصل، وسينتهي أمرهم إذا عينوا عليهم مفتشاً. وماذا يعني قول الأقرع منذ المساء: "خمسمئة، هاتي الخمسمئة، غداً سأعطيها للمفتش. وإذا لم أعطه إياها، سيرمونني في السجن!.." أي علاقة "للخنزير الأقرع بالمفتش، وبأي مفتش، وبمن، ومن أين له علاقة بمفتش حتى يُزج في السجن إذا لم يعطه إياها؟

"يا حرمة، اتركي العناد، وهاتي هذه النقود!"

بداية مدّ أحد الجيران رأسه من النافذة: "ولاه مصتق!"

"ماذا يجري في هذا الوقت من الليل؟ يكاد يطلع الفجر"

قال جار آخر بحقد: "سيطلع، وها هو يطلع!"

فجأة شارك الآخرون: "لم نستطع النوم بسبب ثرثرتك ولاه!"

"معلق على خمسمئة.."

"أي خمسمئة ولاه؟"

"يخشى أن يكونوا قد عينوا مفتشاً على أصحاب العربات؟"

بعد أن أطلق مصتق الأقرع آهاً عميقة، سأل: "هل لديكم عرق؟ لو وجدت زجاجة نصية تكفي. وستكون مقبولة "

عرق في هذه الساعة من الليل؟ لا يوجد. حقيقة لا يوجد. كانوا أناساً فقراء مثل مصتق الأقرع. وبالنقود التي يحصلون عليها يملأون بطون أولادهم بصعوبة.

"اترك مسألة العرق بعد هذه الساعة، وتمدد، ونم!"

وبعد شتيمة مخيفة، قال: "إنها لا تفتح الباب. لو تفتح الباب، آه لو تفتحه!"

كانت المرأة تسمع كل هذا من الداخل، وتضحك كاتمة صوتها. فلن

تفتح الباب، ولن تُدخل الأقرع إلى البيت هذه الليلة. أما الخمسمئة ليرة، فلن تعطيه إياها حتى ولا بالقوة. من يبتلع قصة المفتش؟ وما مفتش؟ أما هي فتقوم بعمل الزوجة إزاء مصتق الأقرع من ثلاثين سنة. وكم استطاعت أن ترى من نقوده؟ يصرف النقود التي يكسبها على العرق والنبيذ، ولا يفكر بغير نفسه. وبما أنه لا يُفكر، فإن زوجته العوراء لن تبالي إن ألقته في السجن. في الغد إن شاء الله ستذهب إلى البنك، وتودع الخمسمئة. كيف يفتح الله بوجوه الآخرين؟ لعل الله ينظر بوجهها، ويشفق لحالها، ويكسبها بالسحب طابق في بناء!

شردت بالتفكير مرة أخرى فيما إذا كسبت بالسحب طابقاً في بناء أم لا. وبينما كانت تنتبه لحديث زوجها مع أبناء الحي بشكل صاخب، نهضت من فراشها بهدوء، وذهبت إلى النافذة بقدميها الحافيتين القذرتين.

أووووه.. خرج الناس جميعاً من السابعة إلى السبعين إلى الأبواب والنوافذ، ويخرج من كل رأس صوت:

"..............."

"..............."

"..............."

"من؟ أنا؟ طبعاً، أما أعجبك؟"

قال الحوذي رجب: "ولاه، أنت رجل كم تساوي ليكون مدير الأمن"

نط مصتق الأقرع: "ماذا يعني كم تساوي؟ أنا حوذي منذ أربعين سنة يا صديقي! أي واحد منكم عنده قدم الخدمة مثلي؟ عندما رمى مصطفى كمال اليونانيين إلى البحر كنت حوذياً. في ذلك الوقت كنتم تختمون على الرمل!"

"هذا يعني أن المفتش قال لك هذا، يا الله ياه؟"

"طبعاً قال. أستغفر الله، فهو في الحقيقة لم يقل. هو لم يقل، ولكنني أنا فهمت هذا. قلت له يا سيدي، هل كان تشريفكم من أنقرة؟ أراد تمرير الأمر. عندها فهمت. تغذيته تغذية أنقرة. يبلغ وزنه حوالي مئة وعشرين أو مئة وثلاثين. عندما ركب العربة كادت أن تنقلب!"

"بعد ذلك يا أقرع؟"

"بعد ذلك سلامتك. إذا كان ماكراً كالثعلبً فأنا ذيله. يا ما رأيت مفتشين. ولكن ليس صحيحاً أن نتجاوز حق الرجل. فهذا لا يقبله الإسلام. رأيت كثيراً من الآمرين والمأمورين والمفتشين، ولكن في الحقيقة لم أر بمهابته أو تغذيته. وهذا يظهر أنه أعلى من المفتشين: تناول الرجل طعامه، وشرب شرابه، ودفع أكثر من الحساب!"

قال السائس عمر: "خلص، حباً بالله!"

"طبعاً حباً بالله يا هذا. المفتش الذي نعرفه نحن يأكل، ويشرب، ويسحب نفسه، ويذهب. دع الدفع جانباً، فهو يقبض فوق هذا"

لم يكن لدى اللذين هناك على مبعدة قليلا ما يقولونه أزاء هذا الكلام. ليس هناك أحد منهم رأى بعينيه مفتشاً أكل، وشرب، وقبض، ولكنهم برغم هذا وافقوه بأن المفتشين يأكلون، ويشربون، ويقبضون فوق هذا!

فعل ما فعله مصتق وأقنع الجيران بأن مفتشاً جاء إلى مدينتهم وزنه مئة وعشرون كيلو، وهو رجل مستقيم، "يأكل ويشرب، ويدفع حتى ثمن ما أكله وما شربه!"

قال شاب نحيل جداً: "مظاهر"

التفت مصتق إلى الرجل بحدة: "مظاهر ماذا؟"

"طبعاً هذه مظاهر! فقد دفع ثمن الطعام والشراب من أجل أن يحصل على مبلغ أكبر. يا له من ماكر ابن ماكر!"

غضب مصتق الأقرع، وقال: "ولاه، أنت لم تفقس من البيضة بعد. هذا ليس من المفتشين الذين تعرفهم."

"هل يقبض على فأر دون قط؟"

"احك بشكل صحيح!"

"ماذا يحدث؟"

"ولاه، حتى المحافظ يرتجف من الرجل!"

"المحافظ يرتجف"

"لماذا يرتجف؟"

"اسـألـه. أنا لماذا لا أرتجف؟ لماذا لا يرتجف أهل الحي؟ لأننا لا نخاف!"

فكر مصتق الأقرع قليلاً. هذا صحيح. صحيح حتى النخاع. وهو صحيح مثل كتاب. ولكنه هل سيبقى هنا لكي يوافقه على هذا الكلام؟ كيف ما نظرت إليه فهو واحد "لم يفقس من البيضة" لا يساوي خمسة قروش!

فيما بعد استطاع ان يسحب من المعتوهة زوجته مئتين من المبلغ. أما الآن فقد قفز إلى عربته، والتقط المقود، وساط بسوطه على مؤخرتي الحيوانين: "حاااا!!!"

عبرت العربة الطريق الترابية بسرعة، وعندما انعطفت إلى أحد الشوارع الفرعية الخربة البلاط بدأت تصدر قرقعة من جديد. ومع دخول

هذه القرقعة إلى النائمين، يستيقظ كثير منهم، ومن يستيقظ منهم، يكيل الشتائم لمصتق الأقرع.

لا أحد يعلم كم مرة جال على الفنادق، وها هو يجول عليها مرة أخرى، ويطلق أقذع الشتائم.

ما أن عبر ماراً من أمام الصيدلية التي يناوب فيها الأجير المجنون، حتى ألقى بنفسه هذا بالسروال والقميص الداخليين إلى أمام الباب، ونادى: "هيـ..ـه"

شد مقود العربة، وأوقفها: "هيـ..ـش.. ماذا يوجد؟"

بدأ يصرخ بأعلى صوته وهو يلوح بيديه وذراعيه: "ما هذه السفالة يا رجل؟ من أول المساء حتى الآن وأنت طب، طب، طب، طب.. ما هذا ولاه؟ هل أنت طائر ليل؟ ألا تنام أنت أبداً؟ إذا لم تنم أنت، فلماذا تقلق راحة الناس؟"

نزل الحوذي مصتق من عربته مقهوراً، وذهب إلى الأجير، وقال: "وأنت أيضاً معك حق يا صديقي. معك حق، ولكن ماذا أفعل؟ لو كنت مكاني ماذا تفعل؟ لقد وقعت لي بلية، الله لا يريك!"

أخرج من جيبه علبة السجائر والكبريت. بداية أراد أن يقدم واحدة للأجير. كان الأجير غاضباً برغم كل شيء. وقد تردد لحظة بأن يأخذ واحدة، لكنه في النهاية أخذها.

أشعلها بعود الكبريت الذي أشعله مصتق.

مصتق أيضاً أشعل سيجارة، وسأل: "هل أنت متزوج أم أعزب؟"

لم يكن الأجير يتوقع سؤالاً كهذا، فقال: "لا"

"لو كنت متزوجاً، وأطلعت زوجتك على خمسمئة ليرة صحيحة،

وهي ليست لك، بل أمانة عندك، واختطفتها حرمتك، وبعد ذلك، لم تفتح لك الباب"

وقبل أن يدع الأجير فرصة لمصتق الأقرع ليقول: "ماذا تفعل؟" قال: "أفرمها. أقطعها قطعاً!"

"عشت.. يرحم أباك.." وغمز بعينه: "أنا أيضاً سأفعل هذا"

"إيه؟"

"طاقتي لا تكفيني!"

قال الأجير الذي لم يفهم أي شيء: "طاقة ماذا؟"

أشار بإبهامه الأيمن: "أنت تفهم؟"

"ها، يعني العرق؟"

"أنت أيضاً ابن ليل يا ابن البلد. ابن الليل يستطيع أن يفهم ابن الليل!"

قال الأجير: لا بشرفي لا يوجد. لو كان موجوداً لشربت. يوجد.."

كان سيقول: "كحول" فتذكر الصيدلي الذي غضب عليه لأنه خلطه بالليمون وشربه.

أمسك مصتق بكلمة يوجد فقال: "يوجد نبيذ؟"

"لا، يوجد كحول، ولكن الصيدلي القذر نق عليّ في تلك المرة. واحد سافل، فهو يضيف إلى الأدوية غبار الحوار، والماء، والأصباغ، وماء الورد، وتفتح مؤخرته إذا أخذنا نحن مقدار أصبعين من الكحول!"

فكر مصتق قليلاً: "هل نهمس بهذا لمفتشنا؟"

أصغى الأجير بكل جوارحه: "مفتش ماذا؟"

"مفتش المفتشين. ثم إن هذه المدينة لم تر أحداً مغذى مثله. بعرضي، يبلغ مئة وعشرة أو مئة وعشرين كيلو برياحة."

"قل إنه بغل وليس إنساناً"

"بغل وما بغل. محافظك يرتجف. وها انت تراني أتجول أنا من نفسي حتى ساعة متأخرة من الليل ؟"

سأل الأجير: "لماذا تتجول؟"

"أبحث عن الرجل في الفنادق، وهنا وهناك.."

"هل هو غير موجود ؟"

"غير موجود. رجل هذا القد قده، وزنه مئة وعشرون، فص ملح وذاب!"

دخل بوقع أقدامه إلى الغرفة التي ضربت فيها الزوجة الشرعية وهي تبكي. وقف ويداه خلفه. كان صاحب الفندق منتصباً كصقر فوق رأس زوجته التي تبكي عند قدميه. عندما رأى "السيد المفتش" ذابت حالة الصقر التي كان عليها. حاول أن يتمتم بشيء، ويوضح الوضع، ليظهر أنه على حق.

أسكته "مفتش المفتشين" بحركة بطيئة من يده: "اخرج!"

خرج صاحب الفندق وهو منكمش. فندقه آيل إلى الهدم، وهو قذر، أغطية فرشه مقطعة، ومخالفة لقواعد النظافة، ودورات مياهه قذرة، وهناك نزلاء لا تُعرف قرعات آبائهم دون بيان مديرية الأمن، وكأن هذا كله لا يكفي، فقد أضيفت جريمة أخرى الى كل هذه الجرائم وهي ايواء خليلة في بيته. لو أراد الرجل ويخضع المكان للتفتيش بسبب قضية الخليلة، فسوف يُدخله السجن ثلاثة أشهر على الأقل.

كان صاحب الفندق يفكر بالمدى الذي يمكن أن تصل إليه الأمور وهو يقضم أظافره في الخارج.

في الداخل أصدر "مفتش المفتشين" أمره للزوجة الشرعية بحدة: "قومي!"

نهضت المرأة على قدميها وهي تنشج.

"أوقفي البكاء!"

أوقفته.

"أجيبي لكي نرى. أتريدين أن يتفسخ زوجك في السجون؟"

نظرت المرأة دون أن تفهم أي شيء. تابع كلامه: "أي أننا نضبط الحدث، ونرفع عليه دعوى زنا. فيحكم زوجك بالسجن ثلاثة أشهر!"

لم يكن هم المرأة زوجها، فقالت: "والأخرى؟"

"لن يحدث للأخرى أي شيء!"

"لماذا؟ قالت امرأة الخياط إنهما يدخلان السجن معاً."

غضب: "من امرأة الخياط هذه؟ هي التي تعرف أم أنا؟"

"طبعاً حضرتك يا سيدي!"

"اسمعي إذاً: المرأة غير متزوجة. وبناء على هذا يدخل زوجك فقط السجن!"

كانت امرأة الخياط قد قالت: "يدخل كلاهما السجن، ولكنك إذا أردت، فيطلقون زوجك"

كانت تنظر إلى الرجل بوجهها القبيح وعينيها المجعدة الطرفين وإن كانت غير قبيحة.

"هل ما تريدينه هو إدخال زوجك السجن؟"

قالت مرتبكة: "لا"

"ماذا إذاً؟"

"أن تدخله الأخرى، تلك الساقطة. وإذا لم تدخله، فلتنقلع من هنا، وتذهب!"

ما أراده "مفتش المفتشين" هو أن يصل الكلام إلى هذه النقطة. لم يجب المرأة فوراً. وضع يديه خلف ظهره، وبدأ يذرع الغرفة مصدراً وقعاً. كانت المرأة تنظر باحترام شديد لهذا الرجل الضخم المباهي. آآآه، آه، ترى هل يستطيع أن يرسل تلك الساقطة بعيدا من هنا بلا عودة؟ هل تركت سحراً لم تقدم عليه في هذا السبيل بعد أن دفعت للشيوخ حفنات من النقود؟ يا لعدد النذور والقرابين؟ هل بقي ماء مقروء عليه، ومحرز لم تسقه لزوجها؟

تنهدت. وقف "مفتش المفتشين" أمامها وقال: "اسمعيني! المثل القائل: الرجل لا يعيبه شيئ، والمرأة يعيبها كل شيء! إذا كان الرجل يرعى بيته وزوجته وأولاده، ولا يتركهم دون طعام وشراب، ولا يقصر بلباسهم، فإنه غير مقصر، هل فهمتِ؟ وهذا ما يراه القانون أيضاً. لهذا أنا أخذت إفادة المرأة وهي نفسها لا تريد البقاء، وترغب بأن تسحب نفسها، وتذهب. وغير هذا، فهي لا تحب زوجك. أعطها أنت بضعة قروش بواسطتي، ودعيها تذهب من هنا. ولتغلق هذه القضية. مفهوم؟"

كانت المرأة راضية بهذا منذ زمان. جنّ جنونها من الفرح، فوقعت على يدي "مفتش المفتشين" تقبلها: "أرجوك يا حضرة السيد، أقع على يدك. لتذهب من هنا، و.."

"ستذهب، ويكفي أنك.."

"سأفتح كيسي، وأدفع كل ما لديّ، وحتى أكثر منه يا حضرة السيد!"

فكت القرطين الذهبيين بانفعال، وأعطتها له: "خذهما يا حضرة السيد"

"أخرجت الأساور الذهبية من ذراعها: "وخذ هذه أيضاً!"

"الآن حُلّ الأمر."

"ولأدفع لها نقوداً. لتأخذ كل ما ادخرته هنا وهناك. يكفي أن تذهب من هنا، ولتذهب إلى قعر جهنم!"

ركضت منفعلة إلى السرير الصدئ بمعدنه الأصفر، ورفعت طرف الفراش، وعادت بلفة من ذوات المئة وقالت: "خذ هذه أيضاً. أنت أخي في الدنيا والآخرة. أنت أرسلك الله إلى هنا في هذه الليلة. خلصني من بين يدي هذه السافلة، عديمة الحياء. سمعت قبل قليل الافتراء الذي قالته عني أليس كذلك؟ كذابة، والله كذابة، وبالله كذابة. سوّد الله وجهها في الدنيا والآخرة، هذا يعني أنها تقول لرجلي كلاماً كهذا، فيدير وجهه عني"

كان "مفتش المفتشين" مسروراً جداً وهو يضع القرطين والأساور ولفة النقود في جيوب بنطاله. لقد "حصّل" على الكثير. إذا استمر الأمر على هذا النحو فإن الليل شبه الميت لهذه المدينة الميتة سيجلب خيراً كثيراً..

بعد أن كح بشكل فظ قال: "لا تشغلي بالك أبداً. واحذري أن تذكري هذا لزوجك!"

"حاضر يا سيدي، على رأسي يا سيدي، يكفي أن.."

"ستذهب. ستذهب فوراً، وأنتِ ستتخلصين من هذه البلية!"

ترك المرأة وسط انفعالاتها الفرحة وخرج. كان مصباح الكاز المشتعل، والموضوع في إحدى الزوايا يلون المكان بصفرة خفيفة. اتجه إلى غرفة المرأة الشابة بوقع أقدامه الذي يُصر أخشاب الأرض.

كان صاحب الفندق هناك يروح ويجيء بين زاويتي الغرفة بغضب

ممزوج بالضيق. كان واضحاً أنه في حال شجار مع خليلته. عندما دخل بوقع قدميه إلى الغرفة، وقف باستعداد جندي أمام قائده.

أمره "مفتش المفتشين" مرة أخرى: "تعال إلى هنا، لكي نرى!"

فهمت المرأة الشابة أنه يريد البقاء مع صاحب الفندق وحدهما، فخرجت: "تفضل، تحدثا هنا. أنا لدي شغل قليلاً"

بقيا في غرفة المرأة الشابة التي تفوح برائحة عطر "شانوار" وحدهما. صور لشبه عاريات على الجدران، وتحت ضوء المصباح البطيخي الأصفر سرير يتلامع، وغربول بزرقة الحلم فوق السرير، ولحاف حريري أزرق له وجه أبيض كالثلج القي على السرير بركلة خفيفة، وأغطية سرير ببياض الثلج ما زالت تحمل خطوط المرأة الناعمة، أو أنه يعتقد هذا.

لم ير "مفتش المفتشين" أي ضرورة لمقدمة، فقال: "زوجتك طلبت مني أن أعمل ضبطاً للمكان" ارتبك صاحب الفندق: "يعني يا حضرة السيد؟"

"أي أنها تستطيع أن ترفع عليك دعوى زنا، وتدخل السجن ثلاثة أشهر!"

"سما؟"

"من هي سما؟"

"هي.. هي التي لي يا عزيزي"

"اسم خليلتك سما؟"

"نعم"

"ماذا سيحدث لها؟ إنها غير متزوجة! أنت تدخل السجن"

"بعد أن أدخل السجن، يسقط زواجي!"

"من قال هذا؟ تنام، وتخرج، ولا يسقط زواجك. وفوق هذا إذا أبلغت عنك زوجتك، وقدمتك إلى المحكمة من جديد، فإن عقوبتك تتضاعف. وهذا يستمر على هذا المنوال"

اسودّ وجه صاحب الفندق تحت الضوء الأصفر الذي يسقط من المصباح البطيخي. ما أسوأ هذه الدنيا، ما أسوأها، وقوانين هذه الدنيا، ومحاكمها، وعدالتها! إنها تجعل من رجل هذا القد لعبة بين يدي امرأة. كان رجلاً غنياً صاحب مال وملك، بمكسب جيدً، ولا يستطيع أن يعيش مع امرأة يستلطفها، وأي كلمة هذه يستلطفها، إنه يحبها، ويجن بها، ويغدو رزيلاً بماله وملكه.

تنهد بعمق، ثم قال: "حسن يا حضرة السيد، كيف سأخرج من هذه القضية؟"

نظر "مفتش المفتشين" إلى ساعته وتثاءب: "يا هذا الوقت يقترب من الصباح!" ثم قال غاضباً: "ما دخلي بكل هذا؟ ما علاقتي أنا؟ وهل وظيفتي أن أهتم بقضاياك الخاصة؟ وهل دعوتني إلى بيتك من أجل هذا؟ انظر، الساعة تقترب من الثالثة!"

كانت عينا صاحب الفندق قد ثقلتا تماماً من الأرق: "معكم حق من الأرض إلى السماء يا حضرة السيد. ولكن أنا وقعت بعرضكم. خلصوني من كل هذا البلاء حباً بالله!"

قال بصورة قطعية: "هناك طريق واحد: ستخرج خليلتك من هنا"

طار صواب صاحب الفندق: "ماذا؟ أخرجها من هنا؟"

"نعم ستخرجها!"

"هذا غير ممكن يا حضرة السيد"

"في هذه الحال، إعمل ما يحلو لك. فندق آيل إلى الهدم، وزبائن ينامون تهريباً، وفرش وأغطية لا تلبي قواعد الصحة بمقدار ذرة"

تناول حقيبته وقبعته الأسطوانية. قال صاحب الفندق مندهشاً: "إلى أين يا حضرة السيد؟"

"يا روحي، نحن استمعنا لهموم العائلة حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل. هذه ليست مهمتي!"

"أرجوك يا سيدي، انتظر لحظة!"

هرع وخرج من الغرفة. كان سيلقي نظرة على غرفة الضيوف في الطابق العلوي ويعود. لعله سيجد شيئا في الغرفة أو السرير أو الأغطية..

قابل خليلته وكانت خارجة من التواليت، قال: "لا تتركي حضرة السيد وحده."

"ماذا أفعل؟"

"اذهبي إليه "

داهمها الضحك بلا إرادتها. لكن صاحب الفندق لم ينتبه. كانت تفكر بذاك القوام، والهندام، وتلك الجاذبية التي تسعد المرأة بكل المعاني، وذاك التباهي، وتلك القوة.. ارتجفت قليلاً. كان ارتجافاً فيه انتشاء...

ذهبت إلى غرفتها التي يوجد فيها "حضرة السيد". كان الرجل يتجول في الغرفة ببطء.عندما رأى المرأة، توقف: "أين هو؟"

"من؟"

"صاحب الفندق."

"لا أعرف. صعد إلى الأعلى على عجل"

"اسمعيني: ليّنت الرجل وكلمت المرأة. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله لك هو نقلك إلى بيت آخر. طالما أننا سنعيش معاً."

كانت المرأة تنظر إليه بنهديها المكتنزين: "كيف؟"

"يا روحي شغّلي عقلك قليلاً. الرجل متعلق بك بشكل رهيب. يجب أن نستفيد من هذا!"

"أي أنك لن تأخذني معك وأنت ذاهب؟"

"لا أستطيع أن آخذك حتى لو أردت. ستلوكنا الألسن في ما بعد. سيقولون إن المفتش خطف خليلة صاحب الفندق. لهذا فإن أفضل الطرق أن تفرضي على الرجل نقلك إلى بيت آخر"

"بعد ذلك؟"

"بعد ذلك تركبين وتأتين إلى اسطنبول. حتى ذلك الوقت أكون قد نُسيت، ولا يشك أحد أنك هربت وجئت عندي. مفهوم؟"

"هل سأجدك في اسطنبول من البطاقة التي أعطيتني إياها؟"

لا تأتي إلى العنوان الذي أعطيتك إياه من قبل، سأعطيك عنواناً آخر، وتسألين عني هناك. احفظيه بعقلك، الرجل على وشك المجيء. اكتبيه فوراً: إدريس إنجي، تشاغل أوغلو...

أملى عليها اسم مكتب إدريس إنجي ورقمه. المرأة الشابة ذكية كالجان، كتبت عنوان المكتب في مكان ما بلمح البصر. جاء صاحب الفندق راكضاً: "تفضل يا حضرة السيد!"

لم يفهم فوراً: "خير إن شاء الله؟"

"غرفتكم جاهزة"

"يا، هكذا إذاً؟ هذا يعني أننا في النهاية سنحصل على سرير؟"

"أنا آسف يا حضرة السيد. أنا لم أجلبكم إلى هنا من أجل أن تسمعوا نقيق العائلة، إنه القدر، والنصيب.."

"ماذا سنفعل، صار.."

خرج من الغرفة حاملاً حقيبته وقبعته الأسطوانية وبوقع قدميه البارز..

لف المرأة الشابة توتر خفيف.. توتر ناجم عن الفرح. سيكون جيداً لو ذهبت معه فوراً، ولكن ذلك الترتيب أفضل. تعيش في بيت منفصل بداية، وتجعله يشتري لها الأساور والقرط ذي الحجر الماسي، والخاتم الذي رأته في ذلك اليوم عند الصائغ وأعجبها كثيراً ووعدها به، وبعد ذلك، في يوم ما، تذهب..

خلعت ثيابها بسرعة، ودخلت سريرها، والتوت مثل فاصلة كبيرة تحت اللحاف. في عقلها "مفتش المفتشين". لم تكن مفتشيته تهمها بشيء. كان رجلاً في كل جانب من جوانبه. أرادت في تلك اللحظة أن تكون بين ذراعيه. حسنٌ، وصاحب الفندق؟ هيا ياه، وهل كانت تهتم لصاحب الفندق؟ إنها منفصلة عنه حتى لو كان موجوداً!

تنهدت بعمق. كيف يجب أن تفتح الموضوع للرجل؟ فوراً؟ بعد عدة أيام؟ رأت أن الحل الثاني مناسب أكثر. إذا فاتحته فوراً سيشك.

لم تبق ضرورة لكل هذا. جاء صاحب الفندق بعد قليل متضايقاً، واندس بالسرير دون أن يخلع ثيابه، وبدأ يداعب المرأة. كانت تعرف ما يعنيه هذا. كلما أراد أن يقنع المرأة الشابة بفكرة معينة، لا ينتظر أن يخلع ثيابه ليندس بجانبها، ويبدأ بمداعبتها على عجل.

سألته: "خير، أي خنزرة هناك؟"

لو سألته امرأته الشرعية هذا السؤال، أو أي سؤال شبيه به، لطار صوابه، وعنفها. ولكن هذه.. كانت هذه تقول ما تشاء!

تنهد، وسأل متأخراً قليلاً: "إلى متى ستستمر هذه السفالة؟"

تظاهرت المرأة الشابة بعدم الفهم: "أي سفالة؟"

"في منتصف الليل نشرتما غسيلكما. هي وأنت وأمام رجل غريب... وفوق هذا فإن الرجل مفتش.. لو ضبط الواقعة ووضعها في إطار رسمي، سيحرقني.. ها؟"

"برغم هذا، فهو رجل طيب"

"دعي طيبته، إلى متى ستستمر هذه السفالة؟"

ألقت اللحاف وجلست على السرير: "لماذا تسألني أنا"

"لا تغضبي يا حلوتي، لمن سأسأل؟"

"إذا كنت أنا السبب، دعني أذهب إلى اسطنبول، واسعد أنت مع امرأتك الشرعية!"

طار صواب صاحب الفندق: "ما ضرورة هذا يا حلوتي؟"

"ماذا بعد؟"

بلع ريقه، ولعق لسانه، وسأل: "تكلمت مع السيد المفتش في الأعلى قبل قليل.. ماذا يخطر ببالي، أتعرفين؟"

"ماذا يخطر؟"

"كنا تكلمنا بهذا من قبل.. لو أستأجر لك بيتاً جميلاً في حي آخر بعيد من أحياء المدينة"

أطلقت المرأة الشابة اعتراضها لمجرد الكلام: "هاا، مفهوم. تريد أن ترميني عنك، لتتجول مع امرأتك السافلة لتقول مباهية: جعلته يرميها.. أليس كذلك؟"

"لتجرب أن تفعل هذا"

قفزت عن السرير بقدميها الحافيتين ووضعت يديها على خصرها، وسألته ساخرة: "ماذا ستفعل؟"

"ماذا أفعل؟"

"نعم يا هذا. قل لنسمع، ماذا ستفعل؟"

فكر صاحب الفندق للحظة كالبرق: حقيقة ماذا سيفعل؟

قالت المرأة الشابة: "قبل قليل أغمضت عينيها، وأطلقت لسانها أمام السيد المفتش، فماذا فعلت؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟"

"ألم آخذها إلى غرفتها وأصفعها على وجهها؟"

أمسك المرأة الشابة من تحت أبطيها، ورفعها، ثم أجلسها على السرير: "دعي الآن هذا"

"حسنٌ تركته. سأذهب إلى بيت آخر بشرط.."

نظر صاحب الفندق بأمل: "شرط ماذا؟"

"ستعرج إلى هنا قليلاً، وستبقى معي دائماً. ممكن؟"

كان صاحب الفندق يفكر بعكس هذا.

عندما لم تتلق المرأة الشابة الجواب قالت بدقة، ولكنها دقة مفتعلة: "هل أقول إن هذا قد انتهى؟"

"والله لا أعرف يا عزيزتي سما؟"

"ها.. مفهوم. ستأخذني من هنا، وترميني هناك، وبعد هذا.."

"سأكون عندك نهاراً، وحتى المساء!"

خطر ببال المرأة الشابة قطارات الليل. كانت قطارات أنقرة واسطنبول تمر حتى في الليل. ففي إحدى الليالي التي يكون فيها الرجل يشخر بجانب امرأته، تركب عربة، وإلى المحطة، ومن هناك هات يدك يا اسطنبول بالقطار!

على الرغم من أن قلبها كان يخفق من الفرح، فإنها اسقطت رأسها على المخدة، وبدأت تتظاهر بالبكاء. خلع صاحب الفندق ثيابه، واندس

بجانبها على عجل، وبدأ يداعب شعرها: "سما، يا عزيزتي سما، يا صغيرتي. انظري إلي، انظري إلي.."

"..............."

"أقول لك انظري إلي، انظري إلي يا سما!"

نظرت بعينيها الفاحمتين نظرة حادة: "ماذا هناك؟"

"ليس الأمر أن أرميك، حتى إنني لا أفكر بهذا. ولكنني أرى أن هذه المرأة تجعلك حزينة بشكل كبير. لهذا اسمعيني، أريد أن أخرجك إلى بيت آخر. سأفرشه لك، وأثثه بكل شيء.. هل أنت موافقة؟"

لم تقل: "موافقة" فوراً. دعكت رأسها بالمخدة، وبعد نشيج جديد، وحتى أقوى من النشيج السابق، جلست مرة أخرى على السرير، وقالت: "بشرط!"

"أمرك.."

"تشتري لي الخاتم والأساور والقرط قبل أن أنتقل. ثم تستأجر البيت، وتفرشه، وبعد ذلك"

بدأ الفرح يخفق في قلب صاحب الفندق: "وبعد ذلك تنتقلين!"

"لن تفارقني نهاراً!"

"لن أفارقك"

"حينئذ.."

"حينئذ يا سكرتي؟"

"يمكن أن أقبل. ولكن كما قلت لك، الشرط الأول هو الأساور والخاتم والقرط!"

قفز صاحب الفندق عن السرير فرحاً، وغم المصباح كثيراً وعاد مندسا بجانب المرأة الشابة.

- ٩ -

كانت الساعة تقترب من الرابعة صباحاً..لحظة اعتقاد "مفتش المفتشين" بأن الدار الكبيرة تغط بالنوم، نزل بهدوء عن السرير. كان معه مما "حصّله" في مدينة أخرى قبل هذه، إضافة إلى ما أخذه من الخمّار وكاتب الفندق ألفان وستمئة وسبع وستون ليرة وخمسون قرشاً. كم دفعت له زوجة صاحب الفندق يا ترى؟ وكم بلغ مقدار نقوده كلها؟

أخرج لفات النقود من جيب بنطاله المعلق خلف الباب، وبدأ يعد: "... ماذا؟ خمسمئة؟ أمر رهيب! كانت المئات تطقطق كأنها خرجت من الآلة تواً. خمسمئة، خمسمئة وخمسون، ستمئة، سبعمئة، ثمانمئة،.." ضحك مستمتعاً. "هذا يعني أن نقوداً كثيرة مع المرأة!"

لا ضرورة للاستغراق طويلاً، وإضاعة الوقت بعدها. المبلغ مع النقود التي أخذها من كاتب الفندق ألفان وستمئة وسبع وستون ليرة، وخمسمئة من امرأة صاحب الفندق الشرعية، يصبح المبلغ ثلاثة آلاف ومئة وسبع وستين ليرة.

طول سنوات "تفتيشه وتحصيله" لم يقع على مبلغ بهذه السهولة. أي أنه لم يُستضف في بيت، ولم يصادف في أي بيت صراع بين امرأة شرعية وخليلة!

عندما كان يعيد النقود في جيب بنطاله سأل نفسه: "يجب أن آخذ شيئاً من صاحب الفندق. ألف أو خمسمئة على الأقل"

فكر: انتظر، انتظر، هذه نقود لم تحسب معها الأقراط والأساور.. إيه يا قدرت، أحسنت. سارت الأمور على ما يرام. ولكنك يجب أن تبتعد من هنا دون أن تستغرق باللهو أكثر من ذلك.. يمكن أن يكون هؤلاء على علاقة بالأمن. مثلما قال صاحب الفندق. إذا انتقل الأمر للشرطة.. الحقيقة إذا لم تكن هناك شكوى ضدي، ولا يوجد، فلا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. حرية المواطن بالتجول في الأناضول على هواه ليست ممنوعة!"

فجأة خطرت بباله زوجته مرة أخرى. قطب وجهه، وشعر بأنه سيتقيأ. أكثر ما أقرفه عيناها الصغيرتان الخاويتان من الأهداب، المنزلقتان إلى جذر أنفها.

تناول بنطاله من خلف الباب، ومدّه على الديوانة، ومسّده بيده، وطواه. كان يعتقد بأنه سيغدو مثل كيس الخيش إذا بقي معلقاً.

جاء إلى السرير ببطء، وتوقف أمامه بالضبط: "لو أرسل إلى المرأة القذرة ألفاً؟ أو بالمصرف.. حسنٌ، ولكن، إذا كنت ملاحقاً، فإنهم سيجدون عنوان بيتي في اسطنبول الذي حولت إليه النقود، ويتحققون من العمل الذي مارسته، ويعرفون بأنني لست مفتشاً. عندما يُفهم هذا يبدؤون التحقيق في المدينة. وبينما يسألون الخمار، وصاحب الفندق، وصاحب المطعم، يبدأ خيط الحبك ينفلت.."

فكر بأصدقائه في اسطنبول. إذا لم يكونوا مثل "قدرت البركان" في ضخامة الأنف والطول والقامة، والجاذبية، والهيبة، فإن كلاً منهم ذئب

أيضاً. ليس هناك أي منهم يبلغ الشرطة بالحقيقة كما تريدها الشرطة، ولكنه لم يكن ينوي إعطاءهم حصة من "تحصيل" هذا "التفتيش".

"أجرة البيت، وألبسة للأولاد، وحساب البقال والخضري واللحام، والأقساط. إيه، ومصّروفي الشخصي، ومشروبي، وغيره؟ تكفيني بالكاد. ويجب أن أفصّل معطفاً لأمي هذا الشتاء. كادت المرأة أن تتعرى. لولاها لكانت الزوجة القذرة قد قلعت أعين الأولاد عليم الله.. الله يطول عمرها، تكاد أن تنقطع مرارتي خوفاً من أن تموت. إذا ماتت أحترق. فالمرأة الحولاء الضعيفة، المنكمشة ستغرز أظافرها برقبتي جيداً، والصبيان قليلي التربية، والبنت.."

تحت وطأة معرفة أن النقود ستتبدد كما في كل سنة نزل عليه كابوس أسود. ملّ، وسئم من هذه الكوابيس. آه من هذه المرأة، آه من هذه المرأة القذرة.. يا هذه المولودة قبل أوانها، الشبيهة بالمسمار.. البوكر، والبريدج، والويسكي.. "أيتها المرأة البقرة، أين أنت من الويسكي؟ إذا أردت أن تتزقمي، فتزقمي نبيذاً أو عرقاً. لا ويسكي، وأكثر من هذا أنها يجب أن تكون اسكتلندية. وكأنها تعرف الإنكليزية فتقول: (سكاتش!)"

جلس على الديوانة فترة. فكر بزميله إدريس. هذا أيضاً عيناه صغيرتان ساحلتان نحو الأنف، ولكنه ليس قذراً كزوجته. لم يكن كذلك، حتى إن زوجته عندما جاءت إلى المكتب سراً لتستدرجه بالكلام، أخبره: "جاءت امرأتك اليوم إلى هنا؟"

"من؟"

"زوجتك شهوار"

"لماذا؟"

"معلوم"

"أليست قضية النساء والنقود؟"

"أما قلت لك معلوم؟"

"ماذا قلت أنت؟"

"ألا تعرف ماذا يمكن أن أقول؟"

"هل صدقت؟"

"أستطيع إقناعها إذا أردت"

"عشت"

"عشت أنت أيضاً. أما اشترت مجموعة من العطور؟"

"ها.. في ذلك اليوم؟"

"في ذلك اليوم. وتكلمت بحق أمك"

"ماذا قالت؟"

"ما تقوله دائماً.. الأمور المعروفة"

"..............."

"..............."

ذهب إلى السرير وتمدد، سحب الغطاء الأبيض على رجليه الغليظتين المشعرتين.

يجب أن يُخصص مبلغاً من النقود لإدريس أيضاً. من ناحية تخصيص النقود، فسيخصص له، فقد أعطى عنوان مكتب إدريس لسما.. الحقيقة أن إدريس لا يلاحق النساء ولسانه مربوط، لكنه برغم هذا يخاف أن يُقدم على تصرف غير لائق.

انقلب من جنب إلى جنب. يجب أن يتحين الفرصة غداً ليخبر المرأة بألا تتمادى كثيراً مع إدريس. أن ينبهها لكي لا تسلمه أمورها. تلك المرأة الشبيهة بقرن الباميا ء الجاف، والكتلة من الأعصاب، والتي لا تؤكل، وإن أكلت، لا تبتلع، تركب فوقه لأنها تعرف أسراره كلها. ارتكب حماقة، وحكى لها كل شيء لأنها حفيدة باشا، حتى إنه لم يخف عنها "التفتيش".

انقلب من طرف إلى طرف مرة أخرى. الله الله.. لم يدخل النوم إلى عينيه مع أن عينيه كانتا تلتهبان كالصحرا ء من النعاس.

سينام غداً إلى ساعة متأخرة، ويعوض أرقه في الليل. سيعوضه، ولكن سما، سما الرائعة، المغناج، بين ذراعي الرجل الذي لا يساوى خمسة قروش؟ قال لنفسه: "طبعاً طبعاً، ولكن لماذا؟ ما السبب؟ بأي حق؟ طالما أننا اتفقنا، فهي تعود لي بعد الآن. السافل، إنها حقي، حقي الواضح"

كح، وضحك من نفسه. كأن إدريس أو "أحد أصدقائه الخرا ء" القصير القامة، والغائر العينين مقابله. كأنهم في مقهى المسرة في اسطنبول يجلس أحدهم مقابل الآخر، ويروي لهم مغامرته في الأناضول، ويذكر لهم "حقه" و"حقه الواضح". وكأن صديقه، يقول له: "حق؟ حق واضح؟ أي حق؟ أي حق واضح ولاه؟ اسلب نقود زوجة الرجل، وأساورها، واطبق على خليلته، ثم استكثر عليه أن ينام معها بضع ليال أخرى، واعتبر هذا وضع يد على حقك، واغتصاب لحقك الواضح. حباً لله يا أخي المحتال!"

باختصار يناديه أصدقاؤه "المحتال". مرة أخرى قطب وجهه بكره. ماذا كانوا؟ المحتالون هم أصلاً يجتمعون صباحاً في مقهى المسرة،

يفتحون الجرائد، وكل منهم كذئب يفتح عينيه كالبروجكتور، ويمشط الجريدة. يبحثون على الأغلب عن حوادث العمل في المشاغل والورش. هدم جدار في مكان ما؟ مات عامل؟ انتهى الأمر. يخرجون من المقهى بفرح العيد، ويركبون سيارات أجرة متلامعة، ويذهبون إلى مكان وقوع حادث العمل. يكون قدرت البركان صاحب القامة والهندام الشبيه بالنائب في البرلمان أو الوزير في المقدمة، والآخرون خلفه درجات. ويلجون إلى مكان وقوع حادث العمل مثل "هيئة تفتيش".

"ما هو وضع العامل المصاب الصحي؟"

وعندما يبدأ "رب العمل" أو المهندس، أو المدير المسؤول بالتأتأة لمعرفته بأن وجود نقص ما أو مخالفة في القانون هي قاعدة عامة، يتحول إلى التوسل، ثم "ما يمنحه الله"، "المبلغ المناسب"، ثم يركبون السيارات بأداء هيئة تفتيشية، ويتجهون إلى الملاهي، وبيوت الدعارة!

فسد نومه مرة أخرى. نزل عن السرير. لم يكونوا يدفعون نقوداً كثيرة للملاهي، وبيوت الدعارة. هنا أيضاً يدخلون بمباهاة "هيئة تفتيش" والمحتال في المقدمة رئيس هيئة التفتيش، ويعتقدون أنها اللجنة الصحية التابعة للبلدية أو من يعلم ماذا، فيخافون منهم، ويقدمون لهم أفضل مكان، وأجمل النساء، وأغلى المأكولات والمشروبات. يأكلون، ويشربون.. وخلال الأكل والشرب، يبدون امتعاضاً من الشوكات والسكاكين والمناديل والأطباق، ولمجرد الكلام يقولون بأن الكؤوس قذرة، ويعتبرون السمك اللذيذ بائتاً، ويؤنبون النادلين، ويطردون كبير النادلين، ويطلبون المعلم. وعلى الأغلب يأتي المعلم منكمشاً، وهلعاً. وبحسب درجة خوفه، يُعنف، ويطلقون التهديدات المبطنة عليه، فيخرجون من الملهى بعد الأكل والشرب بمصروف جيب.

تثاءب وقال بصوت مسموع: "نوم قذر! إذا دخلت السرير، تهرب، وإذا نهضت، ولم أتمدد، تأتي، تجعلني أتثاءب.."

ذهب إلى النافذة، ورفع الستارة بشكل خفيف، ونظر إلى الخارج: الطرف الثاني من الشارع تنير فيه البيوت المتهالكة أحدها على الآخر أعمدة كهرباء مصفوفة. لم يكن هناك أحد.

أنزل الستارة، وابتعد.

ترى هل يرسل النقود غداً إلى إدريس وزوجته بالبريد أم عن طريق المصرف؟ كان يرى في الأسلوبين خطورة. ماذا لو كان ملاحقاً؟ ماذا لو حدد عنوانه، وقبض عليه، ولم تنطل عليهم أحابيله؟ ولو عرفت سابقته، وتضاعفت عقوبته؟ فهل سيجد هذه المرة إدريسا جديداً صديق روح؟

أخرج سجائره وكبريته من الحقيبة الموضوعة على الديوانة، وأشعل واحدة. لم يكن يرغب بهذا، كان يخاف الدخول إلى السجن مرة أخرى. مع أنه لولا "زوجته القذرة" و"أصدقائه الخراء" لأنهى أعمال الاحتيال هذه، وانسحب جانباً.

كان الدخان الذي يسحبه من سيجارته يرتفع نحو السقف ببطء، ثم يتبدد في الغرفة. من الآن تغطي الغرفة ستارة من الدخان الأزرق الفاتح والفضي الفاتح.

نعم، نعم، لولا "زوجته القذرة" و"أصدقائه الخراء" لبني بهذه الآلاف الثلاثة مع كسورها التي في جيب بنطاله مقهى في الأسفل، وفوقه بيتاً صغيراً بغرفتين، ويأخذ أمه معه وإدريس..

كلما فكر بهذا تدبّ فيه الحيوية. سحب سحبة ممتعة من سيجارته. إدريس، وهو، وأمه، والنقود التي يكسبها "حلالاً من الله".

تجلى في عقله إدريس مرة أخرى. تحدث كثيراً في هذا الموضوع مع إدريس في مكتبه الواقع في الطابق الثالث من أحد أبنية المكاتب الكبيرة في تشاغل أوغلو.. جلس على الديوانة بسرواله القصير الأبيض، وقميصه الداخلي، وقدميه الضخمتين. أخرج بعد ذلك مخططات بناء المقهى في الأسفل، والبيت المؤلف من غرفتين في الأعلى الذي يتخيله منذ سنوات طويلة، ورسمه من زوايا مختلفة. وبعد أن استعرض للمرة التي لا يعرف عددها تلك المخططات التي رسمها بقلم رصاص، وحفظها في ذاكرته، توقف عند الرسم الذي يعجبه. كان في هذا المخطط الذي يضم في طابقه الأعلى بيت بغرفتين دكان بقالية صغيرة إلى جانب المقهى. سيجلس هو أو إدريس في المقهى، ويدير الآخر دكان بقالة. آه، ما أجمل هذا، ما أجمله! الولد الكبير ينهي كلية الطب، والصغير الحقوق، ويغدو أحدهما طبيباً والآخر محامياً. والبنت صيدلانية. وليشطبوا أباهم من دفترهم إن أرادوا، أو يقطعوا علاقتهم بهم لعدم تحملهم كسبه النقود من "الاحتيال". كان مسروراً جداً من هذا التدبير، سيكون من الافضل أن يأخذوا "أمهم القذرة" إليهم، ولتذهب إلى حفلات البوكر والبريدج، واجتماعات الشاي. وليشتروا لأمهم حصاناً، وسيارة رياضية.

أعاد مخططات البيت التي أخفاها عن الجميع بمن فيهم زوجته وأولاده، ولا يعرف به أحد غير أمه وإدريس إلى حقيبته الصفراء، وأخذ ورقتين من الأوراق الصفراء التي اشترى رزمة منها من مركز بريد اسطنبول تحسباً لأي طارئ، وبدأ يملأهما بقلم حبر جاف. كان عليه أن يحول ألف ليرة لزوجته، ومائتين وخمسين لإدريس... امرأته أكثر من

إدريس.. كان من الخطأ الكبيرً عدم قيامه بهذه الخطوة حتى الآن.. عندما سيذهب إلى البيت، ستفتح فمها المقرف مرة أخرى: "إيه يا حضرة السيد قدرت البركان، يا حصيرة عتيقة، وتنكة زبالة.. درت على هواك أسبوعين. طبعاً شهوار ليست معك. وعرضت قامتك وهندامك، وبعت الفقراء، والمساكين، وشربت العرق، وأكلت الزقوم، وحليت بحالك قدام البنات والنسوان، أليس كذلك؟ وأنا هنا أتحرق من عَدم وجود النقود. فهل هذا همك؟"

لا يرغب بالتفكير أكثر، فقد تجلت أمام عينيه امرأته بعينيها المنزلقتين نحو الأنف، ووجهها النحيف، وشعرها الذي صففته عند المصفف لكنه "لم يشبه شيئاً"..

وعاد لملء الحوالات البريدية.

في تلك اللحظة نهض صاحب الفندق ليذهب إلى دورة المياه. كان متعباً، والنوم يكبس على عينيه لأنه تأخر في النوم، وتشاجر مع خليلته الشابة. ورغم هذا، فلم يطفئ مصباح غرفة الضيوف، أو لم يُغمه، فسقط ضوؤه الأصفر على الدرج. ألم ينم "حضرة السيد"؟

دخل إلى دورة المياه وخرج. يخشى أنه ينظم تقريراً أو ما شابه. تبدد نعاسه. عندما خطر بباله فندقه "الآيل إلى الهدم"، وأغطية الفندق القذرة، ودورات المياه القذرة، وهذا، وذاك، وفوق هذا المئتي ليرة التي أعطاه إياه الكاتب رشوة، لم يبق أثر للنوم في عينيه. توجه نحو درج الطابق العلوي. كانت النعال البيتية التي بقدميه يمكن أن تحدث ضجة غير مرغوبة في هذه الساعة من الليل فحملها بيده. صعد الدرج على رؤوس أصابعه بهدوء. لم يكن هناك ضرورة ليقترب من النافذة المطلة

على الموزع. رأى "مفتش المفتشين" يكتب أموراً ما على الطاولة خلف الستارة الغربولية المسدلة. قال لنفسه: "آخ! الرجل لم ينم. ماذا يكتب يا ترى؟"

اقترب أكثر من النافذة. نعم، نعم إنه يكتب. كان منهمكاً بأمر ما. ليدع جانباً "الفندق الآيل إلى الهدم" وأسرّته وأغطية الأسرة ولحفه وأغطية لحفه، وأغطية هذه اللحف المتناقضة تماماً مع القواعد الصحية، فهناك الزبائن التهريب، والمئتا ليرة التي أعطاه إياها الكاتب رشوة، إضافة إلى وضع خليلة بالقوة إلى جانب امرأته الشرعية. خطر هذا بباله فشعر بالضيق. كل هذه الأمور لا تجعله مذنباً مرة واحدة بل مرات.

ماذا عليه أن يفعل؟ وبقرار مفاجئ قرع الباب وانتظر. خاف "مفتش المفتشين" بداية. هل قُرع بابه؟ أخشى أن تكون سما صاحبة عيني المها قد جاءت؟ كان قرع الباب خفيفاً حيث يترك انطباعاً بأن الطارق امرأة لطيفة مثل سما. ارتسمت على شفتيه ابتسامة، وذهب نحو الباب بهيبته الصادمة، وفتحه بهدوء. عندما رأى صاحب الفندق المسن بدل سما ذات عيني المها في ضوء المصباح البطيخي الأصفر المنعكس نحو الخارج طار صوابه: "ماذا يوجد؟ ماذا تريد؟"

هل أخافه صاحب الفندق؟ ممكن؟ لو لم يخيفه فلماذا يصرخ؟ يبدو أنه كان يحضر تقريره، وأن نيته سيئة، فلا يعطي اعتباراً لخاطر أو محبة.

"هل يمكن أن أكلم حضرتكم يا سيدي؟"

ولأنه خطر بباله مثل البرق احتمال تقديم صاحب الفندق رشوة، قال بالتباهي والعظمة اللازمتين: "في هذه الساعة من الليل؟"

"نعم يا سيدي."

"غريب، غريب جداً، ثم إن.."

"أزعجتكم، أنا آسف، ولكن ذنوبي كبيرة إلى حد أن النوم لم يدخل عيني!"

"حسنٌ، تكلم لكي نرى!"

حاول صاحب الفندق أن يحبب بنفسه فابتسم، ثم اتخذ حالة الجد، وكح بشكل خفيف، ولكن عبارة واحدة لم تخرج من فمه.

"احك يا..!"

"كنتم تحضرون تقريراً، أليس كذلك يا سيدي؟"

فهم الوضع. حلّ به السرور، ولكن من دون أن يظهر، قال: "ما علاقتك أنت؟"

"لا شيء يا سيدي، بالنسبة إلي، فإنني"

"نعم؟"

"برقبتكم يا سيدي. بإمكانكم أن تخرسونني، وتمحقونني إن أردتم!"

"وإن لم أرد؟"

"إذا لم تفعلوا هذا، تكونون قد أنقذتم حياتي!"

تجول "مفتش المفتشين" ببطء في الغرفة بقدميه الحافيتين، وسرواله الداخلي القصير الذي يظهر ساقيه المشعرين، وقميصه الداخلي، وبطنه الضخم. كان عليه أن يبدو غاضباً، ولن يقبل بسهولة، وإذا قبل فلابد له ألا يترك الرجل دون تحصيل مبلغ كبير.

وقف مقابل الرجل بالضبط، ويداه خلف ظهره: "جئت إلى فندقكم بعد أن وقع طريقي بالمصادفة عليه، ورأيت ما رأيت. رأيت كل شيء

حتى أولئك المقيمين تهريباً دون إبلاغ مديرية الأمن. وكأن هذا لا يكفي، فاعتقدت دون خجل بأنك ستغلق الموضوع بمبلغ تافه مثل مئتي ليرة عن طريق كاتبك. أسألك: هل أنا غجري؟"

قيّم صاحب الفندق مطولاً بعينيه ثم تابع قائلاً: "هذا يعني أنكم كنتم تجعلون المفتشين، والمراقبين، وموظفي البلدية يغمضون أعينهم بخمسين أو مئة ليرة، ما جعلكم تعرضون علي مئتي ليرة؟"

"حاشاكم يا حضرة السيد"

"اسكت، هيا اسكت. انظر إليَّ جيداً. أولاً أنا لست من أولئك المخبولين الذين تعرفهم، ولا أفهم بالرشوة ثانياً. أما ثالثاً.."

قرع الباب الخارجي. دهش صاحب الفندق. من يمكن أن يكون في هذا الوقت، وفي هذا الوقت المتأخر من الليل؟ ألقى النعلين البيتيين اللذين بيده على الأرض وارتداهما. نزل الدرج راكضاً، وعَبَرَ الفسحة، وفتح الباب: كان كاتبه. قال: "طوال الليل يأتي شرطي مدني، ويذهب آخر يا معلمي؟"

"لماذا؟"

"يبحثون عن المتنفذ الذي جاء مساءً.. بحثوا عنه في فنادق ونزل المدينة كلها، ولم يجدوه. قالوا لي، اركض، واعرف إن كان في بيت معلمك؟ وأنا.."

"ماذا قلت؟"

"وأنا قلت إن هذه ليست من عادة معلمي، فهو لا يقبل في بيته شخصاً غريباً"

"جيد أنك قلت هذا"

"أليس كذلك؟"

"ماذا لديه شغل في بيتي؟"

"أعـرف يا مـعلمي، أنا قلت هذا.. سـأذهب وأقـول لـهم أنه غـيـر موجود.."

"قل!"

أغلق البـاب، ولكنه ندم لأنه قـال غـيـر مـوجـود. ألـم يرتكب ذنبـاً بالكذب على المكلفين بأمن المدينة؟

إنه يخبئ شخصاً يُبحث عنه ويقول: "ليس عندي خبر" عندما يُسأل عنه. لنقل إنني تجاوزت أمورهم، فهل هذا سيغيب عن "مفتش المفتشين" الذي يخبئه في بيته؟

صعد من جديد إلى عند "مفتش المفتشين" وهو منكمش كأنـه خرب كيس خيش مليء بالتين. فها هو يضيف ذنباً جديداً على ذنوبه السابقة بالكذب على المكلفين بالأمن. على أية حـال سيـخـرج غـداً من بيـتـه، ويذهب ليضع التقرير الذي أعدّه أمام المحافظ. وبعد أن يعد له كل شي، ماذا لو قال له: خبأني في بيته. وعندما سأل موظفوكم عني، أنكر هذا. وقد رأيت أناساً وجودهم في الفندق غير قانوني. هذا يعني أن الرجل لا يحترم مسؤولي الدولة، وشخصيته تميل الى القيام بمختلف الأعمال غير القانونية. إتخذوا بحقه الإجراءات اللازمة!"

كان "مـفـتـش المفـتـشين" ينتظره وقـد وضع يديه على خصره. وكـان حاجباه مقطبين بشكل رهيب، وسأل: "من هذا؟"

"كاتبي يا سيدي."

"هذا الذي أعطاني مئتي ليرة؟"

"يا حضرة السيد، أتوسل إليك"

"لماذا جاء؟"

"المدينة انقلبت رأساً على عقب يا سيدي. إنهم يبحثون عن حضرتكم!"

"من؟"

"الشرطة المدنية"

"لماذا؟"

"يبدو أنهم عرفوا بأنك موظف في موقع رفيع، يجب أن يكونوا قد خافوا"

قال بعبارة ترفض هذا، ولكنها تؤكد أنه "موظف في موقع رفيع": "كيف عرفوا أنني موظف في موقع رفيع؟"

ابتسم الفندقي وقال متقرباً: "أرجوك يا سيدي، ما الذي لا يجعل هذا مفهوماً؟"

"غريب!"

"من يلقي عليكم نظرة يعرف فوراً أنكم مأمور كبير، وكبير جداً، وحتى آمر!"

"المهم دعك الآن من هذا. لماذا يبحثون عني؟"

"بحثوا عنكم في الفنادق والنزل كلها، وعندما لم يجدوكم.."

"اكتشفوا بأنني أنام هنا؟"

"لم يكتشفوا. وضعوا احتمالاً"

طار صواب "مفتش المفتشين" مثل مفتش مفتشين حقيقي: "ماذا قلت أنت؟"

"قلت إنه غير موجود يا سيدي"

"ماذا ؟"

"قلت غير موجود"

"لماذا ؟ ما السبب؟ لما أخفيت يا سيد؟ هل تخفى الحقيقة عن موظفي الدولة؟"

شحب لون صاحب الفندق تماماً، وكان يرتجف.

أما الآخر فقد كان يطلق صراخه إلى الآخر: "هذا يعني أنني هارب أيضاً، أو أي مخالف للقانون، يمارس أعمالا سرية، وشريك لك في هذه الأعمال"

"يا عزيزي حضرة السيد!"

أقفل وتابع قائلاً: "... فشعرت بضرورة إخفائي! يمكن استنتاج ألف معنى من هذا يا سيد. هذا يعني أنك تقدم على أعمال سرية مع أناس مخالفين للقانون، وتخبئ هذا النوع من الناس في بيتك، ولهذا جاء كاتبك باعتياد الى بيتك ليسأل عني؟"

"والله بالله لا يوجد أمر كهذا يا سيدي!"

"وبعد ذلك.. لماذا يبحثون عني؟ ماذا أنا؟ من أنا؟ هل أنا هارب من السجن أو قاتل أو مهرب سموم أو جاسوس؟ أم إنني، نعم، أم إنني مواطن يحمل هوية الجمهورية التركية، حر بأن يتجول في هذا البلد كما يحلو له؟ ألا يستطيع أي مواطن من مواطني هذا البلد أن يذهب إلى أي مدينة أو قصبة ضمن حدود الميثاق القومي، ولا يقضي ليله في فندق أو نزل، بل في بيت صديق له؟ وإذا فعل فهل هذه جريمة؟ بأي حقوق وصلاحيات تقوم الجهات الإدارية المختصة بمعارضة الحقوق والحريات الواردة في القانون، ويكفلها الدستور."

نسي ما سيكمل به كلامه كما يحدث في الغالب: "نعم؟"

ارتبك الفندقي فيما سيفعله، فلم يبق فيه قوة. أدرك أنه لا سبيل له غير اللجوء إلى هذا الإنسان الذي إذا فتح فمه سيغدو مثل مرشح للبرلمان غليظ الحاجبين، كثيف الشاربين خرج لصيد الأصوات، فقال: "يا حضرة السيد، أنا واقع في عرضكم. أقبل يديك وقدميك، غلطت، عندما يفهمون الأمر غداً سيمحقونني. لا تدعني وحدي!"

رد عليه: "اختصر!"

"حاضر يا حضرة السيد، كما تأمرون. يعني ما سأقوله.."

"ماذا؟"

"إذا لم تتركوني وحدي"

(هل كان سيقول "أعطيكم ألفاً"؟)

"نعم؟"

"أكون قد أنقذت!"

"وماذا أستفيد إذا أنقذتكم؟"

"يعني.. هذا.. نعم، هكذا إذاً، ماذا تستفيدون؟.. صحيح جداً.. ولكن يا سيدي نحن معتادون على عدم الرقابة في هذه المدينة. بعد الآن سأعيد بناء فندقي الآيل إلى الهدم. وأجد فرشه، ولحفه، وأغطية لحفه وفرشه.."

الحديث يطول والوقت قصير. لم يحتمل، فقاطعه مرة أخرى: "اختصر!"

"لن أنيم في فندقي أي زبون تهريب بأي شكل!"

"قلت لك اختصر!"

"وسألتزم بتوصيتكم، وأنقل خليلتي إلى بيت آخر."

"ولاه، ألا أقول لك اختصر؟"

كان صاحب الفندق قد وجد طريقة، وحضّر قطعة خمسمئة ليرة ليدسها بيد "مفتش المفتشين" بعد أن ودعه إلى غرفة الضيوف، وعاد إلى خليلته، وتشاجر مع المرأة، ونامت، وبدأت تشخر بشكل خفيف. علماً أنه إذا وجد الخمسمئة قليلة، وأرعد وأزبد، فقد حضر واحدة أخرى في جيبه الآخر ليدسها بيده حينئذ. مد الخمسمئة الأولى متردداً: "يا حضرة السيد، اغفروا لكاتبي جهله!"

أخذ الخمسمئة ليرة وسأله: "أي جهالة لكاتبك؟"

"أعطاكم مئتين فقط!"

فهم. إنه يريد أن يلتقط ألفاً على الأقل من هذه القضية. خمسمئة ومائتين أعطاه إياها الكاتب، تبلغ سبعمئة. يجب أن يعطيه ثلاثمئة على الأقل لكي يهدأ غضبه!

تنهد بحرص والخمسمئة المطقطقة بيده: "هذه الجهالة تكررت للمرة الثانية هذه الليلة. يا صديقي، لا تنسى هذا، ليس كل صاحب فم يأكل! هذه ليست قاعدة. أنتم هنا فهمتموني بشكل خاطئ. أنا لم أتنازل لأي شي ليس من حقي في حياتي. أنا لم أمرر من بلعومي حق الدولة والأمة، وحقوق الأيتام المساكين، ولن أمرره! أنا لا أتنازل لهذا المستوى، ليكن بعلمك يا صديقي!"

ولوح بالخمسمئة ليرة التي أعطاه إياها صاحب الفندق كأنه يهدده: "هذه جريمة، أنا أستطيع أن أجعلك تقضي سنوات في السجن. هل أنت منتبه لما تفعله؟ هل تفكر بعقلك، وتفهم؟ إنك تعطيني رشوة كي

أتغاضى عن جرائم كثيرة ارتكبتها! ما أفظع هذا! هل أطلب الآن الكشف على المكان؟ هل أقدمك للمحكمة، وأجرجرك في زوايا السجون؟"

"ضميركم السامي."

"لا يوجد ضمير سامي في الوظيفة. الضمير هو الوظيفة، والوظيفة مقدسة!"

رمق صاحب الفندق بنظرة ثم قال: "أجب. ماذا أفعل أنا الآن بهذه النقود؟"

لوى صاحب الفندق رقبته.

"ها؟ ماذا أفعل؟"

هزّ رأسه كأنه تذكر شيئاً فجأة: "نعم، الأفضل."

أمره: "هات خمسمئة أخرى لأرى!"

كان صاحب الفندق متأثراً بشدة، فأخرج الخمسمئة الأخرى ومدها له.

أخذها وقال: "صارت ألفاً، ومائتان أعطاها لي كاتبك الحمار، ألف ومائتان. لن أصفع هذه الألف ومائتين بوجهك، ولن أجعلهم يعاينون المكان، ويجرجرونك إلى السجون!"

هز قطعتي الخمسمئة بوجه الرجل، وقال: "عندما أعود إلى أنقرة، سأقدم هذه النقود إلى مؤسسة حماية الطفولة، مفهوم؟" ثم أضاف فوراً: "شرطي الوحيد أن تخرج خليلتك إلى بيت مستقل!"

ارتاح صاحب الفندق. فبعد خروج النقود منه لتذهب إلى من تذهب: بلعوم "مفتش المفتشين" أو خزينة مؤسسة حماية الطفولة.

"مفهوم؟"

"أمركم يا حضرة السيد."

"ولكن لا تنسى، يمكن ألا يتصرف واحد غيري بهذا التفهم. لماذا؟ لأن حظك جيد. لأنني غفوت قليلاً، فرأيت المرحوم أبي بالحلم. نحن ننتمي إلى القصر العالي عن طريق جدي الباشا!"

تنهد متأوهاً، وقال: "هيا، انطلق! ولدتك أمك في ليلة القدر.."

كان صاحب الفندق يبتعد عنه وهو يحييه: "الله يطول عمرك يا حضرة السيد. الله يجعل التراب بين يديك."

صفع الباب بوجهه.

عندما عاد صاحب الفندق إلى خليلته ذات عيني المها، كانت الديوك في خم الحديقة تطلق صياحاً طويلاً مبشرة بالصباح.

- ١٠ -

بدأ الناس منذ الصباح الباكر: "أنا صاحب محل منذ سنوات طويلة في هذا البلد، ولم أر طوال هذه الفترة مفتشاً، ولا رجلاً كبيراً ممتلئ الوجه هكذا."

"يعني إنه يتكلم بوقع أقوى من مرشحي البرلمان!"

في حي آخر يسألون صاحب محل آخر: "حسنٌ، فهمنا. لماذا جاء إلى هنا؟"

لا أحد يعرف. حسب ما قالوا كان كثيراً ما يأتي إلى محافظتهم من أنقرة رجال كبار، ولكن ليسوا مثل هذا، يتجاوز المحافظ وكبار رجال البلد فلا يخبرهم. كانوا يعرفون أنهم سيأتون قبل أسبوع، فيذهب الموظفون الكبار وعلى رأسهم المحافظ إلى المحطة، ويجلبونه إلى المدينة بسيارات رجال الصناعة والأعمال المتلامعة. وبعد ذلك تأتي الولائم وتنطلق الخطب.

أما هذا.. رغم أنه أكثر هيبة من القادمين كلهم حتى الآن، فقد جاء بصمت، وأخفى هويته، وسبب قدومه، وحسب ما عرفوه من هنا وهناك، فقد بدأ تفتيش المدينة من أطرافها.

"إيه.. لكل فرعون موسى يا ابني!"

"صحيح. هذا يعني أن الرجل سيفتش المحافظة بشكل قوي."

"طبعاً يا هذا، وسيقدم تقريراً."

"بعد ذلك، ستتفرج على الضجة!"

أحدهم همس لمن بجواره: "ذهب المحافظ من الصباح الباكر إلى مكتبه!"

"لا تقل هذا!"

"أكون عديم الشرف إذا كذبت!"

"من كان هناك شوكة بأصبعه تؤلمه."

"تؤلمه، وتؤلمه.."

أحد الصناعيين الذين يخسرون كل ليلة حفنات نقود في حفلة الورق والبوكر أنقذ من خسارة أكبر بفضل "خبر مجيء الرجل"، ولا يحب المحافظ أبداً، ومن منتسبي الحزب الآخر، يلفق أخباراً حول المحافظ دائماً، قال لأحد المتعهدين: "الكلام بيننا، نزل الخبر على المحافظ مثل الصاعقة! ولم يعرف ما تعرض إليه. شلت أطرافه.."

كان المتعهد يستمتع متعة خاصة باعتبار أن المحافظ هو المذنب الأول بالفساد الذي يحدث في كثير من التعهدات فقال: "طبعاً. ألا يهمس بالأرقام الواردة في الظروف المختومة في المزايدات والمناقصات؟ بعد ذلك ألا تأخذها اللجنة؟ ليأت ذلك المفتش، وليتكلم معي."

كان المحافظ الكبير البطن المصاب بالذبحة قد وصل تواً إلى غرفته، ويحاول التقاط أنفاسه. في ذلك الوقت المبكر لم يكن الموظفون الكبار والصغار قد أتوا إلى الدوام، ولا حتى الخدم. لم يكن في بناء المحافظة غير الأم زينب التي ترتدي معطفاً أسود، وتأتي باكراً، وتشطف

الممر الخشبي في قسم غرفة المحافظ، وتمسحه، وتقوم بعملها. عندما رأت السيد المحافظ قادماً في الصباح الباكر لم تصدق عينيها. نهضت على قدميها ولملمت نفسها، أسبلت يديها على جانبيها، وحيت حضرة السيد برأسها، ثم انكبت على عملها مندهشة دهشة كبيرة. وبرغم أنها تكن احتراماً خاصاً للسيد المحافظ، لكنها خاطبت نفسها خارج إرادتها: "هل طردوك من البيت من الصباح الباكر؟"

فجأة قال صوت السيد المحافظ الغليظ: "يا أم زينب!"

ألقت خرقة المسح من يدها، وجففت يديها بطرف معطفها وثوبها الجاف، وهرعت: "أمرك يا سيدي!"

"أعطني نصف كأس ماء."

"على رأسي."

لم يكن السيد المحافظ اليوم بلونه. بيد أن هذا الأمر فقد أهميته لأم زينب بعد أن تبين أن الطويل النحيل قد أقفل تلك الغرفة الضيقة التي يوجد فيها طقم القهوة، وإبريق الماء، وأخذ معه المفتاح. ماذا ستفعل الآن؟ إذا لم تأت بالماء فوراً، تخشى أن يغضب الرجل، وأن يطردها من عملها، لذلك كانت تبحث مرتبكة.

خطرت ببالها فجأة مديرية البيطرة. كانت ترى إبريق الماء أحياناً على طاولة مدير البيطرة. ركضت الى غرفة في صالة شبه مظلمة فيها طاولات في الطابق الأسفل مزينة بلوحة أتاتورك المغبرة المعلقة على الجدار، وستائر مسدلة إلى منتصفها. ولأنها لا تعرف أن الرجل، أي مدير البيطرة في إجازة مدتها عشرة أيام، لعنت غرفته، ثم ملأت الكأس المغبر من الإبريق المغبر بماء قديم، ثم تذكرت بأن السيد المحافظ طلب

نصف كأس، فأفرغت نصفه على أرض غرفة مدير البيطرة المغبرة وهرعت.

كان السيد المحافظ يذرع غرفته على خشب أرضيتها ذات المسامير المرتخية، ويفكر ببعض التجار والمتعهدين المنتمين للحزب الخصم في هذه المدينة. وكان يعرفهم جيداً، فيمررهم بعقله واحداً تلو الآخر، وهم يصكون بأسنانهم، كأنهم يريدون أن يقولوا: "نحن نعرف ما سنقوله للسيد المفتش!"

نظر شارداً فترة إلى أم زينب التي دخلت إلى الغرفة حاملة نصف كأس الماء. ماذا تريد هذه المرأة أيضاً؟ ثم رأى نصف كأس الماء بيدها فتذكر.. وعندما تذكر، تذكر أيضاً الربو، وتصلب الشرايين، والقصور بالقلب، والروماتيزم.

كان الدواء بيده أصلاً، فأخذ الماء، وشرب الدواء. قطب وجهه وقال: "ما أسوأ هذا الماء؟"

أخذت الأم زينب الكأس الممدودة إليها، وسددت بالهدف الذي تتحين فرصة التسديد إليه منذ فترة طويلة: "آذنكم ليس مثل آذننا يا حضرة السيد!"

"لماذا؟"

"ما نعرفه عن الآذن أنه يملأ إبريق ماء السيد المحافظ طازجاً. أما هذا فهو شارد."

وهل هذا وقت تفكير السيد المحافظ بهذا؟ تثاءب.

قالت الأم زينب: "لم تناموا جيداً يا حضرة السيد."

فجأة تذكر وجع الرأس طوال الليل الذي جاءه من الرجل الذي لا

يدري إن كان "مفتشاً" أو بلية. يا أخي رجل ضخم إلى هذا الحد، ويأتي هذا الضخم من أنقرة وهو يلوح بيديه، ويفتش على فنادق المدينة ومطاعمها، ثم يغدو شربة ماء، ولا تستطيع قوى الأمن وتشكيلاتها الكبيرة القبض عليه، ودع القبض عليه جانباً، فهي لا تستطيع حتى معرفة أين هو. فجأة أفضى بهمه للأم زينب: "لا يا سيدتي، لا، لا يوجد شيء اسمه أمن في هذه البلد. أتريدين أن يكون الرجل يفتش على مديرية الأمن ليعرف قدرتها على حفظ الأمن؟"

لم تفهم الأم زينب شيئاً.

استمر السيد المحافظ بالتعبير عن مخاوفه: "لو كان سيوجه اللوم لمدير الأمن فقط، فهذا غير مهم. ماذا يحدث إذا أدخلني في هذه القضية بصفتي الآمر الأعلى للإدارة في المحافظة؟ غير هذا سيكر الخيط بحفلات الورق والبوكر، والفساد في التعهدات واستدراج عروض الأسعار، وهذا وذاك!"

تخيل خصمه في شؤون الموظفين في أنقرة: "اغتنم ذلك السافل الفرصة.. لا ليس الأمر مهماً، أنا أستطيع أن أشرح الوضع في مركز الحكومة، ولكن.."

تلفت فيما حوله متوجساً. تذكر دعمه في مركز الحكومة، وهو ينبهه بقوة: "استطعنا تجاوز الأمر مرة. ولكنك يجب أن تتذكر أن الرجل في شؤون الموظفين يضغط كثيراً. والله ستحال إلى التقاعد في المرة القادمة."

تمطى.

يجب أن يحدد مكان هذا الرجل الذي يُبحث عنه منذ مساء البارحة، وهو مفتش أو بلية أرسلها الله إلينا هذا الصباح إذا أمكن مهما كلف الأمر.

ذهب إلى الهاتف، وأدار الرقم بنزق: "ألو.. هذا أنت؟"

كان مدير الأمن في بيته، وقد خلع منامته، وأدخل ساقيه في بنطاله، ولم يجد فرصة لربط الحزام، وقد هرع عندما رن الهاتف. كان ثمة شعور في داخله أن المحافظ سيتصل به باكراً: "هذا أنا يا حضرة السيد.. نعم؟ لا توجد أي أخبار يا سيدي العزيز. مشطنا المدينة كلها مرات. مع الأسف يا سيدي. لم تبق فنادق أو نزل.."

كانت السماعة على أذنه، ويتكلم دون انقطاع: "نعم يا سيدي، صحيح، صحيح جداً.. معاذ الله.. معكم حق.. أنا قادم يا سيدي، ربع ساعة فقط."

وضع السماعة مكانها، وغمز زوجته الشابة الجميلة الواقفة بجواره، وهمس لها كأن السيد المحافظ سيسمع ما سيقوله: "الرجل التقط النار بشكل سيئ!"

سألت المرأة الجميلة الشابة التي تعيش الجو منذ بدأت رياحه تهب إثر جلب الحوذي مصتق الخبر مساء البارحة بفضول: "لماذا يخاف إلى هذا الحد؟"

قال هامساً أيضاً: "من كانت هناك شوكة بأصبعه تؤلمه يا زوجتي العزيزة!"

بينما كان ذاهباً نحو الجهة التي توجد فيها مرآة الجدار ليربط ربطة عنقه، وقعت عينه على التقويم. كان يشير إلى الثاني عشر من آب لسنة ألف وتسعمئة وسبع وخمسين. أما اليوم فهو الثالث عشر من الشهر. قطع الورقة التي تشير إلى يوم سابق، ومدها نحو زوجته.

أخذتها المرأة الشابة: "حسنٌ، ماذا سيحدث الآن؟"

سأل الرجل الوسيم الذي يربط ربطة عنقه أمام المرآة: "ماذا؟"
"إذا لم يُوجد الرجل؟"
"لا شيء يا روحي، ماذا سيحدث؟ لعل الرجل نام في بيت أحد معارفه أو أقربائه. وإمكانية أخذ الشرطة والقوى الأمنية الخبر له حدود."
قال صوت طفلة حلو من الداخل: "بابا!"
نسي مدير الأمن الشاب المحافظ و"المفتش" الذي طبّ على المدينة مساء البارحة مع صوت ابنته البالغة العاشرة من عمرها الحلو، وقال: "نعم يا صغيرتي؟"
كانت الفتاة ذات الشعر الأشقر التي تشبه أمها، وهي جميلة مثل الدمى متمددة على ظهرها بثوب النوم الأزرق القصير، وتمد ذراعيها المكشوفتين لأبيها: "هل ستذهب دون أن تقبلني؟"
حمل ابنته بين ذراعيه، وضمها إليه بقوة، وقبّل شعرها مرات: "هل أذهب دون أن أقبلك؟"
"حسنٌ، إلى أين تذهب هكذا باكراً؟"
"استدعاني العم السيد المحافظ!"
"دخيل العم السيد المحافظ.. هل ستذهب دون تناول الإفطار؟"
"إيه.. هكذا اليوم.."
"من سيسقيني حليبي؟"
"أمك."
"وإذا كنت أريد أن تسقيني إياه أنت؟"
ناول ابنته لزوجته: "ولكن أمك ستزعل هكذا. أليس كذلك يا أم؟"

بعد أن ألقت الأم خصلة من شعرها إلى الخلف بحركة من رأسها، قالت: "أنا أزعل منها!"

كانت الفتاة قد أسقطت مزهرية ظريفة عن الطاولة وهي تلعب بكرة بلاستيكية، وكسرتها. نظرت إلى أسفل. أصلاً لم يكن لدى أبيها الوقت ليفكر بأمور كهذه. ارتدى سترته. كان الجو حاراً جداً. وقد تعرق منذ الآن.

"تعالي لأقبلك يا صغيرتي."

قبّل ابنته وهي في حضن أمها والبنت قبلت أباها، ثم قالت: "لن تنسى عندما تأتي ظهراً، أليس كذلك؟"

كان الأب الشاب قد نسي منذ الآن: "ماذا؟"

"توم مكس."

"ها، نعم. لا أنسى، لا أنسى. هيا، باي، باي!"

عبر الصالة بخطوات سريعة، وبينما كان يهبط الدرج، سمع صخب مصتق الأقرع. حقيقة كان قد ثرثر بأمور ما مساء. بما أن "الرجل" صار من أهل الحظوة بعد أن فتش الفندق، ألا يمكن أن يكون قد قضى الليلة في بيت الفندقي؟ الأقرع فكر على هذا النحو، وقال إنه سيذهب إلى بيت صاحب الفندق صباحاً.

عندما كان يركب العربة كانت ابنته وزوجته تلوحان له بأيديهما من الشرفة.

في الطريق سأل الحوذي: "ماذا فعلت؟"

كان مصتق الأقرع فرحاً بالمئتي ليرة التي استطاع تحصيلهما من زوجته، ولكنه لم ينم طوال الليل ولو نصف ساعة.

"بماذا يا سيدي؟"

"هل ذهبت إلى بيت صاحب الفندق؟"
تذكر فجأة: "ها، لا، أرسلت كاتبه."
"هل كان هناك؟"
"لم يكن هناك يا سيدي."
قال مدير الأمن لنفسه: "أمر غريب."
قال مصتق الأقرع: "ستشرفون المحافظة طبعاً؟"
"نعم السيد المحافظ ينتظر منذ الصباح الباكر!"
في تلك الأثناء كان مصتق الأقرع قادماً إلى بيت مدير الأمن من أجل تلك القضية، وهي إبلاغه بأن "الرجل" لم يكن في بيت صاحب الفندق، وليعرف منه ما سيفعله. فدهش لمجيء المحافظ مبكراً فقال: "هذا يعني أن السيد المحافظ في مكتبه في هذه الساعة؟"
"نعم."
التفت قليلاً نحو اليمين في عربته، وسأل: "لماذا؟"
كاد أن يقول: "في أصبعه شوكة تؤلمه." لكنه أمسك بنفسه. مهما يكن، فإنه أكبر آمري الدولة في المحافظة! قال: "إيه.. أحياناً هذا ما تفرضه الضرورة."
التفت مرة أخرى نحو اليمين، وغمز بعينه: "لماذا؟"
"ماذا تقصد؟"
"ما الذي يجعله يأتي؟"
برغم أن مدير الأمن قد غضب فجأة، لكنه لم يجد من المناسب أن يقرعه. كان مصتق الأقرع يفيده في كثير من الأعمال عند الضرورة. ولكي يبعده عنه، قال: "يقال حكمة الحكومة يا مصتق أفندي."
لم يفهم الحوذي شيئاً، فساط بسوطه على مؤخرتي الحيوانين، ثم

بدأ يتمتم لنفسه: "حكمة الحكومة.. حكمة الحكومة.. حكمة الحكومة.."

أنزل حضرة السيد أمام بناء المحافظة الخشبي المهلهل المؤلف من ثلاثة طوابق. صعد مدير الأمن الدرج الخشبي راكضاً كأنه تأخر عن موعده، وفي هذه الأثناء هرع الفضوليون إلى الحوذي. سأل أحدهم صاحب ربطة العنق المهذب: "لماذا أتى مدير الأمن باكراً يا مصتق؟"

نفخ صدره وقال: "استدعاه السيد المحافظ!"

اندهشوا جميعاً بمن فيهم ذو ربطة العنق الذي سأل: "هل السيد المحافظ؟"

"في هذه الساعة؟"

"ترى هل يوجد أمر مهم جداً؟"

"يمكن أن يكون نفيراً عاماً؟"

"ممكن، ممكن.."

"..............."

"..............."

قال ذو ربطة العنق وهو يغمز بعينه كما قال مصتق لمدير الأمن قبل قليل في العربة: "لماذا؟"

قال مصتق مباهياً: "ماذا تقصد؟"

"لماذا جاء السيد المحافظ إلى مكتبه باكرا إلى هذا الحد؟"

تذكر مدير الأمن وقال: "إيه.. أحياناً هذا ما تفرضه الضرورة."

"لماذا؟ لماذا تفرضه الضرورة؟"

قال وهو يقفز إلى عربته: "يقولون عن هذا: حكمة الحكومة."

وشد لجام الحيوانين، وساط بسوطه مؤخرتهما: "حاااا!.."

دهش الذين كانوا هناك وأكثرهم صاحب ربطة العنق لكلمة مصتق

"حكمة الحكومة". واحد يعرفه منذ سنوات طويلة، سكير، ثرثار، يدس أنفه فيما لا يعنيه، يفرط في الشرب حتى ينام على الأرصفة، ماذا يعرف عن "حكمة الحكومة"؟

قال: "يفهم الرجل بالدبلوماسية."

"يفهم؟ قل هل هناك ما لا يفهم به؟"

"..............."

"..............."

قطعوا الكلام عندما جاء "الشرطي المدني" المكلف مساء بالتحقق من هوية "المفتش" دون أن يلفت انتباهه. كانوا ينظرون إلى الرجل الشاب بفضول. أما هو فقد صعد الدرج جاداً دون أن يهتم بأحد. لعن نفسه طوال الليل من الركض إلى هنا وهناك. لو ظهر أن هذا الرجل ليس مفتشاً، وأنه أي شخص عادي...

-عبر الطابق الأول المظلم قليلاً والخاوي من الناس، واتجه إلى الدرج الذي يصعد إلى الطابق الثاني-

... ووقع بيده، سيجعل الكلب ابن الكلب يرجع الحليب الذي رضعه من أمه. ليكن سبب قدومه إلى هنا ما يكون.. ماذا يعني اختفاؤه، ونومه في مكان لا يعلم به أحد؟ إذا كان سيفتش، فماذا سيحصل؟ وماذا سينتج عن تقريره الذي سيعده عن قذارة الفنادق، ومخالفتها لقواعد الصحة العامة، أو كما يقول أصحاب المحلات بأن كل شيء خراب من ألفه إلى يائه؟ هل سيصحح؟ ألا تعرف أنقرة بكل هذا؟

الطبق الثاني: كان هذا الطابق أكثر ضوءاً مقارنة بالطابق الأول، وكانت الأم زينب التي يعرفها جيداً تمسح الأخشاب، فقال: "الله يعطيك العافية."

نهضت المرأة الثرثارة فوراً، وأعطته الخبر: "جاء السيد المحافظ باكراً جداً!"

"رجلنا عنده؟"

"وهذا أيضاً جاء قبل قليل."

عدّل المدني ربطة عنقه، واتجه إلى درج الطابق الثالث. كأن التقرير الذي سيرفعه سيصحح الخراب كله الممتد من الألف إلى الياء؟

قال لنفسه: "أووووه.. قدمت تقارير كثيرة حتى الآن. وهذا سيذهب إلى جانبها، وينام هناك نومته الأبدية!"

الطابق الثالث: لم يعد يفكر بشأن "المفتش" ولا بالتقرير الذي سيقدمه، ولا إن كانت الأمور ستصلح بالتقارير المقدمة.

وصل إلى باب غرفة المحافظ. قرعه وانتظر.

صوت مدير الأمن الذي يعرفه: "ادخل!"

دخل.

قرع الباب عندما كان الوالي يتجول في الغرفة مهموماً ويداه خلف ظهره، وقد ثار فضوله لمعرفة القادم. وبعد أن حياهما المدني برأسه بتهذيب، قال: "مع الأسف، لم أستطع تحديد المكان الذي بات فيه الليلة يا سيدي."

ثار غضب المحافظ فجأة: "لماذا؟ لماذا لا تستطيع أن تحدده؟ ما هي مهمتك؟"

مدير الأمن أيضاً غضب من هذا السؤال. هل هذا كلام؟ جاء الرجل من أنقرة، وقد أرسل إلى هنا بشكل خاص. من يعلم ما هو هدف زيارته؟ وإذا كان ينام في مكان غير الفنادق والنزل، وإذا كان يخفي

هذا ، أي المكان الذي يقضي فيه ليلته بشكل خاص، فماذا تفعل مديرية الأمن؟ لن يخرجوا منادين بطبل للبحث عنه ياه!

أما المحافظ فقد كان يعمل ما يريد، وكأنه يصب غضبه على الآخرين: "مديرية الأمن تعني المكان المسؤول بالدرجة الأولى عن كل ما يتعلق بالأمن من ألفه إلى يائه. المؤسسة الأمنية تمتاز بمعرفة الأمر قبل وقوعه. توثق الخبر، وصحة الخبر، ثم تميز المذنب من البريء في إطار القانون. هذه المهمة الأولى للأمن. ولكن أنتم..."

صبر مدير الأمن أيضاً يكاد أن ينفد. قطع كلام المحافظ، وقال للمدني: "ألم تتلقوا أي خبر عنه؟"

قال المدني ببرود ناجم عن التقريع الذي سمعه قبل قليل من المحافظ: "عرفنا بعض الأمور يا سيدي."

اقترب منه السيد المحافظ بفضول: "مثلاً؟"

"مثلاً.. عرج على خمارة على أطراف البلد حوالي الساعة التاسعة. كانت الخمارة قذرة جداً، ولكن غضبه انصب على عدم احترام كبار قادة الحزب الحاكم، عفواً كبار رجالنا، بتعليق صورهم بشكل عشوائي على جدران قذرة، وصرخ بوجه الخمار، وابنه."

قال المحافظ بارتياح: "هكذا إذاً؟ هذا يعني أن حضرة السيد يؤيد الحزب الحاكم؟"

قال مدير الأمن بامتنان: "هذا ما يبدو يا سيدي."

التفت إلى المدني: "ممن عرفتم هذا ؟"

تلفت المدني فيما حوله لمعرفة ما إذا كان "السر الذي سيبوح به" سيصل إلى أحد غريب أم لا ثم قال: "نادل الخمارة من عيوني يا سيدي"

"حسنٌ، ألم تطلبوا الخمار شخصياً وتسألوه؟"

"سألناه يا سيدي."

"ماذا قال؟"

"لم يقل الخمار الكثير، ولكن حسب ما قاله النادل، وأحد المقربين منا كان بين الزبائن، فإنه وجد الخمارة قذرة جداً، وليست مراقبة أبداً، وسأل عما إذا كانت اللجنة الصحية تأتي أم لا يا سيدي."

قال المحافظ: "وبعد ذلك؟"

"بعد ذلك، طلب كأس نبيذ، وأخذ منه رشفة واحدة، ووجد أنه سيئ جداً، وسأل عن علاقة الوطنية بتحقيق الربح عن طريق تسميم أبناء الأمة."

وصل خوف المحافظ إلى الذروة. نظر إلى مدير الأمن حزيناً، وهز برأسه: "هذا يعني أن الرجل متمسك بعمله جداً؟"

وسأل المدني: "هل ذكرتم كل هذا للمدعو رئيس البلدية المعجب بنفسه كثيراً؟"

التفت المدني عن حق إلى مدير الأمن. نعم هكذا، ما علاقته برئيس البلدية؟ أو أنه بأي صفة يذهب لينبه الرجل؟

قال مدير الأمن: "هذا يجب أن نبلغه نحن."

أدرك المحافظ خطأه، فأصدر أمره ليغطي عليه: "ماذا تنتظر، افتح الهاتف، ونبهه!"

زول مدير الأمن رقم هاتف بيت رئيس بلدية المدينة: "ألو.."

كان كل من في البيت حضرة السيد رئيس البلدية وحضرة السيدة والآنسات والسادة الصغار نائمين عدا الخادمة. ولعدم معرفتها أهمية "مدير الأمن"، قالت: "إنهم نائمون."

قال مدير الأمن: "أيقظيه!"

"لا استطيع إيقاظه."

"لماذا ؟"

"تأخروا بالنوم مساء. ونبهتني حضرة السيدة ألا أوقظهم مهما كان المتصل."

فهم مدير الأمن أن الخادمة قذرة اللسان، فقال: "يا ابنتي، سأقول له أمراً مهماً جداً. أيقظي السيد رئيس البلدية!"

قطبت الخادمة العجوز وجهها المذكر: "قلت لك لا أستطيع إيقاظه ياه!.. أنت واحد لا تفهم الكلام! الكلام يُقال للإنسان مرة واحدة. لا أستطيع إيقاظه، وكفى! ماذا ؟ هل أقبض راتبي منك، مفهوم؟ لن أوقظه!"

أعادت السماعة إلى مكانها بلؤم، وبينما كانت ذاهبة إلى غسيلها رن الهاتف مرة أخرى. عادت. لعله شخص آخر. رفعت السماعة: "ألو.. من؟ أنت مرة أخرى؟ لا، لا أستطيع إيقاظه!"

قال مدير الأمن بلطف: "اسمعي، سيتكلم السيد المحافظ."

لم تصدق الخادمة: "هيا، هيا، لا يمكنك أن تخدعني. السيد المحافظ في هذه الساعة ينام في سابع نومة. أنا لست طفلة أمامك. لا تنق، والله سأخبر السيد رئيس البلدية عندما يستيقظ، وستكون مذنباً!"

أغلقت السماعة من جديد، وبلؤم أكبر. الله الله.. ما أكثر الذين لا يفهمون بالكلام في هذه الدنيا ياه! الإنسان يقول للإنسان الكلام مرة واحدة. قلت لا أستطيع إيقاظه لماذا يضغط علي؟ يقول: أيقظيه. لم تستطع إيقاظه! لابد أن حضرة السيدة تعرف شيئاً ما. فهي زوجة رئيس بلدية قد الدنيا، ألا يوجد عندها عقل بقدر مدير أم ماذا ؟

دخلت المطبخ.

- ١١ -

رن جرس الهاتف عدة مرات، وتسلل صوته الى نوم حضرة السيدة بداية وأيقظها، ثم خدش نوم حضرة السيد رئيس البلدية وأخرجه من عمق النوم إلى سطحه. وكان بين نومه العميق ويقظته..

"ألو.. من؟ السيد المحافظ؟ اسمعني، التي تكلمها ليست حمارة. أنا منذ فترة طويلة خادمة رئيس بلدية هذا القدّ قده. لا يمكنك أن تخدعني.. الصوت الذي كان قبل قليل قال إنه مدير لا أعرف ماذا. السيد المحافظ لا يستيقظ في هذه الساعة، ولا بعد ساعتين ولا بعد ثلاث ساعات. لا، لا أستطيع إيقاظه! لستم من يعطيني لقمة عيشي، ولا أتقاضى راتبي منكم. فلا أستطيع أن أوقظه وأخسر لقمة عيشي!"

قفزت حضرة السيدة من السرير. وذهبت إلى الهاتف بصدرها الخافق وذراعيها، وساقيها المصابة بالدوالي المكشوفة من ثوب النوم: "مع من تتكلمين يا بنت؟"

كانت ستغلق الهاتف بوجه السيد المحافظ. قالت: "من سيكون؟ واحد مجنون يا حضرة السيدة."

تناولت حضرة السيدة السماعة: "هات لأرى.. ألو.. من؟ المحافظ؟ هذا حضرتك يا سيدي؟ الله يلعنها. أرجوك يا سيدي، أنا آسفة، نحن

آسفون جداً. هذه فاطمة المجنونة خادمتنا. لا تؤاخذونا يا سيدي.. كيف حال حضرة السيدة؟ الله لا يحرمنا منكم يا سيدي. رجلنا؟ مازال نائماً. أفرط قليلاً بشرب الويسكي مساء. لا مانع يا سيدي؟ ألا تعرفون، وهل يسمعون كلمة الزوجة؟ تسلم لنا، جيد، ولطيف، ولكنه لا يسمع الكلام. من قلتم يا سيدي؟ مفتش؟ فتش المطاعم والفنادق؟ يا! فوراً، سأوقظه فوراً يا سيدي. دقيقة."

تذكرت أن زوجها قال لها: "من غير الممكن التغلب على قذارة هذه المدينة. وكل شخص في البلدية من مفتشي الصحة إلى موظفيها يعيش على هواه. إذا جاء ذات يوم مفتش من أنقرة بشكل خاص دون علمنا، فهذا يعني أننا سنجلس على الخازوق." بينما راحت راكضة توقظ زوجها، سألتها ابنتها التي خرج ثديها الناهض من فتحة ثوب نومها الكبيرة: "من هذا الذي يتصل من الصباح الباكر يا أمي؟"

لم تكن في حال يمكنها من الرد على ابنتها. ذهبت بهلع إلى زوجها، وبدأت توقظه وهي تهزه: "يا سيد، هش يا سيد، يا سيد."

شعر رئيس البلدية الذي غزا الشيب أكثر من نصف شعره بتيار كهربائي انتشر من جذعه الضخم إلى أعماقه. وبعد هزّات زوجته له عدة مرات، ومواصلتها القول: "يا سيدي، هش يا سيدي.." استيقظ نصف استيقاظ، وقال: "هق!"

"يبدو أن ما خفت منه قد وقع. جاء مفتش من أنقرة يفتش المطاعم والفنادق منذ المساء."

وبرغم أن الطبيب أكد عليه قائلاً: "لا تنهض من السرير قفزاً، ولا تنفعل." فقد نهض قفزاً، وبانفعال. وبينما كان يلبس النعلين البيتيين بقدميه المشعرتين، قال: "هل هو على الهاتف؟ هل ينتظر؟"

قالت حضرة السيدة: "إنه على الهاتف."

عرفت الفتاة الصغيرة سبب الاتصال في الصباح الباكر. ركضت إلى غرفة النوم التي تنام فيها أختاها الأكبر في سريرين منفصلين. كانت الأختان أيضاً قد استيقظتا. أعطتهما الخبر: "جاء مفتش من أنقرة!"

ما علاقة الأختان؟

سألت ذات ثوب النوم الكاشف الصدر والذراعين: "إيه، ماذا يحدث إذا أتى؟"

كانت الأخرى أجمل البنات: "هل هو شاب؟ هل هو وسيم؟"

دفعت ثديها الناهض من فتحة ثوب نومها الأخضر بحركة سريعة من يدها.

توترت الصغيرة كثيراً: "من أين أعرف إذا كان شاباً أو وسيماً؟"

"اذهبي واعرفي، أنا آمرك بهذا!"

وقفت الصغيرة باستعداد جندي، وقدمت التحية: "أمرك يا آنستي!"

الكبيرة أيضاً كانت جميلة، ولكنها طويلة قليلاً. لو لم تكن طويلة إلى هذا الحد، ولو لم يكن في وجهها، وعلى الخصوص في ذقنها اندفاعات جلدية..

قالت: "من رأيت في نومي، اعرفوا؟"

قالت الوسطى: "وهل هذا لا يعرف؟"

"بائع شراب الحبوب نجاة؟"

تمددت الكبرى على سريرها، ووضعت يديها تحت رأسها فظهر تحت إبطيها المحلوقين. ركزت عينيها على مصباح النوم الأحمر في السقف

الذي مازال مناراً. في عقلها الصيدلي نجاة الضخم والجميل كالفتيات. كانت تذهب إلى الصيدلية عدة مرات في اليوم دون سبب، وتشتري عدداً من الكريمات والعطور لا تلزم بشيء. كان الصيدلي الشاب منتبهاً لهذا، ولكنه متعلق بالوسطى. كانت الوسطى لا مثيل لها في المدينة بنظره. ولولا معرفته بأن طبيباً كان مصارعاً أو ملاكماً له علاقة معها ويعشقها، لأقدم على خطبتها. كان مترددا لأن الطبيب كان مجنوناً. وبين فترة وأخرى: "تحكه قبضتاه" مطلقاً التحدي يميناً ويساراً: "وهل هناك ذقن بحاجة للتهشيم؟" وإذا عرف أنه وضع عينه على الوسطى التي يريدها، فإن قبضتيه اللتان تحكانه..

قالت الوسطى: "ملاكمنا. سيتدرب معي اليوم على الملاكمة!"

قالت الصغرى: "وهل هذا سيئ؟"

"إنه يؤلمني يا بنت!"

كانت الكبرى تنظر شاردة إلى السقف حتى ذلك الوقت.

لم يغب هذا عن انتباه الوسطى، فقالت: "ما هذا يا أختي، أنت في وضع رومانسي شديد."

قالت الصغرى بلؤم: "إنها تفكر بالعزيز عليها نجاة..."

لم تسمع أختها الكبرى ما قالته. إنها متوترة كثيراً. نجاة يناسبها، إنه يناسبها. لماذا تعرفت عليه أختها الكبرى قبلها، وبدأت تتعلق به؟ لولا خوفها منها لكانت أخذته من أختها الكبرى، لكنها تخاف، كما تخاف من أبيها أيضاً، فهو يضايق بناته. يرى انه رئيس بلدية قد الدنيا، وأعين الجميع عليهم، والحزب الخصم، وتوجد في البلد معارضة. ما يفعله الجميع لا يلفت الأنظار، أما يفعلونه هم..

حين ظهرت أمهن بالباب، وسألتهن: "هل استيقظتن؟" انقطعت سلسلة أفكارها، وقالت: "حل بأبيكم ما كان يخشى منه."

كانت البنات الثلاثة غير مهتمات، ولمجرد المجاملة، سألن: "ماذا حدث؟"

"جاء مفتش من أنقرة سراً. ويفتش مطاعم المدينة وفنادقها!"

قالت الكبيرة: "ما علاقة أبي؟"

قالت الأم: "أبداً. الأمور جيدة بالنسبة إلى أبيكم، ولكن السيد المحافظ مرتبك جداً!"

قالت الوسطى، وقد غمزت بعينها: "لماذا؟"

أجاب الأب الضخم الشاب من خلف كتف زوجته: "من كانت هناك شوكة بأصبعه، تؤلمه يا ابنتي."

كان رئيس البلدية قد تجاوز الخمسين، ولكنه رجل يبدي أقل من عمره بكثير. كان وضعه سيئاً تحت تأثير شرب الويسكي بإفراط مساء، أو على الأصح، مزيج من العرق والفودكا الذي وسوس له الشيطان بشربه مع الويسكي.

قال: "هاتوا لي حبة ألكا بسرعة!"

هرعت حضرة السيدة بثوب الصباح الأخضر، وذهبت، وعادت بكأس ماء، وحبة ألكا. فتح السيد رئيس البلدية غلاف الحبة الأزرق، وألقاها في نصف كأس الماء. بدأت الحبة البيضاء تذوب وهي تدور وتتلوى وسط الماء هامسة كأن انقلاباً يحدث وسط الماء الراكد: الفقاعات الصغيرة تهيج الماء بصوت أزيز، وتعمل على تحطيم جوه، لكنها عندما تصل إلى نقطة التقاء الماء بالهواء تنفجر. نهاية، انتهى كل شيء. ذوب الماء حبة ألكا الانقلابية المشاغبة الفوضوية واحتواها.

أنزل السيد رئيس البلدية الماء بالألكا المجلوب من الثلاجة إلى معدته الحارة، ومد القدح إلى زوجته: "أووووه!" ثم ضحك، وقال: "هذا يعني فاطمة الحمارة؟"

لم تضحك حضرة السيدة، بل غضبت: "لا تضحك من هذه البنت الثرثارة!"

سألت الفتاة الكبيرة: "ماذا حدث يا أمي؟"

"أنبت الثرثارة مدير الأمن على الهاتف!"

دب الفضول لدى الفتيات فجأة: "أنبّته؟ كيف؟"

"كان الرجل مع السيد المحافظ. اتصلوا بأبيك. ألم ننبهها مساءً، بألا توقظ أباك مهما كان المتصل؟ وأنتِ.."

بدأت الفتيات يتلوين من الضحك.

قال السيد رئيس البلدية: "فعلت حسناً. أحسنت يا فاطمتي.." وناداها: "فاطمة!"

جاء رد مذنب: "حاضر يا حضرة السيد؟"

"لا تسمعي أنت من السيدة. ليكن من يكون غير السيد المحافظ ومدير الأمن، لا توقظينني صباحاً، ممكن؟"

كانت تقف بباب المطبخ ويداها مبتلتان بمياه الجلي، كانت ستقول: "حاضر يا سيدي.." فخافت من وجه السيدة العابس، وحاجبيها المقطبين. فأطرقت بنظرها. ولكن حضرة السيد هذا.. "ليكن، ليكن شعره قد شاب. إنه رجل وسيم، طول، وقامة، وبنية، وشاربين، ورموش.."

تنهدت. أيـ.....ـن، وهل هناك إمكانية؟

لم يكن رئيس البلدية على علم بما يجول بخاطر خادمته فاطمة، وبعد أن ارتدى سترته دقق بربطة عنقه التي سوتها له زوجته، وتمتم: "كنت نعساً جداً!"

توترت حضرة السيدة: "ما هذا المحافظ، هل هو مجنون؟ لماذا يوقظ الناس قبل الساعة التاسعة. لما يوقظ الناس من أحلى نومهم، لا أعرف!"

قال رئيس البلدية: "نعم، لا أذهب إلى خطر ببالي، فأنا لست مضطراً. ما علاقتي بالمفتش إذا كان يفتش الفنادق. إذا كان سيفتشها فليفتشها. هل سيرفع تقريراً بأنها قذرة ومخالفة للقواعد الصحية؟ ليرفع. ماذا ستفعل أنقرة لي؟ هل سيعلقونني من شعري بالسقف؟ إذا أغضبوني، فأقول لهم خذوا مالكم، وأعطوني مالي، وأخرج من القضية!"

كان ملاكاً كبيراً، ورجلاً غنياً، حتى إنه يقوم بعمل رئاسة البلدية "وجاهة"، ويأخذ راتبه بمجرد العادة. كان رجلاً متعلقاً بعاداته: تلك الدار المتساقط دهانها على أهم شارع في المدينة قد آلت إليه من جده. يستطيع أن يبني ليس بناء واحداً، بل خمسة أبنية، أو عشرة. وفي الحقيقة أن لديه أبنية مؤجرة. والبيت الذي يسكنه آل إليه من جده، ويذكره كبيت للجد، وهو يعتبر أن تركه والانتقال إلى مكان آخر عدم احترام لذكرى جده.

خرج من البيت دون رغبة، وقفز إلى الكاديلاك موديل ١٩٥٦ التي تنتظره عند الباب.

كان مدير الأمن، وضباط مديرية الأمن الكبار والصغار، وأصحاب مختلف المطاعم والفنادق والملاهي مجتمعين في غرفة المحافظ. لم يكن

السيد المحافظ هو السيد المحافظ الذي كان عليه دائماً. شحب لونه، شبه متوتر، ويسأل بشكل متكرر: أين قضى "الرجل" ليلته؟ غاضب مع الخوف من عدم إمكانية التحقق من مكان إقامة الرجل حتى تلك الساعة.

عندما رأى رئيس البلدية داخلاً، ترك أصحاب المحلات والموظفين الكبار والصغار في البلدية ومديرية الأمن، وقال: "تعال يا أخي، أين أنت يا هذا؟"

قال رئيس البلدية وقد تثاءب للعناد فقط: "مريض قليلاً"

"الحمد الله على سلامتك. ما بك؟"

"شربت في المساء مختلف أنواع المشروب، و.."

قال المحافظ: "ستخرج منها بعد قليل." ثم انطلاقاً من أن رئيس البلدية "لن يمر من الطريق، أو من المحتمل أن يكون قد مر، وهو محدود الذكاء في هذا العمر." شرح له الوضع باختصار: حسب ما فهم، فإن مفتشاً جاء سراً من أنقرة. وعدم إيجاد الرجل رغم البحث عنه طوال الليل ناجم عن اختبائه في مكان ما. وأن المشكلة كلها تكمن بمعرفة المكان الذي يختبئ فيه.

تلفت صاحب الفندق الطويل الذي قضى الليل في بيته فيما حوله متوجساً. فقد قال للجميع، وخاصة للأمن إنه رأى الرجل في فندقه، ولكنه غادر الفندق، وأخفى أنه قضى الليل في بيته، وحتى أنه أعطاه رشوة.

قال السيد المحافظ: "هيا بإمكانكم أن تذهبوا، ولكن بشرط: أينما رأيتم الرجل، يجب أن تبلغوا أقرب مخفر شرطة. ولكنكم تفهمون؟

الرجل جاء سراً من أنقرة، وقد أرسل من أجل أن يفتش على محافظتنا. احذروا أن تقولوا شيئاً له.."

قال أصحاب المحلات الكبار والصغار بشكل جماعي، وبسخرية خفيفة: "لا تشغلوا بالكم يا سيدي. ليكن شيطاناً، وليس مفتشاً."

زل لسان صاحب المطعم علي ابن آوى المعروف بمزاحه: "إذا كان ثعلباً، فنحن ذيله يا سيدي!"

غادر صاحب الفندق الطويل الذي خبأ "المتنفذ" في بيته خائفاً من مبنى المحافظة. كان مصتق الأقرع ينتظره، وعندما رآه غمز له بعينه، واقترب منه: "كيف أخبارك؟"

من أجل أن يمحو عنه الشبهات كلها، قال: "المحافظ، ومدير الأمن، وها هو رئيس البلدية، الرجل حقيقة قلب المدينة رأساً على عقب!"

هز مصتق الأقرع رأسه باهتمام: "إيه.. طبعاً. حقيقة إنها حكمة الحكومة يا سبعي!"

لم يسمع صاحب الفندق. صعد إلى عربة الأقرع. قفز الأقرع إلى مكانه وساط بسوطه مؤخرة الحيوانين كما يفعل دائماً: "حاااا!"

لم يتكلما في الطريق أبداً. كان مصتق الأقرع مدركاً أهمية الموضوع وفظاعته.

انحنى في العربية بشكل خفيف نحو اليمين، وقال: "هل فهمت أي رجل هذا؟"

وبخوف صاحب الفندق من استضافة رجل كهذا في بيته، وإخفائه لهذا الأمر عن الجهات المسؤولة، قال: "ماذا؟"

"هل فهمت أي رجل هذا؟"

"مثل ماذا؟"

"أنا الذي اكتشفت الرجل. عندما أقول لكم أنا حوذي منذ أربعين سنة، وحتى الشيطان لا يغيب عن عيني، تتقهقهون. كيف؟ هل يغيب أم لا يغيب؟"

لم يقل صاحب الفندق إنه يغيب، ولا لا يغيب، حتى إنه لم يتوقف عند الأمر. لم يكن يفكر سوى بالذهاب إلى البيت، والاهتمام بوضع "الرجل". حسنٌ، ولكن الرجل طويل وعريض، ويزيد وزنه على المئة كيلو، وفوق هذا فإن حذاءه يصدر وقعاً: "ظط، ظط، طظ.."، فكيف سيخرجه من بيته، وكيف سيصرفه دون أن ينتبه الجيران؟

وصل إلى البيت خائفاً دون أن يهتم بشأن مصتق الأقرع الذي لم يهدأ طوال الطريق. فتح الباب بمفتاحه، ودخل. ما هذا؟ كان ثمة شخير ينبعث من العمق. من صاحب هذا الشخير في بيته؟ كل هذه السنوات لم يسمع شخيراً كهذا في بيته...

ضرب البرق عقله: أخشى أن يكون هذا شخير "السيد المفتش"؟

عندما وصل إلى الطابق الأعلى حيث الغرفة التي يستضيف فيها "السيد المفتش"، فهم أن من كان الذي يشخر هو "السيد المفتش". التفت يميناً، والتفت يساراً.. ماذا سيفعل الآن؟ أيقرع بابه ويدخل، أيهزه بقوة ويوقظه ليقول له: "إنك تشخر بشكل فظيع". غير أن هذا معيب جداً، وقد يغضب الرجل. وإذا لم يوقظه قد ينتشر هذا الشخير المستمر في الحي، شخير لم يعرفه الحي حتى الآن، وهذا ما يعني أنه يخبئ الرجل في بيته.

كح مصدراً صوتاً قوياً. نظر من النافذة ذات الستارة الغربولية: كان "الرجل" ينام على ظهره مثل جاموس، فمه مفتوح، ويشخر كأنه

غيـر مبال بالعـالم كله. لولا أنه لم يقل لمديرية الأمن وهنا وهناك إنه لم يستضف الرجل في بيته، فلا ضرر من الأمر. ليطلق شخيراً متقطعاً أو متـواصلاً.. وليشـخر كـما يشـاء. كح من جـديد، وكح مـرة أخـرى. ظل الرجل يشخر!

ركض نحو غرفة زوجته. بحث يميناً ويساراً، غيـر موجودة، غيـر موجودة..

نزل إلى طابق خليلته، دخل إلى غرفتها فوجدها نائمة. انكمشت بجسدها الظريف على شكل فاصلة كبيرة، بشكل جميل جداً. لم يحتمل. ذهب إلى جوارها. بدأ يداعب فخذيها، وعند انحناء الفاصلة الكبيـرة. استيقظت المرأة الشابة ورأته بعينيها الناعستين، بيد أنها لم تعرف صاحب الفندق للحظة فقد كانت في حلمها تنام مع "السيد المفتش" في فندق على البوسفور. لماذا يوقظها هذا الرجل القذر من حلمها اللذيذ؟

"ماذا حدث من الصباح الباكر؟"

جلس صاحب الفندق على حافة السرير: "أخطأنا خطأ كبيـراً، لا تسألي!"

"أي خطأ؟"

"ألا تسمعين الشخير؟"

"في حلمي رأيته.."

"لا شي، ولكن إذا انتشر في الحي، فهذا يعني أننا احترقنا!"

"لماذا؟"

"الأمر ليس كما تظنين، قلب الرجل المدينة رأساً على عقب. قبل قليل استدعوني إلى المحافظة وذهبت. جمعوا أصحاب المحلات كلهم

تقريباً. حتى مدير الأمن كان هناك. وفجأة دخل رئيس البلدية. أمروا بالبحث عن الرجل طوال الليل. وجن جنونهم عندما لم يجدوه!"

"لماذا لم تقل لهم إنه ضيف عندنا؟"

"لا أعرف. إنه تصرف أحمق. أخفيت هذا في البداية واستمر الأمر هكذا. أفكر الآن بأن الرجل سيستيقظ ويذهب وسيراه أبناء الحي. ما العمل، لا أدري."

بدأ يمشي في الغرفة. حقيقة كيف سينقلع عنه هذا الرجل؟ في هذه اللحظة بالضبط رأى زوجته الشرعية تصعد الدرج بوركها العريض، وتتجه نحو غرفتها. ذهب اليها وسألها: "أين كنت؟"

قالت مسرورة من هذا السؤال الخاص بالأزواج الغيورين الذي نسته منذ سنوات: "كنت عند امرأة الخياط."

"هل يُسمع الشخير من الخارج؟"

لم تكن المرأة منتبهة فأصغت: "أخشى أن يكون السيد المفتش يشخر؟"

"يا روحي، دعي عنك هذا الآن، هل يُسمع من عند الجيران، أم لا يُسمع؟"

دهشت: "ماذا؟"

"شخير الرجل!"

"لا يُسمع."

"الرحمة، لئلا يُسمع. احذري من أن تكوني قد قلت شيئاً ما هناك!"

قالت بقلق: "مثل ماذا؟"

"إن الرجل قضى الليل عندنا أو شيئاً كهذا؟"

غدت مثل الثلج لحظة، لكنها استجمعت نفسها وقالت: "أيقال هذا؟ وهل أنا مجنونة؟ وهل طارعقلي؟"

الا أنها كانت قد تحدثت به لزوجة الخياط العليمة القزمة، ناقلة الكلام! استفادت من مجيء كاتب زوجها الذي اصطحبه صباحاً وهرعت اليها. كانت المرأة القزمة تجلي المواعين في المطبخ وحالما رأتها تذكرت الصراخ في الليل. قبل أن تبادرها بالسؤال بدأت تحكي لها: "لا تسألي يا وردتي، لا تسألي، عما حدث هذه الليلة!"

أدركت زوجة الخياط بأن شيئاً مهماً قد حدث، فتركت الجلي، وجلست على عتبة باب المطبخ، وأخرجت من عبّها علبة السجائر والكبريت. كانت تدوخ إعجاباً بإشعال السيجارة مع سماع القيل والقال.

"لابد أن الله أراد هذا، فقد جاء زوجي إلى البيت عند منتصف الليل ومعه مفتش. نظرتُ، وإذا خشب الأرض، ودرجات السلم تصدر صريراً. وسوس لي الشيطان. نزلت عن السرير بهدوء، ونظرت من فرجة الباب، وماذا أرى؟ رجل طويل عريض بقد الباب بيده حقيبة صفراء وقبعة نائب.. ويا له من وسيم، الكلام بيننا يناسبك تماماً!"

ضحكت زوجة الخياط الضئيلة الحجم: "ملامحه جيدة ها؟"

"قلت لك إنه يناسبك ياه!"

"شواربه؟"

"يا بنت، ألم أقل لك إنه يناسبك تماماً.. يزيد عن مئة كيلو، ولا ينقص أبداً.."

اجتاح امرأة الخياط شيء يشبه الإغماء: "من النوع الذي تفوح منه رائحة العرق إذا شرب عرقاً، ورائحة السجائر إذا دخن، ها؟"

"انتظري واسمعي. نظرت، وإذا بهم يدخلون ويخرجون، وخاصة العاهرة، الله لا يريك. وإذا بي أراها تتبادل القبل مع رجلي عند رأس الدرج؟"

"من؟"

"العاهرة!"

تململت امرأة الخياط بانفعال: "إيه؟"

"سيطر هذا على عقلي المجنون، ولا أعرف ماذا جرى لي. جاءتني جرأة من عند الله، وبدأت أصرخ!"

"ماذا يا بنت؟"

"يا سيدي المفتش، يا سيدي المفتش. رجلي والفاحشة ارتبكا.. وهل يتوقف لساني؟ لم أعد أعرف ما أفعل. شتمت وقلت: أرني العدالة، منذ أشهر وفي بيتي، بيتي الشريف، امرأة دون عقد زواج. هل يقبل القانون هذا؟ أو الحق أو العدالة؟ من دون أن أطيل عليك، جاء المفتش، وأسكتني. أنا قربانه، له يدان، بهذا القد يا بنت، مكتنزة، مشعرة، ودافئة!"

"يجب أن يمسك الإنسان بتلك اليدين، ويعصر، حتى يتألم.."

"استمع، واستمع.. ثم أتعرفين ماذا قال؟"

"ماذا قال؟"

"قال لنبدأ المعاملة فوراً إذا أردت، ولكن زوجك سيدخل السجن. مع أنك قلتِ لي يدخلان معاً ثم تتخلصين من المرأة. المرأة غير متزوجة لا تدخل السجن، وإذا دخلت فلا تدخل إلا بعد دخول رجلنا.. دخلت أم لم تدخل.. أليس كذلك؟"

عبر وجه امرأة الخياط ظل الغضب: "من أين أعرف أنا، فقد نقلت كلام الآخرين. هذا ما كنت أعرفه. هذا يعني أنهما يجب أن يكونا متزوجين حتى يدخلان السجن، ها؟"

"هذا ما قاله السيد المفتش.."

"المهم.. بعد ذلك؟"

"بعد ذلك، الرجل طيب، رجل عارف، يساوي وزنه ذهباً. سحبني إلى طرف.."

تململت امرأة الخياط بشهية: "إيه؟ يعني سحبك جانباً؟"

كانت امرأة صاحب الفندق ممنونة، حتى مباهية: "لا تسألي!"

غمزت بعينها، وبدأت تكذب: "معصمي بيده الدافئة. قال: يعني أن الرجل جلب واحدة تشاركك فيه؟ انفعلتُ، وبدأت أبكي، أمسكني من ذقني، ورفع رأسي، وطلب مني أن أسكت. قال: اسكتي، لا تبكي. ليقلع الله عيني هذا الرجل، يترك جوهرة مثلك ويعبد الضئيلة التافهة."

اجتاحت امرأة الخياط موجة غيرة.

"التفت إلى اليمين، وإلى اليسار، لم يكن هناك أحد. احتضنني وجذبني نحوه، ومسح دموعي براحة يده!"

لا! لم تعد امرأة الخياط تحتمل هذه المرأة. رجل طويل عريض، يداه ورجلاه كبيرة، وتصر الأرض تحت وطئه، ووسيم، وله شارب أسود، يحتضن ظرف الدهن هذا، ويمسح دموعها براحة يديه. لم تصدق، لم تصدق، لكنها حاولت ألا يبدو عليها هذا، وقارنتها "بالعاهرة". أين شبيهة ظرف الدهن هذه من "العاهرة"!

"بعد ذلك؟"

"بعد ذلك، قال لي، لا تشغلي بالك أبداً يا سكرتي. هل تستطيعين أن تقدمي تضحية صغيرة؟ قلت له: مثل ماذا؟ مثل نقود أو أسورة أو شيء من هذا وأنا سأجعلها تسحب نفسها، وتذهب من هنا. وفوراً نزعت أسورتي، ونقودي المخبأة."

"أعطيتها للرجل؟"

"ليس للرجل، للمفتش. سيعطيها للعاهرة، وستذهب من هنا!"

ليس مهماً ما إن كان الرجل سيعطيها "للعاهرة" أم لا، ولكن الأهم هو قوله لظرف الدهن: "يا سكرتي". حباً بالله حقيقة.. هذا يعني أنه طويل عريض ووسيم، ولكن لا ذائقة له أبداً؟

بالطبع فإن امرأة الخياط لم تظهر هذا أبداً.

في تلك اللحظة سمعت زوجها قد أتى بالعربة، فهرعت إلى البيت.

كان زوجها قد غادرها مفكراً، وقبل هذا قال لها: "احذري أن يزل لسانك بأننا استضفنا الرجل في بيتنا!"

"وهل أنا مجنونة؟ هل يزل لساني؟"

بعد أن ذهب الرجل، جلست على حافة سريرها. حقيقة أقدمت على جنون بأن تخبر هذه الرواية لامرأة الخياط. تقسم لنفسها ألف مرة بأنها لن تزلّ بكلمة أمام امرأة الخياط، ولكنها لا تتوقف، فتهرع إليها. كانت امرأة الخياط عدوة بوجه صديقة، ثرثارة، لا تترك الحصى تبتل في فمها، وغيورة.

في تلك الأثناء كانت على شباك بيتها، تطل بوجهها الأسمر الذي سودته الغيرة على باب بيت صاحب الفندق. كانت فضولية جداً لمعرفة الرجل. سترى ما إن كان كما قالت ظرف الدهن وسيماً، ضخم البنية، قوياً ينتزع ما يمسكه؟

حين قابلت صاحب الفندق الذي أطل من النافذة فجأة، انسحبت إلى الداخل.

كان صاحب الفندق قد جاء حينئذ إلى النافذة المطلة على نافذة بيت الخياط من أجل أن يتفقد المحيط. فقابل امرأة الخياط، وفهم أنها تنظر إلى بيتهم. "أخشى أن تكون المرأة قد سمعت شخير الرجل فخرجت إلى النافذة؟"

جاءت خليلته إلى جانبه: "ما هذا؟ إلى من تنظر؟"

قال: "لا شيء" وانسحب من النافذة.

"آه منك، آه.. ألا أعرفك أنا؟"

"ماذا تعرفين عني؟"

"إنك تراقب قزمة الخياط، أليس كذلك؟"

"والله لا أراقبها، بالله لا أراقبها."

"اسكت، اسكت يا عديم الذوق. انظر إليّ: إذا لم تستأجر لي بيتاً بسرعة، وبسرعة كبيرة، وتبعدني عن زوجتك المقرفة، والساقطة التي تلاعب السقا، وتشتري لي الأساور والقرطين والمعطف التي وعدتني بها، والله لا أبقى هنا، وبالله، فهمت؟"

الأساور والقرطان والمعطف، وهذا وذاك ليس مهماً. المهم هي مشكلة السقا التي زلت بها المرأة الشابة أمام المفتش أيضاً. في الحقيقة إنه لا يحب زوجته، ولا يغير من السقا، ولا من أي شخص آخر، ولكن تلاعب زوجته الشرعية مع السقا، أو إمكانية تلاعبها أمام المحيط يجعل دمه يغلي.

قال: "دعي عنك هذا. الأساور والأقراط والمعطف سهلة. ولكن قضية السقا.."

غضبت المرأة الشابة: "أي.. أي، هل تعتقد أنه كذب؟ هل أفتري عليها يعني؟ والله وبالله صحيح. زوجتك، وقزمة امرأة الخياط المقابلة، وامرأة المحامي في الطرف الآخر.. إنهن من النوع الذي ينظر إلى الأرض، ويحرق القلب. يذهبن كل أسبوع إلى السينما. لماذا؟ لأن لكل واحدة منهن واحد، وهذا هو السبب!"

بدأت ترف عين صاحب الفندق.

في تلك اللحظة فقعت مثل مدفع كحة هزت البناء من أسسه، فصاح ناسيا زوجته. يجب أن يكون "الرجل" قد استيقظ. ركض. نظر إلى داخل الغرفة عبر الستارة الغربولية: قفز من السرير بسرواله الداخلي القصير، وقميصه الداخلي، وبطنه الضخم. رأى الظل الطويل الرفيع خلف الستارة الغربولية المطلة إلى الموزع. وبرغم معرفته أن هذا صاحب الفندق، أرعد بصوته: "من هناك؟"

ركض صاحب الفندق وكأنه غار في الأرض، وقال: "أنا يا حضرة السيد!"

فتح الباب ذي المزلاج من الداخل. قال "المتنفذ" ببطنه الضخم: "الساعة تقترب من الحادية عشرة ياه. لماذا لم توقظونني حتى هذا الوقت؟"

تمتم صاحب الفندق وهو يفرك بيديه أمام بطنه: "لم أجرؤ يا حضرة السيد!"

"لماذا؟"

"كنتم تنامون وأنتم تشخرون!"

"ها، نعم، أنا أشخر قليلاً، ولكنني لا أزعج أحداً. هذا يعني أن شخيري كان يسمع من الخارج؟"

ولأنه لن يستطيع قول: "وأي سمع، انقطعت مرارتي خوفاً من أن يُسمع من الخارج"، فقد قال: "قليلاً"

لم يسمع حتى. فكر بما جرى ليلا مرة أخرى. انشغل "بزوجته القذرة" يجب أن يرسل لها خمسمئة أو ألف.. أو أي مبلغ، وإلا فإنها ستقيم القيامة فوق رأسه عندما يعود إلى اسطنبول!

ارتدى بنطاله بسرعة. سأله صاحب الفندق متردداً: "هل تأمرون بالزبدة والمعقود بجانب الحليب؟"

أدار عينيه المحمر بياضهما نحوه، وقال غاضباً: "ماذا؟"

"أقول مع الحليب يا سيدي."

"ماذا هناك مع الحليب؟"

"هل تأمرون بالزبدة والمعقود؟"

"هل أنت مجنون ياه؟"

سحب الساعة من زناره، ودسها بعين صاحب الفندق، وقال: "ألا ترى؟ الساعة تقترب من الحادية عشرة! إنه الظهر! ماذا يعني الحليب في هذه الساعة؟ وماذا تعني الزبدة والمعقود؟"

ظط، ظط، ظط.. خرج، وتلفت يميناً، ثم يساراً، وهدر مرة أخرى: "ألا يوجد مكاناً يفك الواحد فيه وضوءه، ويغسل وجهه ويديه؟"

"يوجد يا سيدي، تفضل!"

ركض صاحب الفندق الذي يذكر بالخادم المطيع نحو الدرج، ونزل إلى الطابق السفلي بسرعة: "سما!"

كانت المرأة الشابة تتزين في غرفتها: "ماذا هناك؟"

"حضرة السيد نزل من أجل أن يغسل يديه ووجه، أخرجي منشفة جديدة!"

لم ترتبك سما مثل صاحب الفندق. ولِمَ سترتبك؟ الرفيع والثخين، الشاب والجذاب والمباهي، الغني والفقير.. السيد، وحضرة السيد، والباشا، والعالم والجاهل.. وليكن من يكون، أليسوا كلهم رجالاً؟ ليكونوا من يكونوا، ألن يضطروا للطأطأة أمام المرأة الجميلة الذكية؟ وها هو السيد المحترم الذي يصر الدرج تحت ثقله وهو نازل أما أعطاها عنواناً، ولو وجد فرصة، لقبل رجليها؟ ليخف صاحب الفندق، وليتوجس، ما علاقتها هي؟

قالت: "هناك في الصندوق، ادخل، وخذه!"

ذهب صاحب الفندق إلى الصندوق. تناول المنشفة البيضاء ذات الوبر الطويل، والمطرزة بالأزرق والأخضر والأصفر والأحمر، وركض.

كان "المتنفذ" منتصباً في الموزع ببطنه الضخم يقظاً: "أين هو؟ أين؟"

"هنا يا حضرة السيد، تفضل!"

ركض أمامه، وفتح باب التواليت.

"حسنٌ، فهمنا. هل ستدخل معي إلى بيت الخلاء؟"

"رحماك يا سيدي، أرجوك!"

"هات هذه المنشفة، وهيا، يا الله!"

عاد صاحب الفندق إلى غرفة خليلته مثل كلب مرفوس. لم تكن المرأة الشابة قد أنهت تزيينها. قالت ضاحكة: "ما هذا؟ هل طردت؟"

وصلت روح صاحب الفندق إلى أنفه: "مهما فعلنا فلا يعجبه يا أخي. ليس في وجوه هؤلاء الرجال الكبار أعين. هذا ليس مهما. لنر كيف سنخرجه من البيت؟"

راح، وجاء في الغرفة. وقف خلف خليلته بالضبط. كان ينظر إلى انعكاس صورة المرأة الشابة في المرآة وهي متزينة. كان لا يفهم.

قال: "لا يمكن الحديث أمام هذا عن المحافظ."

لفّت المرأة الشابة شفتيها المصبوغتين، وقالت: "لماذا؟"

"هكذا يا هذه. المدينة تتلاطم. كل من في المحافظة الكبيرة، ومن السابعة إلى السبعين لديهم فضول لمعرفة أين قضى السيد المفتش ليلته. إذا قلت لهذا اخرج من بيتي بهدوء. وإذا سألوك لا تقل لهم إنك أمضيت ليلتك في بيتي.. ألا يغضب؟"

قالت سما: "أقول له أنا إذا أردت."

"ألا يغضب منك؟"

"لعله لا يغضب. وإذا غضب، فأنا في النهاية امرأة. وهذا ليس دباً نازلاً من الجبل ياه!"

وعندما عادت لتنهمك بزينتها: "حسنٌ، حتى الدببة يتصرفون بلباقة مع النساء."

كان صاحب الفندق قد قرأ عن دببة عشقت نساءً. كان سيضحك حين فهم من صرير أرض الباب وأرضية الموزع أن "الرجل" قد خرج من التواليت فركض.

كان يجفف نفسه أمام التواليت.

نام حتى الحادية عشرة، ولكنه في الحقيقة شبع نوماً. كان كل جزء من جسمه يتدفق بالراحة والصحة. وقبل قليل سمع حديث الحليب والزبدة والمعقود. وأية شهية عنده.. لو يطعم جذعه ما قسمه الله لن يكون سيئاً، لكن المؤكد أن الظهر قد حل. حسنٌ، ولكنه إذا خرج إلى الزقاق فوراً، فماذا سيفعل؟

سأله: "قلت معقوداً قبل قليل، معقود ماذا؟"

"معقود المشمش يا حضرة السيد."

"ألا يوجد عسل؟"

"يحضر من أفضل الأنواع إن أمرتم."

"الحليب، كيف الحليب؟ دون خلط؟"

"إنه يُحلب من بقراتي يا سيدي."

نظر إلى ساعة المعصم برغم عدم لزوم النظر إليها: "ولكن الوقت اقترب من الظهر."

التفت صاحب الفندق بعينيه وقال مؤكداً: "أفضل من تخريب المعدة في مطاعم مدينتنا القذرة."

أصدر أمره: "حليب، زبدة، معقود المشمش، - مد يده إلى جيبه وأخرج عشر ليرات مجعلكة - "ونصف كيلو لحم دون دهن.. ولكنه سيقلى في المقلاة، وبالزبدة، مفهوم؟"

وقفز صاحب الفندق دون أن ينظر إلى القطعة من فئة العشر، وهو يقول: "أمرك يا سيدي!"

عندما كان "المتنفذ" يعيد الليرات العشر لجيبه تمتم: "ماذا سنفعل؟ لم يأخذ النقود."

عندما وقعت عيناه على سما واقفة عند بابها، انفعل مثل غلاية قهوة تفور على النار. قال بظرف غير متناهي وهو ينحني: "صباح الخير يا حضرة السيدة!"

قالت المرأة الشابة الملتهبة، والمحمرة الشفتين، وذات الثديين المشدودين على الصدر بشبق: "صباح الخيرات!" ثم غمزت بعينها بشبق كبير: "هل أمضيتم ليلتكم براحة؟"

قال: "كثيراً." واقترب منها خطوة، ثم أضاف: "وأنتِ؟"

"أنا.." وضحكت.

فهم "المتنفذ" بأن المرأة رأت حلماً. وهو أيضاً كان طوال الليل منهمكاً بالمرأة الشابة أصلاً: "نعم، وأنت؟"

"كيف سأقول، لا أعرف."

"كوني جريئة قليلاً يا روحي."

"أخجل."

"مني؟"

تلفتّ فيما حوله. فهمت المرأة الشابة، وتراجعت خطوة نحو غرفتها في غواية.

تقدم "المتنفذ" خطوة أخرى. وبينما كانت المرأة تتراجع خطوة، قالت: "احذر، ها!"

وقف الآخر. راقب محيطه مرة أخرى. وفي اللحظة التي كان سيدخل فيها، سُمع صوت سقوط كأس على الأرض وتحطمه.

كانت المرأة الشرعية تراقب من فرجة الباب وهي تحضر الإفطار، وقد أسقطت الكأس من يدها خصيصاً لكي تمنع التقاء الرجل بالمرأة.

بينما كان "المتنفذ" يبتعد من هناك، توجه إلى الأعلى نحو غرفته.

شكّت سما بكسر الكأس في الوقت المناسب، فذهبت إلى المطبخ غاضبة: "ماذا يوجد؟ ماذا يحدث؟"

قالت الزوجة الشرعية بحدة وجه يذكر بكلب البلدوغ: "ما علاقتك أنت؟"

"كسرته خصيصاً، أليس كذلك؟"

"هل أعقت شغلك؟"

"لا تستطيعين أن تعيقيه!"

"ها قد أعقته!"

"لم يكن لي أي شغل ليعوق."

"نعم، لم يكن."

"أنا لست مثلك يا ابنتي!"

"ماذا ؟"

"السقا.. تفهمين يا ؟ إذا حكيت أكثر، فسأفضح لعبة السينما. اسمعي، سأذهب من هنا. اقطعي صوتك!"

قالت سما وهي تضع صحن اللحم الهش المحمر بالزبدة أمام "حضرة السيد" قالت: "ارتبكت المدينة وعلى رأسها المحافظ ومدير الأمن!"

كان قد أنزل إلى معدته قبل قليل زبدية حليب، وخمس قطع خبز بالزبدة. تراجع قدرت البركان قليلاً، ونظر بعينيه اللتين مازالتا محمرتين: "حسنٌ، ما السبب؟"

"السبب أنتم."

"يعني الجماعة مشغول بالهم أين قضيت ليلتي؟"

قال صاحب الفندق بجرأة: "نعم يا حضرة السيد."

لو كانت هذه "النعم" قد قالتها سما وليس صاحب الفندق لما غضب الرجل. كأن صوابه قد طار: "ماذا تعني: نعم يا حضرة السيد؟ منذ متى تم تحديد حرية المواطن بالسياحة ضمن حدود الميثاق القومي في هذا البلد؟"

محقَ صاحب الفندق، وركز عينيه عليه وهو يتضاءل إلى أبعد الحدود في مكانه وكأنه هو الذي ارتكب هذه الغلطة، وينتظر منه أن يُجيب. أما صاحب الفندق فقد كان نادماً، وخفض عينيه، ولم ينظر.

تدخلت سما مرة أخرى بالحديث مع رائحة عطر شانوار الخفيفة: "يا عزيزي كيف يعرف هذا؟ أيقظوه من الصباح الباكر، وأخذوا المسكين!"

نظر إلى المرأة الشبيهة بالربيع الجالسة على يمينه: "إلى أين؟"

"استدعاه السيد المحافظ."

ترك السكين والشوكة التي بيده، وقال: "من؟"

"هذا يا عزيزي، رجلنا!"

التفت إلى صاحب الفندق: "استدعاك المحافظ؟"

"نعم يا سيدي."

"لماذا؟"

"لم يستطيعوا معرفة المكان الذي قضيتم فيه الليلة. ومن بين أصحاب الفنادق، محسوبكم أيضاً."

فجأة فهم كل شيء. ياه، هذا يعني أن الأمر صار على درجة كبيرة من الأهمية؟ خشي من هذا الأمر طوال هذه السنوات وتحاشاه. ماذا سيفعل الآن؟ ماذا يجب أن يفعل؟ استجمع نفسه، وقال: "حسن، حسنٌ!"

تناول الشوكة والسكين اللتين تركهما قبل قليل، وبدأ بقطع اللحم. حقيقة كانت مقلية بشكل رائع. كان يطلب هذا من "زوجته القذرة" ألف مرة ولا تعدها على هذا النحو. دع الزوجة والابناء فهم لا يسمعون. ولكن أمه..

خطرت بباله أمه القصيرة والضئيلة، ولكنها إذا غضبت، فتطلق أقذع العبارات. وتعود أصولها إلى القصور والسلاطين، وجدها الباشا، وأبوها الباشا الذي يقول لام فيأتي اللحم، ويقول ميم فيأتي الماء، ثم نقيق زوجته البشعة والنحيفة والمنزلقة عينيها إلى جذر أنفها... ولكن هذا لم يكن مهماً. هذا يعني أن ما خاف منه وقع أخيراً؟

ترك الشوكة والسكين، وبدأ بأكل قطع اللحم بيديه.

شردت المرأة الشابة وصاحب الفندق بالطريقة التي كان فيها هذا الرجل يأكل بشهية غير محدودة. حتى إن صاحب الفندق نسي نفسه في تلك اللحظة. هكذا إذاً، كان واضحاً من صمت الرجل أنه غضب بشكل رهيب وراح يفرغ حنقه بقطع اللحم التي أمامه. ماذا لو نهض الآن، وذهب، وصرح أين قضى ليلته؟

بعد أن أنزل الرجل نصف كيلو لحم في معدته، استند إلى خلفية كرسيه وقال: "هذا يعني أن لديهم فضول كبير لمعرفة أين قضيت ليلتي؟"

"نعم يا سيدي، ولكنني سأرجو منكم رجاء."

لعق أصابعه مرات، ثم قال: "مثل ماذا؟"

"قضيتم الليل هنا."

"نعم؟"

نظر الفندقي الخائف إلى خليلته. قالت المرأة التي فهمت الأمر: "لا تقولوا هذا!"

قال لصاحب الفندق بحدة: "لماذا؟"

قالت الخليلة مرة أخرى: "أخفى أنه خبأكم هنا."

"لماذا؟ لماذا أخفيتك يا سيد؟ كان فندقي، وكانت فرشي وأغطيتي قذرة، ولأن مواطناً نظيفاً لم يستطع إيجاد مكان نظيف في مدينتنا يا سيدي؟"

تجشأ، وغضب أكثر لأنه تجشأ: "لماذا لم تقل دعوت المواطن إلى بيتي، وأخفيت هذا؟"

"..............."

لأنك اعتدت على القيام بأعمال غير قانونية. ولأنك اعتدت على الإخفاء والعمل سراً، ها؟ لم يبق في الدم الذي يجري في عروقكم شهامة، ولا رجولة!"

نهض بصخب. واصطدمت قدمه بقائمة الطاولة حين نهض، فارتفعت قرقعة الصحون والكؤوس والفناجين. دخل إلى دورة المياه، وبعد أن غسل يديه وفمه بالصابون، جلب حقيبته وقبعته الأسطوانية من غرفته في الأعلى، وارتدى سترته. نزل إلى الأسفل وقال للمرأة الشابة: "يا سيدتي، أنا أشكرك كثيراً على اللطف الذي أبديته، والعذاب الذي تعذبته معي." ونظر إلى ساعة معصمه: "إنها تقترب من الثانية عشرة، ولكن لا ضرر، أنا أذهب الآن، وأحاسبهم!"

نزل الدرج وهو يصدر وقعه: ظط، ظط، ظط، وخلفه صاحب الفندق، وخلفهما سما. نادت سما من رأس الدرج: "مع السلامة!"

فهم حضرة السيد من هذه المناداة: "أعجبتني كثيراً، لا كلام على تباهيك. أنت رجل بكل معنى الكلمة. قريباً سآتي إلى اسطنبول، وأراك." أو أنه شعر بمتعة خاصة باستنتاجه هذا المعنى. وقف عند الدرجة السفلى، والتفت، ونظر إلى فخذي المرأة الرائعين الذين يظهران من تحت الثوب حتى أعماقهما، وخلع قبعته، وحيّا المرأة بتهذيب: "(ميرسي) كثير!"

وفهمت المرأة الشابة من هذا: "أعجبتني كثيراً. سأنتظرك بالعنوان الذي أعطيتك إياه بالتأكيد. أسرعي!".

عندما أغلق الباب، هرعت إلى النافذة المطلة على الشارع: كانا

ماشيان على الرصيف. صاحب الفندق متأخر بنصف خطوة على يساره. أما الآخر فقد كان على حافة طرف الرصيف، يطأ الأرض بقوة.

فجأة وقعت عينها على امرأة الخياط في نافذة الدار المقابلة. هذه أيضاً كانت تنظر إلى الرجل. شعرت بالضيق، وانسحبت من النافذة، وأغلقت مصراعها بحنق.

"ماذا يحدث من جديد؟" كان هذا صوتَ المرأة الشرعية الغاضب. تلفتت فلم تجدها، لم ترها. قالت: "ما مصدر الهم!"

"لبطنك!"

"لبطنك أنتِ!"

"يا جلد على عظم.."

"يا ظرف الدهن!"

"..............."

"..............."

بعد قليل انفصل الفندقي عن "حضرة السيد"، وتركه بحاله. وهذا ما كان يريده أصلاً. ولكنه كان منتبهاً، فالكناسون يكنسون الشوارع دون توقف كما مرّ صهريج ماء يرش بلاط الشارع. كان "المتنفذ" يرد على تحيات أصحاب الدكاكين "رد متنفذ".

طن في أذنه حديث على هذا النحو: "خير، لماذا يرشون الطرق برأيك؟"

"من يعلم. يمكن أن يكون واحد كبير سيأتي من أنقرة."

نظر إليهم بحدة، فقطعوا كلامهم فوراً، ورفعوا قبعاتهم: توقف "المتنفذ" لحظة: "هذا يعني أن هذه الطرق لا ترش إذا لم يأت واحد كبير من أنقرة، ها؟"

وبعد نظرة مداعبة، وبإسبال الجفنين، عبر.

كأن دم الذين بقوا خلفه قد تجمد. وبعد أن انعطف "المتنفذ" من الزاوية، وغاب عن الأنظار، قالت الجوقة: "ولاه، الأرنب أصابت العصا بالضبط، أليس كذلك؟"

هز واحد رأسه: "أصابت، أصابت."

"أعتقد أن هذا هو المفتش الذي يتكلمون عنه؟"

"حسنٌ، هذا هو!"

"..............."

"..............."

صهريج الماء رش الطرق، وعاد. عندما وصل إلى جوار "حضرة السيد" خفف سرعته، وقطع الصنبور الذي على اليمين لكي لا يبلله. كان قد ارتفع صخب عربة مصتق الأقرع على بلاط الطريق أصلاً. كان قادماً كأنه قد تأخر. وقف بجواره تماماً، وقفز إلى الأرض باحترام: "تفضل يا حضرة السيد!"

طار صوابه من الغضب: "مرة أخرى أنت؟ لا، لن أركب!"

انطلق في طريقه بحذائه الأصفر الضخم، وبزته البنية المخططة اللائقة به، وأكثر من هذا تمنحه هيبة مختلفة، وقبعته الأسطوانية، وحقيبته الجلدية الصفراء التي يحملها بيده خلف ظهره مصدراً وقعاً: ظط، ظط، ظط.. عابرو الطريق، وعلى الأكثر أصحاب الدكاكين الذي خرجوا إلى أمام دكاكينهم باتوا مثل كحول التقط ناراً، خلعوا قبعاتهم الكسكيت، وانحنوا حتى وصلوا إلى الأرض احتراماً.

كان واحداً من ملايين المواطنين، جاء إلى هذه المدينة مستفيداً من

حرية التجول التي يقرها الدستور لكل المواطنين. ومهما كان سبب مجيئه، فهو يستطيع أن يأتي، وينام في الفنادق، ويجد أن الفنادق التي ينام فيها، والمطاعم التي ملأ بطنه فيها قذرة، ومخالفة للقواعد الصحية. وعندما يجدها على هذا النحو، يسأل مثل أي مواطن حضاري يحب بلده ما إذا كانت اللجان الصحية التابعة للبلدية تمر على هذه الأمكنة أم لا. وإذا كان الذين يتوجسون من هذا يقومون بشيء من هذا القبيل، فهل هذا ذنبه؟

وقع قدمي الرجل وأبهته أسعدا أهل المدينة كثيراً، وألصقوا به فوراً صفة: "مفتش المفتشين، الرجل الكبير!"

بغير إرادته انزلق عقله إلى مدرسة متوسطة ذات قرميد أحمر في محافظة تذكر بسنوات سابقة، ما قبل عام ١٩٣٠ .

كان هذا في عام ١٩٢٧ أو ١٩٢٨ . كانت تسمى المدرسة المتوسطة في تلك الفترة "المكتب المتوسط" بكت أمه التي تحترق بعشق أبيه الذي يشبهه الخالق الناطق، وتوسلت إليه حتى تمكنت من إقناعه بأن يرسل ابنها الوحيد قدرت لدخول الامتحانات الحرة لكي يحصل على شهادة الدراسة المتوسطة على الأقل. كانت الامتحانات تصادف في أوائل شهر أيلول. ذهب بالقطار إلى محافظته التي تذكر بمحافظات وسط الأناضول قبل عام ١٩٣٠ بكثير، ونزل من المحطة إلى المدينة بحنطور. كان يرتدي طقماً كحلياً، وحول رقبته ياقة منشاة، وفي قدميه حذاء أصفر يصدر وقعاً مثل هذا: ظط، ظط.. وبيديه قفازين رماديين، ومعطف أبيض، وحقيبة جلدية كبيرة صفراء آيلة إليه من أبيه فيها كتب المرحلة المتوسطة.

نزل من العربة وسط السوق. وبدأ أصحاب المحلات بتقديم الاحترام تماما كالآن، من دون أن يعرفوا من يكون، وماذا يعمل. فهم في ذلك الوقت أن هذا الاحترام يبديه معارف جده لأمه الباشا، وانتقل إلى أبيه الباشا. لو كان الأمر على هذا النحو، لكان سكان محافظة وسط الأناضول هذه التي تطأها قدمه أول مرة يجب أن يعرفونه. هذا يعني أن هذا الاحترام له فقط، بسبب أبهته، وتأثيره.

كان يتقدم في الشارع الرئيس للمدينة متلقيا تحيات الناس ورأى كيف ينظرون إليه ويقفون باستعداد، ويتكلمون عنه. توقف ذات لحظة وسأل رجلا أين تقع المدرسة المتوسطة. لم يكتف الرجل بأن دله عليها بل قال له: "تفضل لآخذك إليها يا حضرة المفتش!"

لحق بالرجل إلى المدرسة المتوسطة. الا أن الرجل لم يكتف بهذه الخدمة بل تقدمه ليعرف إداريي المدرسة به قائلا أن مفتشاً قد جاء. أما هو فلم يكن يهتم بمقدار ذرة بهذا، بل راح يصعد الدرج بهندامه - نفس هندامه القديم الذي أخذه عن أبيه وجده. كان وقت امتحان، والطلاب الكبار والصغار يحملون كتبهم ودفاترهم يتجولون على الدرج وفي الممرات، إما ينتظرون دورهم بالامتحان، وإما يتجمعون حول زملائهم الذين خرجوا من الامتحان ليسألونهم عن اجاباتهم. لم يخطر ببال أحد بأن هذا الذي يمشي مصدراً وقعاً بجسمه الضخم، وشاربه الذي كان في ذلك الوقت يشبه شاربه حالياً، وياقته المنشاة مع ربطة العنق، ويعطي انطباعاً بأنه "غني" قد جاء لدخول امتحانات المدرسة المتوسطة حراً. وخاصة عندما انتشر بين الأولاد "جاء المفتش"، ألصقوا به صفة التفتيش فوراً.

"قاعة الامتحان هنا يا حضرة المفتش!"

"تفضل يا سيدي!"

انطلقوا أمامه، وأروه الغرفة الكبيرة قليلاً حيث يجري الامتحان. وكان المدير واقفاً عند الباب، كأنه أصدر أمراً عسكرياً: "انتبه!"

نهض موظفو الامتحان رجالاً ونساء بوقفة الاستعداد - كانوا يدعون في ذلك الوقت "المميزون"- وحيوا "السيد المفتش".

"تفضلوا، تابعوا!"

استمر الامتحان. ولم يكن ثمة عمل آخر يقوم به "السيد المفتش". تابع الامتحان فترة، ثم غادر مثلما جاء.

لو أنه فهم في ذلك الوقت بأن هندامه وقوامه يفيده أكثر من أعلى مراتب الدبلوماسية! لم يفهم، وحتى إذا فهم فإنه لم يفكر بجمع ثمارها.

تحت ضغط أمه أيضاً رغب بأن يكون موظفاً. هكذا إذاً، إنه حفيد باشاوات عن طريق أمه. ومع الحادي والثلاثين من آذار صار "الباشاوات" مصدر خجل، أما أبوه فقد جره قوام "الوزراء" و"صهر السلطان" وهندامهم وراء حسناء إلى اليونان، ثم "نسي". لو أنه بقي عند كونه منسياً لكان جيداً، ولكن زوجته التي تعشقه بجنون باعت "الملك والأرض والمصاغ" الآيلة إليها من أجدادها الباشاوات، وصرفتها على إلني، وليلى، وملاحات. كانت المرأة المسكينة شابة وتبذل جهدها لكي يدرس قدرت الباقي ذكرى وحيدة من "زوجها المرحوم"، وتربيه ليغدو لائقاً بأجداده الباشاوات. ولكن لم يبق بين يديها شيء كثير، ولم يكن بالأقرباء خير، والأسوأ من هذا كله أن "الولد" ترك الدراسة في الحلقة الأولى من المدرسة الإعدادية التي كانت تسمى "الرشدية"، وتسيب. وإذا

استمر الأمر على هذا النحو، فإن ما بقي باليد سوف يزول، وأكثر من هذا سيسقط، ويسرق ويحتال من أجل النقود.

لهذا كان عليهم أن ينتقلوا من ذلك الحي الاسطنبولي الذي فقد مكانته السابقة. وبعد ذلك، يجب أن تؤمن لقدرت أي وظيفة يتقاضى منها راتباً حتى لو كان قليلاً. ولأن "قانون الموظفين" لم يكن مطبقاً في تلك الفترة، فقد تدبر أحد أصدقاء الأب الأوفياء وظيفة كاتب نفوس في مدينة "ش". وإذا كان الابتعاد عن اسطنبول وعن أصدقائه الذين خارج اسطنبول صعباً، فإن قدرت لم يكسر بخاطر أمه.

بدأت القصة منذ دخوله البلدة. في تلك المرة أيضاً اعتقد الناس أنه "متنفذ، ملاك كبير، مفتش، رجل كبير"، وذاب عمله ككاتب نفوس، ذاب ببساطة، ولم يكن في نظر الناس كاتب نفوس بسيطا على أية حال، بل هو "السيد قدرت". إنه قدرت البركان! ورغم أنه موظف نفوس صغير، فإن "أصحاب المصالح" يصرون على المجيء إلى "السيد قدرت"، وعرض مشاكلهم عليه باحترام، ويدعوه إلى مطعم الناحية الذي يقدم المشروب من أجل عرض أتفه القضايا. وكان يذهب ببراءة شديدة، وهناك التقى بإدريس الشبيه بالجان - "معقب المعاملات إدريس" حسب لقب البلدة. في تلك الأثناء كان ثمة نقود تدفع من تحت الطاولة لتنقل "للسيد قدرت" من أجل تسيير الأعمال، وكان مسيّر المعاملات إدريس لا يفتح قصة النقود "للسيد" في أغلب الأحيان. الزيت والعسل والجبن والقشدة يأخذها إدريس إلى البيت مساء بعد الخروج من المطعم، ويترك "للسيد" نصفها تقريباً، ويعطي أمه الباقي.

حلّ يوم صار فيه "السيد قدرت" اسما رائجا جداً في البلدة. هذا

الأمـر لم يغب عن عين المدير. كـان يغـضب، ولكنه لم يسـتطع أن يقنع أحداً. كـان القـرويون على الأغـلب يقـولون "السـيـد قـدرت" ولا يذكـرون شخصاً آخر: "الحقيقة إنه ينقذ الرجل من حبل المشنقة، روحي فداؤه!"

"صحيح والله. إنه يساوي ثقله ذهباً!"

"هناك إدريس، معقب المعاملات إدريس"

"سـتقـول إنه لا يقـل عنه، ولكن أين مـعـقب المعـامـلات إدريس من السيد قدرت!"

"استغـفر ربك ولاه. إدريس لا يصل إلى مستوى الظفر الذي يقصه السيد قدرت، ويرميه."

"طبعاً يا عزيزي."

"هذا السيد قدرت، قف مكانك!"

"..............."

"..............."

يعرف السـيـد قدرت ما يعرفـه، ويعـمل ما يعمله، وحسب مـا يقـول القروي، فإنه عندما يتكلم يخرج من فمـه العسل. أليس الحصان أكبر من الحمار، والجمل أكبر من الحصان، والفيل أكبر من الجمل؟

لكن قـدرت البـركـان لا يدعي هذا، كمـا أنه لا يسـعى إليـه. عـندما يذهب إلى مطعم البلدة الوحيد الذي يقدم المشروبات ليشرب كأسين على حسـابه، يجد إدريس "وأصحـاب المصـالح" يشـغلون الطاولة التي اعـتـاد الجلوس عليهـا، وفور ولوجه المطعم ينهض من هناك وعلى رأسـهم صاحب المطعم والنادلون و"أصحاب المصالح" ويفسحون له صدر الطاولة.

مـاذا يمكنه أن يفـعل؟ أيقـول لهم: "لا، هذا لا يمكن. لا تقـدمـوا لي

هذه الضيافة. أنا لست لائقاً بكل هذه المجاملة. هناك مديرنا أكبر مني، وهناك القائم مقام، يعرفان كل شيء أفضل مني. قدموا هذه الضيافة لهما!" وإذا قال فمن سيستمع إليه؟ هل لديهم عمل في شعبة التجنيد؟ لو ذهبوا إلى أي معقب معاملات، فالأمر لا يحتاج أكثر من استدعاء من سطرين. وإذا ذهبوا إلى الشعبة، فإن عملهم سينجز فوراً، ولكنهم بدلا من ذلك ينتظرون "السيد قدرت" في المطعم مع جرار الزبدة، وظروف الجبن، وسلال الفواكه الطازجة حسب الموسم، وينهضون على أقدامهم باحترام شبه ديني، ويتحرقون لسماع كلمتي مجاملة منه. ثم يعرضون قضاياهم: "يا سيد قدرت.. لدينا الشغل الفلاني في شعبة التجنيد.. سنعمل ما تأمرون به حضرتكم؟ كيف سنعمل يا ترى؟"

لا يتغير موقف قدرت البركان تقريباً إذا كانت المعاملة في شعبة التجنيد أو السجل العقاري أو القائم مقامية أو المصرف أو دائرة الضرائب: كان ينظر بعينيه الواسعتين إلى نقطة قبالته مطولاً، ثم يتظاهر بأنه يقيّم الموضوع، ويخرج دفتراً صغيراً من جيب المنديل في السترة، ويكتب أشياءً ما، وأحياناً يسأل صاحب القضية عن اسمه وشهرته، ثم يعيد الدفتر إلى مكانه، ويلتفت إلى إدريس، ويقول: "مرّ عليّ غداً صباحاً، وخذ المسودة واعمل اللازم!"

والماكر ابن الماكر إدريس، الذي تدور عيناه الصغيرتان مثل الزئبق، وتلمعان كالبرق، لا يسيء للموقف بل يقول: "على رأسي يا سيدي!"

يأكلون الطعام بعد ذلك، ويشربون، ويسمعون الأغاني، ويصفقون، ويرقصون. كان الجميع يغضب من إدريس معقب المعاملات، ويبتسم فقط للسيد قدرت. كانوا ينظرون إلى عينيه، فإذا قال: "إيه، تأخر

الوقت كثيراً. لن يكون سيئاً إذا قمنا." ينتهي كل شي، وينطلق الجميع الى بيوتهم.

إذا لم يأت السيد قدرت مصادفة إلى المطعم فلا أحد يأخذ مكانه الشاغر أبداً. في ذلك اليوم جاء القائم مقام وأصدقاؤه وطلبوا الجلوس على تلك الطاولة، فاعتذر صاحب المطعم، وادعى بأنها محجوزة مسبقاً، وأجلس القائم مقام وأصدقائه على طاولة أخرى. جلسوا لكن القائم مقام نط وما حط عندما دخل قدرت بعد قليل بحركات ملك أو رئيس حكومة أو دولة، وجلس إلى الطاولة التي قيل إنها محجوزة. قرر بعد ذلك اليوم أن يتربص. وفي حادثة أخرى في أحد الأعياد القومية، نبت لذلك التربص ريشاً:

كان يحتفل بأحد أعياد تحرير المدينة، وكان هناك عرض رسمي. واتخذ موظفو الناحية أمكنتهم بالترتيب وعلى رأسهم القائم مقام وقائد الدرك. ولكي يحتفل قدرت البركان بهذا اليوم بحماس، ارتدى طاقمه الأسود، وانضم إلى الموظفين الصغار، ولكن وجوده بين الموظفين الصغار جعل زاويتهم أكثر هيبة من زاوية الموظفين الكبار.

كان فصيل المراسم ماراً. فتعلقت عين القائد الذي سيصدر أمره للقطعة بقدرت البركان، فكأن هذا الرجل المهاب سحره وجذبه. ولما وصل إلى قبالته أصدر أمره: "انتبـ....ـه... إلى اليمن در!"

وطار صواب القائم مقام عندما التفت فصيل المراسم إلى اليمين، وحيا قدرت البركان ومرّ، وسحب مدير النفوس الضعيف الضئيل جانباً، وأغمض عينيه، وأطلق لسانه: "أما قلت لك امنع هذا القواد من حضور المراسم؟ ما هذه السفالة؟ ما هذه اللامبالاة؟ لماذا شارك بالمراسم حطب الملقط هذا؟"

تأتأ مدير النفوس النحيف الضئيل: "كيف أمنعه يا حضرة السيد؟ كيف أستطيع أن أقول لأي مواطن لا يمكنك أن تحصل على نصيبك من هذا اليوم المقدس؟"

"لا تتصرف بغباء أمامي، وهل ستعطيني درساً بحريات المواطن؟"

"أستغفر الله يا سيدي. ما أردت أن أقوله لكم هو..."

"اخرس، اخرس.. لا تثرثر كثيراً!"

لقد غدا قدرت البرسكان مركز جذب لغيرة موظفي الناحية وحنقهم. كان ملك وسامة الرجال" حقيقة، فهو جذاب ومهاب، وكلامه بموضعه، وقد ذاع صيته في البيوت، وبين النساء، حتى إن القائم مقام قرّع زوجته أمام الضيوف لهذا السبب فقط. فمن أجل أن تمتدح المرأة وسامة قروي رأته في الشارع قالت: "مثل السيد قدرت بالضبط!"

سمع القائم مقام الذي يلعب الورق مع أصدقائه في إحدى الزوايا فطار صوابه من الغضب، ورمى أوراق اللعب، ونهض، وبدأ يصرخ بكل ما أوتي من قوة: "هل تفعلين هذا عناداً يا امرأة؟ من أجل أن تثيريني؟ ألا تعرفين قيمة هذا المحتال بنظري؟ لماذا، لماذا يذكر اسمه في هذا البيت؟ وعلى لسان زوجتي أيضاً؟"

لم تقتصر المرأة على الاعتذار، بل توسلت إليه. ولكن القائم مقام أصدر قراراً قطعياً: "لن يذكر بعد الآن اسم ذلك الثور في بيتي!"

- ١٣ -

كانت الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق عندما سقط نظر المحافظ الذي كان ينظر من نافذة غرفته في الطابق الأعلى لبناء المحافظة على قدرت البركان: حقيبته الصفراء بيديه، وطاقمه البني المخطط، والياقة المنشاة، وربطة العنق.. حسنٌ، هذا هو. هكذا وصفوه له، وهاهو قادم، إلى مبنى المحافظة.

ابتعد بسرعة عن النافذة، وضغط على زر الجرس، وقال لحاجبه الذي دخل: "ناد لي السيد مساعد المحافظ!" وعاد إلى النافذة من جديد. ظل ينظر إلى أسفل. واخ من أمه، يا له من رجل مهاب! حسنٌ، ولكن لماذا يأتي إلى المحافظة؟ أما كان سيجس نبض الشعب، ويجمع معلومات حول المدينة؟

رن الهاتف، ركض، ورفع السماعة: "ألو.. ها، هذا أنت؟ نعم؟ رأيته، إنه قادم. حسنٌ، حسن..."

أغلق الهاتف، وفي هذه الأثناء جاء مساعد المحافظ. وضع السماعة مكانها، وقال المحافظ بانفعال: "إنه قادم."

لم يسأل مساعد المحافظ: "من؟"، لأنه كان يعرف.

"هكذا إذاً يا سيدي؟"

"حسنٌ، ولكن لماذا يأتي؟ ماذا يمكن أن يكون قصده؟ أما كانوا يقولون إنه سيجس نبض الشعب، ويجمع معلومات عن محافظتنا؟"

كاد مساعد المحافظ أن يقطع نفس المحافظ، فقال: "يا سيدي، يمكن أن يكون قد وصل إلى أذنه نتيجة عدم اتخاذنا الإجراءات الضرورية أننا نبحث عنه!"

دخل هذا الإحتمال لى عقل المحافظ. هذا ممكن.

قال: "انظر إلي يا سبعي.. أنت قابل هذا الرجل، ولأستمع إليكما من مكان ما. أنت تعرف أنني منفعل كثيراً."

"وإذا طلب مقابلتكم؟"

"قل له إنني خرجت قبل نصف ساعة. قل له إنني مرضت قليلاً إذا أردت!"

كان مساعد المحافظ رجلاً شاباً ذا بنية قوية. لم يعط هذه القضية أهمية كبيرة. فماذا ينتج إذا ما كان هذا مفتشاً وأرسل من أنقرة بوجه خاص؟ يمكن أن يكون المحافظ على حق بخوفه، وتردده، ولكن ما علاقتي أنا؟

ذهب إلى غرفته، وجلس وراء طاولته بتوتر واضح. ضغط على الجرس، وقال للحاجب: "تعب السيد المحافظ قليلاً، وغادر قبل نصف ساعة."

ولم ينتظر الحاجب أن ينه كلامه، فقال منفعلاً: "إنه في غرفته يا سيدي!"

غضب مساعد المحافظ: "لا تتحامق! اسمع ما أقوله!"

"على رأسي يا سيدي؟"

"ذهب قبل نصف ساعة، إذا سأل أحد أرسله إلي!"

"أمركم يا سيدي!"

كان المحافظ يستمع لهذا كله من نافذة بين غرفته وغرفة مساعده، وهو مسرور من تصرف مساعده الحيوية، وينتظر بانفعال. لنر لماذا جاء الرجل؟ وما هدفه؟ فالأمر تعقد، إذا كان قد جاء من أجل التحقيق حول المدينة، وبدءاً من محافظها إلى أصغر موظفيها، وهو يخفي نفسه، فلماذا يأتي إلى المحافظة ملوحاً بيديه؟

صعد قدرت البركان درج أول طابق مصدراً وقع أقدامه، ومن خلفه الحوذي مصتق الأقرع. توقف ونظر إلى ما حوله بعينيه الواسعتين. فجأة رأى مصتق الأقرع. لم يغضب. هو أيضاً كان منفعلاً، ولكنه لم يظهر هذا. تمتم: "أين غرفة المحافظ؟"

ركض مصتق متردداً: "بماذا تأمرون يا حضرة السيد؟"

"أقول أين غرفة المحافظ؟"

"في الأعلى يا سيدي، في الطابق الأعلى!"

تحرر من ضيقه بعد هذا، وهرع خلفه صاعدا السلم الى الطابق الثاني، مزهوا مباهياً، ويفكر بالزحام الفضولي خلفه. ارتفع على نفسه، فهو يمشي وراء رجل كاد أن يقلب المدينة رأساً على عقب من البارحة مساءً حتى الآن، كأنه مساعده، ذاهبين معا إلى المحافظ.

ترى هل يعطي "الرجل" النقود التي أخذها من صاحب المطعم، وفرط بها لزوجته، ولم يستطع استرجاع سوى مائتين منها؟

ظل "الرجل" يصعد مصدراً: ظط، ظط، ظط..

توقف في الطابق الثاني عند صالة واسعة. كان البناء قديم جداً،

زجاجه محطم في أمكنة عدة، ونوافذه متسخة، وأخشاب أرضيته متقشرة متحررة من مساميرها، وطلاء جدرانها متساقط.

لم يصعد إلى الطابق الثالث فوراً. بيديه اللتين خلف ظهره حمل حقيبته الصفراء، وعلى رأسه قبعته الاسطوانية، وبأداء مفتش بالضبط عبر حتى نهاية الممر، والبوابون ينهضون عن الكراسي التي أمام أبواب الغرف، يحيونه دون أن يعرفوا السبب، ودون إرادة. وعلى هذا النحو بدا الحوذي مصتق الأقرع كأنه مساعده حقيقة، يرافق رئيس الدولة في جولة تفتيشية، ينبه الغافلين عن هذا بإشارات العين والحاجب واليدين.

قال: "يمكن أن تشبه كل شيء عدا دار الحكومة!"

"صحيح جداً يا حضرة السيد..."

"انظر، رموا هناك ورقة مجعلكة. خذها من هناك!"

لم يدع أحد الآذنين فرصة لمصتق الأقرع، فهرع إلى هناك، والتقطها. مجموعة من الناس الفضوليين كانوا ينتظرون عند أول الدرج متراصين. لنر كيف سيصعد إلى المحافظ؟ قال واحد منهم: "هل يهتم رجل كهذا بمحافظ أو غير محافظ؟"

"لنر إذا كان رجلاً على قد هيبته؟"

"وهل مصتق الأقرع معاونه، أم ماذا؟"

"الله يأخذ روح مصتق الأقرع. مصلحي!"

"إنه ينظر بطرف عينه إلينا ها!"

"بعد ذهاب الرجل اسمع كذبه غير المحدود."

"..............."

"..............."

"............."

كان "المتنفذ" قد بدأ صعود درج الطابق الثالث. مع كل درجة كان انفعاله يزيد، فإما أن يكون فوق الجميع، أو جيفة ينهشها الجميع. كان هناك شخص يدعى السيد نيازي استمع لمغامرته بمتعة في مقهى بورصة، حتى إنه من الممكن القول إنها كانت دليلاً لحياته. كان يستخدم بطاقة "مجاهد سابق في الجهاد القومي، ومحافظ سابق" يجلس في صدر المقهى، ويجتمع من حوله الأصدقاء والإحباء، وعلى الأكثر "أصحاب المصالح" في أنقرة. وكانوا يستمعون لقصصه التي يضاف لكل واحد منها ألفا، وكأنها حقيقة. في واحدة منها ذهب إلى أنقرة ليتابع أمراً لأحدهم في إحدى الوزارات، فلم يدخل مسحوقاً ومنكمشاً، بل بأداء شخص شهير "مجاهد في الجهاد القومي" حقيقة، شارك بحرب تحرير الوطن، وعمل مع أولئك الكبار الذين لعبوا دوراً رئيسياً في عمليه الإعداد لحرب التحرير، وخوضها، والانتصار فيها، وله حق مئة بالمئة في هذا الوطن. كان يصدر بقدميه وقعاً، ويحمل بيده عكازاً غليظاً، وعلى رأسه قبعة اسطوانية، وبوجه عابس، وحاجبين مقطبين كأنه عاش تلك الأيام، أيام "الجهاد القومي" وما زال يعيشها فذهب إلى غرفة الوزير تحت أنظار مندهشة ومعجبة. نيازي لم يبال بالآذن، وغير الآذن، ولا حتى للوزير وغير الوزير، فتح الباب كأنه يركله، ودخل الغرفة. كان الوزير شاباً إلى حد ما، جلس خلف طاولته، وانشغل بالأوراق التي أمامه، ولم ينتبه كثيراً للداخل، حتى إنه لم يرفع رأسه عن الأوراق. أما السيد نيازي فسيذهل الوزير. قال: "أوه، أوه.. أوه، أوه.. الحمد والشكر لك يا رب.. هذا يعني أن الدم الذي ضحينا به، والجهد الذي بذلناه لم يذهب هباء "

وجلس على الأريكة المجاورة لطاولة الوزير أمام دهشته. خلع قبعته، ووضعها على الكرسي المجاور له، ووضع عكازه بين رجليه، وأخرج علبة سجائره الضخمة التي تليق "بمجاهد قومي" سابق، وبدأ بلف سيجارة غليظة.

"كيف حالك يا ابني السيد الوزير، هل أنت على ما يرام؟"

مازال الوزير مندهشاً: "شكراً لكم يا سيدي. ولكن."

قاطع كلام الوزير فوراً: "اطلب لي قهوة لأنفض التعب عني أولاً."

ضغط الوزير على الزر، وقال للآذن: "انظر يا ابني... كيف يشرب حضرة السيد القهوة؟"

قال: "سادة! ولكن اطلب من الذي سيغلي القهوة أن يغسل الغلاية والفنجان جيداً قبل أن يغليها. وذرة السكر تعمل لي وجع رأس!"

وبينما كان يخرج الآذن باحترام، كان السيد نيازي يلصق ورقة السيجارة التي لفها بعناية، ثم تنهد بعمق، وقال: "كان المرحوم أيضاً يشرب القهوة هكذا!" وقبل أن يدع للوزير فرصة التفكير "بالمرحوم"، استمر بالحديث رشاً: "كنا في جبهة أفيون على ما أعتقد.. في تلك الفترة التي أخفنا فيها اليونانيين بأسطوانات المدافئ يا عزيزي.." ونظر إلى الوزير باهتمام: "حضرتك لا تتذكر هذا. الله يتغمده بواسع رحمته سألني، يا نيازي، العدو أقوى منا، ماذا سنفعل؟ أجبته دون تردد: سنخدعهم يا حضرة الباشا. كيف؟ ببساطة شديدة: سنستخدم اسطوانات المدافئ كأنها سبطانات مدافع، وبهذا نعطي للعدو البعيد فكرة عن قوة مدافعنا!"

وبعد أن مسح عينيه بقفا يده كأنه مسح دمعتان، تنهد مرة أخرى بعمق وقال: "وهذا ما فعلناه. جمعنا أسطوانات المدافئ التي في أفيون

كلها، ودهناها، وبعد ذلك.. معلوم. كان سيدنا داهية حقيقية، لا أحد يسموا على دهائه. هذا ما كنت أشرحه، لقد شاب شعري في ذلك اليوم. اهتم بي يومئذ وطلب أن يحذروا أن أسقى القهوة بالسكر؟ كنت أشرب القهوة حتى ذلك اليوم بقليل من السكر. أمر حضرته بأن تكون سادة، وصارت سادة!"

نقر طاولة الوزير بثنية أصبعه الوسطى نقراً خفيفاً، وقال: "له الحمد، منذ ذلك اليوم.."

تأتي القهوة، ويشربها ببطء. يهم الوزير بالسؤال من هو، وماذا يعمل. فيبدأ هو برواية قصص أخرى عن "المرحوم"، وأمور لم يسمع بها أحد حتى ذلك اليوم. يقلب الموضوع، ويذهب من هنا، ويأتي من هناك، وينتزع العمل الذي له في الوزارة.

عندما خطرت بباله مغامرة السيد نيازي هذه ابتسم ابتسامة خفيفة. مرر السيد نيازي الأمر على وزير قد الدنيا، ألا يستطيع هو تمرير الأمر على محافظ محافظة من الدرجة الثانية؟

الطابق الثالث: موقفه اللامبالي، ونظرته الفوقية هي ذاتها. اليدان في الخلف تحملان الحقيبة الصفراء الضخمة، والقبعة الاسطوانية على الرأس، وفي القدمين حذاء يصدر وقعاً، والتباهي في الشاربين والحاجبين الأسودين الغليظين...

عندما رأى المحافظ ومساعد المحافظ "الرجل" من فرجتي بابيهما، شعرا كأنهما التقطا ناراً. لو كان قد جاء مباشرة لما خشيا حتى لو كان رئيس الدولة. لكن لا يعرف ما هو شغل الرجل. عليهما أن يبدأا حديثاً لا يجعل الكباب يحترق ولا سيخه!

كأن بواب المحافظ قد أصابته الصاعقة عندما رأى الرجل هبّ واقفاً باحترام، وعقد يديه على بطنه.

هدر بصوته الذي يتناسب مع قوامه وبنيته: "أين المحافظ؟"

تذكر تنبيه مساعد المحافظ: "ذهب حضرته قبل نصف ساعة يا سيدي."

"مساعد المحافظ غير موجود أيضاً؟"

"إنه في غرفته يا سيدي."

كانت غرفتا المحافظ ومساعد المحافظ متجاورتين أصلاً. وتوضح الوضع لوحتان مطليتان بالأسود، ومكتوب عليها بالأصفر: "المحافظ" "مساعد المحافظ".

قال للبواب: "خبّره بأنني أريد أن ألتقي به!"

ركض البواب بقدميه المتعثرة إحداهما بالأخرى وأخبره. ضغط مساعد المحافظ على نفسه ليتظاهر بالحدة والسلطوية، وقال: "من؟ ماذا يريد؟"

"لا أعرف يا سيدي."

"ليأت لكي نرى!"

فتح البواب الباب باحترام، وابتعد جانباً.

دخل "المتنفذ" بمهابة، وبرغم محاولات مساعد المحافظ بالتظاهر بالحدة والسلطوية، بدا كأنه اصطدم بهيبة الرجل مثل من أكل صفعة على وجهه، ونهض عن كرسيه: "تفضل يا سيدي، تفضل!"

المحافظ أيضاً رأى الأمر نفسه من فرجة ستارة النافذة بين الغرفتين. كان قلبه يخفق بسرعة، وحبس أنفاسه، وأصغى لحديثهما.

"ما جئت لأعرفه من السيد المحافظ هو: متى تم تقييد حرية السياحة ضمن الوطن الذي يكفله الدستور؟ ترى هل صدر قانون لا علم لنا به؟"

كح مساعد المحافظ كحة خفيفة: "لم أفهم؟"

"بصراحة، أنا ألاحق بعناد منذ مساء البارحة حتى الآن، وأمرتم بمعرفة أين قضيت الليل. ها أنا جئت. تفضل!"

الرجل كما فكر به المحافظ بالضبط. نعم، ماذا لو قال: "أنا مواطن خرجت في سياحة داخل الوطن" واشتكى من ملاحقته وإزعاجه؟ وها هو يشتكي!

"من يلاحقكم يا سيدي، من يريد معرفة هذا؟"

"هذا ما يجب أن تعرفوه أنتم يا حضرة السيد. هل تريدون هويتي؟ ها هي، تفضلوا!"

بداية فتح حافظة "الهوية" التي وضعها سابقاً في جيب سترته الداخلي أمام مساعد المحافظ. وبنظرة سريعة قرأ مساعد المحافظ هذا: مواليد اسطنبول، اسم الأب بهيج، والأم فردوس، مواليد ١٣٢٤ . ولكن لا يمكن فهم شيء من هذا.

"تفضلوا يا حضرة السيد، لا تغضبوا، أرجوكم. لم تقيد حريات المواطن بالسياحة داخل الوطن، ولا يوجد بهذا الصدد قانون جديد أو قديم، ولم يصدر شيء بهذا الخصوص." ثم سأله بتحبب: "كيف تأمرون القهوة؟"

قال قدرت البركان: "(ميرسي)، يجب أن ألحق موعد قطار أنقرة!"

إذا كانت كلمة "أنقرة" لم تخف المحافظ الواقف جانباً، ولا مساعد المحافظ، إلا أنها قوت الشائعات التي تقول بأن "الرجل" مفتش.

غامر مساعد المحافظ، وسأل أخيراً السؤال الذي يتوق المحافظ المختبئ جانباً معرفة جوابه: "ما هو عملكم يا حضرة السيد؟"

ضحك ضحكة كأنه يريد أن يقول: "أنا أفهم قصدك. تريد أن تقبض علي، وتربطني ربطة لا فكاك منها. !"، ثم قال: "افرض أنني متعهد!" ثم سأل كأنه فهم ما يدور ببال مساعد المحافظ: "هل تريد رؤية وثائقي التي تتعلق بالأمر؟"

"ما هذا يا سيدي، أرجوك؟"

"لعلني معلمّ!"

"ممكن."

"أو أنني تاجر مواشي!"

"أرجوك!"

"إذا كنت تاجراً مثل بقية التجار، فما قولك؟"

"وهذا ممكن أيضاً يا حضرة السيد!"

استراح على الأريكة المريحة المجاورة لمقعد مساعد المحافظ. صار ممسكاً بزمام الأمر، فقال: "أنا أشرب قهوة سكر وسط."

كان البواب واقفاً عند الباب أصلاً، والباب مفتوح، ومصتق الأقرع يمد رأسه ويرجعه، وكلما مده زاد تباهياً. وكان يحكي للفضوليين المجتمعين أمام الباب عن وضع مساعد المحافظ: "ها، انظروا، دهش مساعد المحافظ!"

"..............."

"ها، ها هو قد جلس."

"..............."

"ولاه، أي كلام يحكيه الرجل، أحسنت!"

"..............."

أما "المتنفذ" فقد كان منتبهاً لكل هذا، ويتراخى على أريكته، ويضغط بأهمية متزايدة: "لأكن متعهداً أو معلماً أو تاجراً. أنا بكلمة واحدة مواطن، أليس كذلك؟"

دخل مساعد المحافظ تحت تأثيره جيداً: "لا شك في هذا يا حضرة السيد!"

"جئت إلى مدينتكم، وأكلت في مطاعمها، وأردت النوم في فنادقها. ولكن.."

مساعد المحافظ في هذه الجهة، والمحافظ في الجهة الثانية لبيبان فهما من الإشارة ما سيأتي بعد هذا الكلام. المطاعم والفنادق مخالفة للقواعد الصحية، وهي بكلمة واحدة: قذرة. والرجل بوصفه مواطناً معه حق إلى أبعد الحدود.

قال باختصار: "مع سيادتكم الحق."

ولكن الرجل الذي أمامه ليس من النوع الذي سيلين. أكمل وكأنه مفتش، وهو على رأس عمله أيضاً: "ولكنني لم أستطع النوم. بعد ذلك... انتبهوا، انتبهوا كثيراً، ينام مجموعة من الناس في الفنادق دون أي قيد، أو بيان تعريف قانوني، وما شاء الله الجهات المكلفة بهذه الأمور تنام!"

"في أي فندق صادفتم هذا يا حضرة السيد؟"

"معرفة هذا هي مهمتكم، وليست مهمتي!"

حزن مساعد المحافظ.

"لا يمكن خدمة البلد بالجلوس هنا، وتوقيع الأوراق يا حضرة

السيد!" وأطلق لسانه: "هذا الوطن، هذا الوطن العزيز ليس لكم، ولا لي، ولا للآخرين. ولكنه لنا جميعاً، هل فهمتني؟"

قال: "فهمت يا حضرة السيد."

"غير أن مطاعم هذا الوطن، وفنادقه، وما تبيعه دكاكينه مخالفة للقواعد الصحية، فإن الأماكن التي تقدم فيها تلك المواد أيضاً تقوم على المفهوم نفسه."

وكما يجري معه في أغلب الأحيان، نسي مرة أخرى نهاية الحديث: "نعم؟"

"مع سيادتكم الحق."

"بعد ذلك.. رأيت خمارة صغيرة بسيطة. دع قذارتها، وسوء مشروباتها جانباً، فقد ألصق صاحبها صور كبار رجالات حزبنا على جدران مقرفة، وبصورة بائسة، وكأن هؤلاء الأشخاص المعتبرين قد حكموا بالتعذيب المعنوي. أسألكم: هل تليق هذه المعاملة برجال حزب في السلطة كبار جداً جداً جداً؟" وصفعة أخرى: "أخشى أنكم تؤيدون المعارضة؟"

طار صواب المحافظ، ومساعد المحافظ. كاد المحافظ يصرخ من الجهة الأخرى: "حاشا وكلا!"

قال مساعد المحافظ: "أرجوكم، هل هذا ممكن؟"

"في هذه الحال، أصدروا أمركم، لتنزل تلك الصور من هناك، ولتدهن الجدران، ولتؤطر صور كبارنا الأفاضل بالإطارات التي تليق بهم."

"ولتعلق على الجدران، ها أنا أكتب الملاحظة..."

جاءت قهوته. مدّ أصابع يده اليمنى المشعرة الغليظة نحو دفتر

الملاحظات الذي يكتب عليه مساعد المحافظ وقال: "اكتب، ثانياً. صادفت بعض الأبنيـــة الآيلة إلى الهـــدم. وعلى الرغم من وجـــودها في المناطق السياحية أو وجوب تصنيفها في هذه المناطق، فإنها لم تستملك، وتهدم بعد، أو لم يؤمر أصحابها بإعادة بناءها بما يتناسب مع مكانة الحي."

"أنا أدون الملاحظة يا حضرة السيد..."

تناول قهوته، ورشف رشفة. وانتظر مساعد المحافظ يكمل كتابته.

"نعم يا سيدي.."

"ثم هذا البناء، بناء دار الحكومة الذي توجد فيه المحافظة.."

كان مساعد المحافظ يعرف قدم البناء، وعدم كفايته.

"مع سيادتكم الحق يا سيدي، ولكن هذا الأمر.. معلوم لسيادتكم..."

"نعم؟"

"قضية الميزانية؟"

"نعم، هذا صحيح، ولكن هل كتبتم؟ هل كتبتم إلى أنقرة، وأبلغتم بالوضع؟" ثم تأجج: "هذه الأمة هي استمرار لماض عظيم يمكنها أن تبني سفنها من ذهب، وترفع أشرعتها من الأطلس يا صديقي!"

نط مساعد المحافظ عن الكرسي، ثم حط: "مع سيادتكم الحق يا سيدي."

"لهذا اكتب، واكتبوا، واصرخوا.. ماذا يعني؟ اليوم تركيا كلها ورشة عظيمة. ألستم منتبهون إلى أن الأمور كلها لا يمكن أن تُحل بالجلوس خلف الطاولات، والتواقيع، وأنكم تعيشون مرحلة حيوية؟ انفضوا أنفسكم قليلاً. وتذكروا أنكم أحفادٌ يجب أن تكونوا لائقين بأجدادكم الذين وجدوا في أنفسهم القوة لبناء السفن من الذهب، ورفع الأشرعة من الأطلس."

كان مصتق الأقرع يطير من الفرح والتباهي عن الباب: "عاش، عاش.. تكون أمي زوجتي إذا لم تكن هذه الكلمات عظيمة!"

"هذا يعني أنه مفتش المفتشين؟"

قال: "أكبر. أكون عديم الشرف إذا لم يكن أكبر!" ثم بدأ يمتدح نفسه: "نزل من القطار يا سيدي، نظرت، وإذا به يتجه نحو سيارة الأجرة، قطعت طريقه فوراً، وقلت له: تفضل يا سيدي! نظر. إنه رجل ذكي طبعاً، فهم فوراً، وجاء، وركب في عربتنا. يبلغ الرجل مئة وعشرة أو مئة وعشرون كيلو بالتأكيد!"

قال رجل ضخم: "أنا تسعون كيلو. هو لا يقل عن مئة وعشرين!"

صوت مساعد المحافظ من الداخل: "مصتق!"

استجمع نفسه مصتق: "نعم يا سيدي؟"

"متى ينطلق القطار السريع إلى أنقرة؟"

"في الواحدة."

بعد أن هز "المتنفذ" قهوته وارتشفها نهض. نظر إلى ساعة يده: "بقي عشرون دقيقة. اسمحوا لي، وكما قلت لكم، أنتم أناس تحملون إرث ماض عظيم. لا تنسوا هذا. الأجداد ينظرون إلينا، ويراقبوننا والتاريخ يفتح أعينه علينا!"

"مع سيادتكم الحق يا سيدي.."

بعد أن ودعه إلى الباب، عاد إلى طاولته، وأرخى نفسه على كرسيه. كان يتصبب عرقاً من الضيق. لم يكن حتى راغباً بالتفكير طويلاً من يكون هذا الرجل، وما عمله. ليكن من يكون، وليكن عمله ما يكون.

صوت المحافظ: "تعال إلى هنا قليلاً!"

نهض، وذهب من دون رغبة، وحتى بغضب.

- ١٤ -

لم تجد سما ضرورة للإقامة أكثر من أسبوع في البيت الذي استأجره صاحب الفندق في الطرف الآخر من المدينة، فرتبت حقيبتها ذات ليلة، وركبت القطار السريع، وانطلقت على طريق اسطنبول.

ولأن المرأة الجميلة الشابة التي نزلت في محطة حيدر باشا للقطارات ليست غريبة عن اسطنبول، نزلت في فندق في "تبة باشي"، ودون أن تضيّع مزيداً من الوقت، هرعت إلى العنوان الذي أعطاها إياه "السيد المفتش".

العنوان المعطى لها هو مكتب بسيط وصغير في الطابق الثالث من بناء مكاتب في "تشاغل أوغلو".

قرعت الباب، وانتظرت. بعد قليل نادى صوت من الداخل: "تفضل!"

دخلت. صفع وجهها دخان سجائر كثيف متكاسل رمادي اللون، فجعلها تتراجع قليلا. جلس وراء الطاولة الخشبية التي في الصدر رجل عيناه الصغيرتان متقاربتان، ولكن نظراته تبديه كالجان أو الذئب. وعلى الكرسي المجاور له امرأة أشبه بالرجل، في نحو من أربعين عاماً، وتحاول التظاهر بأقل من عمرها، تنظر نظرة حولاء من تحت نظارة ذات إطار أسود غليظ.

وعلى الطرف الآخر من الطاولة يجلس رجل ضخم اليدين والرجلين، وكبير الأذنين، أشيب الشعر، وعريض الكتفين، وكأنه يتمدد على الكرسي. كان متراخياً إلى حد أن دخول امرأة غريبة إلى المكتب لم تحركه ولا حتى تجعله يلم نفسه على الأقل.وبجوار الباب، وهنا وهناك، كان ثمة من يقف، ومن يجلس، صاحب نظرات ثعلب، ومن يربط ربطات عنق.

وقع تحت نظر سما كدس جرائد على الطاولة الخشبية العريضة، ومن حبرها الرطب اللامع يبدو بوضوح أنها مطبوعة حديثاً. إحداهما: "صوت الكسبة"، والثانية: "أخبار العمل والعمال". ولأن هذه أو تلك لا تهم سما، لم تتوقف عندهما.

نظرت لمن حولها مندهشة، وقالت: "أبحث عن السيد إدريس!"

قال الرجل الجالس خلف الطاولة الخشبية العريضة، والصغير العينين، والجني النظرة: "أنا. هل تأمرين بشيء؟"

"السيد المفتش، قال لي بأنني يمكن أن أجده هنا.."

كأن جواً من السخرية أو الهزل قد خيم لحظة على الجو المشبع بدخان السجائر. الرجل الضخم اليدين والقدمين الجالس على الكرسي كأنه متمدد ابتسم وهو يحك رقبته من الخلف، غمز الذي بجواره، وهمس آخر لصديقه شيئاً ما. أدركوا "المشهد". كانوا يضحكون من تحت شواربهم، ويحاولون إخفاء هذا عن المرأة، ولكنهم لا يستطيعون إخفاءه. المرأة الجالسة الى جانب السيد إدريس وتشبه الرجال، والمتصابية، ابتسمت عن طريق امرأة في داخلها تبلغ الخامسة والأربعين من عمرها، وعندما ابتسمت هي، غدت بشعة إلى أبعد الحدود.

قال "إدريس كاتب العرائض:" لم يعد السيد المفتش من التفتيش بعد."

"متى سيعود؟"

لم تحتمل المرأة البشعة: "هل هو ضروري جداً؟"

رمقت المرأة الشابة المرأة البشعة الشبيهة برجل مسن بنظرة وتوترت: "ما علاقتك أنت؟"

"هل يمكن أن أسأل السؤال نفسه لك؟"

"كيف؟"

"من أين تعرفين السيد المفتش؟ ولماذا تبحثين عنه؟ وما علاقتك به؟"

قلبت سما شفتها للمرأة، والتفتت إلى السيد إدريس: "متى سيأتي يا ترى؟"

ضحك صاحب اليدين والقدمين الضخمتين بشكل فظ: "عندما ينتهي التفتيش!"

في تلك اللحظة بالضبط، فتح الباب بقوة، ودخل شاب في العشرين من عمره تقريباً مثل القنبلة، وقال: "يا والدتي هيا نحن ذاهبون!"

كان طاقمه من قماش "السيد المفتش" البني المخطط، ويحمل على ياقة سترته اليسرى شعار الحقوق. عندما وقعت عينه على سما، انتبه بكل جوارحه، واحمر حتى شحمتي أذنيه.

المرأة الشابة أيضاً كانت تنظر إليه وهي مستغربة. إنه موديل آخر مطابق "للسيد المفتش"، وهو وسيم في الآن ذاته، وغير هذا، فإن شاربه

الأسود الفاحم مطابق تماماً لشارب "السيد المفتش". وعندما دخل والقى بجملته،خشت أن يكون ابن السيد المفتش، والمرأة البشعة زوجة "السيد المفتش"؟

كأن القبيحة تريد أن تشرح هذا للمرأة السافلة التي تركت سؤالها دون إجابة، فقالت: "السيد الوالد في عداد المفقودين مرة أخرى يا طونتش. الكل يبحث عنه!"

فهمت المرأة الشابة: "أعتقد أن حضرتك زوجته؟"

"إذا لم تظهر من تدعي أنها هي التي تمتلكه.."

"في هذه الحال أنا آسفة يا حضرة السيدة. قال لي إنه أعزب.."

تدخل ذو القدمين واليدين الضخمة بالحديث قائلاً: "آه أيها السيد المفتش، آه!"

قال آخر: "احذري من أن يكون قد عرض عليك الزواج؟"

انزعجت المرأة من الحديث الهازئ الذي بات سائداً واندهشت. استمعت فترة: "أليس رجلاً، لِمَ لا يعرضه؟"

"لا، صديقي سيئ!"

"وبعد أن قطعت أذنه صار أكثر سوءاً!"

"..............."

"..............."

قالت سما للمرأة البشعة وهي تكاد تبكي من الغضب: "هل تسمحين دقيقة يا حضرة السيدة؟"

بينما كانت المرأة البشعة تنهض عن الكرسي بفضول، قال الطالب الجامعي الشاب: "يبدو أن ختيارنا خرب القضية دون أن يدري مرة أخرى."

قال ذو اليدين والقدمين الضخمتين: "هذه مهارات أبيك يا ابني!"

قال واحد جلد على عظم في الزاوية: "يا جماعة، طال الأمر كثيراً هذه المرة، ليأت إذا كان سيأتي."

تململ واحد آخر على كرسيه له بنية جابي: "لو ننظر بأمورنا!"

قال ذو اليدين والقدمين الضخمتين للشاب الجامعي: "اخرج، واسمع ما تقوله المرأة لأمك!"

هم الشاب الجامعي بالخروج، ولكنه تراجع: "لا تهتم.."

"لماذا؟"

"العجوز لا تحب أن يعرف أحد سرها."

حقيقة كانت سما تعطي المرأة البشعة، أي زوجة قدرت البركان المنحدرة من نسب الباشاوات السر الذي يخرجها عن طورها من الغضب: تعرفا ببعض في بيت صاحب الفندق في إحدى المحافظات الأناضولية. ومن المعيب قول هذا، ولكن إذا وقع الإنسان بحادث أو راح ضحية قدر، فإن ما يقع على رأسه لا يقع حتى على رأس فروج مطبوخ. في الحقيقة أن المرأة أيضاً جاءت إلى الحياة من أحد بيوت الأحياء المنعزلة لاسطنبول المطلي بلون قرميدي، وذهبت إلى المدارس، ثم جنون الشباب، وخربت نفسها لذات شعر أشقر وعينين زرقاوين. لعل كل هذا ليس مهماً. كان يظهر الكثير ممن تغويهم، ويمشون أمامها، ومدعين أنهم سيدلونها على الطريق. كان الأقرباء في البداية، وبعدهم الشباب المتسكعين المنفقين المال على متعهم من الجيران. صوتها كان جميلاً إلى حد ما، واختارت أن تغني بدلا من أن تسقط في بيوت الدعارة، وشاركت بجولة قامت بها إحدى الفرق إلى الأناضول. وفي هذه الأثناء تعرفت على الفندقي. وهذا

قال إنه عازب، مثل ما قال "السيد المفتش" بالضبط، وأخذها إلى بيته. وعرفت فيما بعد أنه متزوج، ولكن الأمر كان قد وقع، وكانت ضرّة على زوجته التي ربت أولاداً صاروا بطوله. مضت أشهر، وكل يوم هات وخذ.. وفي هذه الأثناء جاء السيد المفتش ضيفاً على بيتهم، وتدخل بالأمر عندما اطلع عليه. وتكلم مع زوجة صاحب الفندق الشرعية كلاماً، ومع الفندقي كلاماً آخر، ومعها كلاماً يختلف عنهما... يجب ألا تغضب حضرة السيدة، ولكن زوجها على حد ما...

أحبت البشعة المرأة الشابة، وخطر ببالها "أختها بالآخرة" جارتها "خيرية الداية". منذ فترة وهي تقول لنجد واحدة شابة، جميلة، ومتناسقة القوام، وها هي تأتي بأقدامها ! قالت: "لماذا سأغضب يا حلوتي. ألا أعرف طباع الخنزير الذي أرعاه؟"

"طويل، وعريض، ووسيم، ولكن.."

"لا تنظري إلى طوله وعرضه، ووسامته.."

وهمست كأنها تعطيها سراً: "أنا أكثر منه رجولة!"

ونظرت نظرة إلى عيني المرأة الشابة، فشعرت المرأة الشابة للحظة أنها تقابل نظرة رجل مسعور.

"سلمته في تلك الليلة أساوري وأقراطي. وأخذ من زوجة صاحب الفندق أساور وأقراط، ولا أدري كم ليرة من أجل أن يعطيني إياها بحسب كلامه. ولا شيء. غاب. لهذا، طالما أنك زوجته.."

"لا تقلقي أبداً يا حلوتي. أنا أحل كل شي، كما تسحب الشعرة من العجين."

ذهبت إلى باب المكتب الموارب، ونادت: "يا إدريس أفندي!"

"نعم؟"

"ممكن أن تأتي دقيقة؟"

جاء إدريس صاحب العينين البارقتين كعيون الجان وهو يرتب ربطة عنقه. لم يكن هناك أي كلفة بينه وبين المرأة البشعة. وطبعاً لا يعرف قدرت البركان هذا.

قال إدريس: "أمر!"

"احذر من إخبار قدرت بأن السيدة سما جاءت إلى المكتب، وسألت عنه!"

قال إدريس بفضول: "لماذا؟"

"أنا أرى أن رجلنا صاحب الطول والعرض الفارغ سيلعب ملعوباً ما!"

"مثل ماذا؟"

"الآن دعك من السؤال. أشرح لك فيما بعد. هل سمعت؟ لا تخبره أن السيدة سما جاءت وسألت عنه. وقل هذا لأصدقائه، يجب ألا تزل ألسنتهم أمامه. مفهوم؟"

قال إدريس: "على رأسي."

نادت بعد ذلك لابنها: "طونتش!"

انطلق الشاب الجامعي من المكتب: "ماذا!"

ضحكت سما. ما أحلاه من شاب.

قالت أمه: "هيا، نحن ذاهبون."

بعد أن قالت للذين في الداخل: "مع السلامة!"، قالت للمرأة الشابة الواقفة مترددة: "هيا يا حلوتي، امشي!"

دُهشت سما: "وأنا أيضاً؟ إلى أين؟"

"سنذهب إلى بيتنا!"

"آآآ..."

"لماذا؟"

تقابلت نظراتها بنظرات طونتش، فاحمرت مجدداً. خفضت عينيها إلى الأسفل، وقالت: "حسنٌ، ولكن أغراضي."

"في أي فندق؟"

"في تبة باشي، نسيت اسمه."

"لا ضرر. نركب سيارة أجرة، ونذهب إلى الفندق، ونأخذ أغراضك، وبعدها إلى بيتنا فوراً. لأنني احتاجك كثيراً. يبدو لي أن الخنزير مفتشنا سينام على ذهبك!"

سحبت المرأة الشابة من يدها، وسار الثلاثة في ظلمة الدرج.

أسند إدريس مرفقيه إلى الطاولة، ووضع وجهه بين راحتي يديه، ونظر إلى الذاهبين من الخلف وهو يفكر "بالسيد المفتش": كيف ما كان، فإنه سيعود مهما تجول وابتعد. مثل فراء الثعلب لابد له في النهاية أن يأتي إلى دكان الفراء. سيأتي، ومن يعلم ماذا سيمزق في خياله!

تنهد.

الرجل ذو اليدين والقدمين الضخمتين يطوي جريدة "أخبار العمل والعمال" ببطء، ويضعها على طرف الطاولة العريضة. وصديق آخر يلصقها. وآخر ينظر إلى دفتر المشتركين، ويكتب العنوان على اللاصق.

نظر الضخم اليدين والقدمين إلى إدريس الذي تنهد: "ما هذا؟ لماذا تتنهد؟"

"خطر ببالي السيد المفتش المسكين..."

"لماذا؟"

"لا أعرف لماذا، ولكن شهوار لابد أن تحيك له ملعوباً تلبسه له!"

قال الرجل البالغ حوالي الخامسة والأربعين من عمره، وعيناه زرقاوان مائلتان إلى الخضرة، ويكتب على اللاصق العناوين: "مثل ماذا؟"

"لا أعرف مثل ماذا. ولكن الوضع لا يشي بالخير أبداً بالنسبة للسيد المفتش. لابد أن المرأة حضرت خطة سريعة، لأنها قالت إذا عرج قدرت إلى هنا فلا تخبروه أن المرأة جاءت إلى هنا!"

ضحك الرجل الضخم اليدين والقدمين لا مبالياً: "ما الذي لا يفهم في هذا الأمر؟ غارت على زوجها من المرأة الشابة. ستهربها إلى بيت الداية."

اقتنع الذين هناك بهذا، فقال أحدهم: "حقاً يا!"

"ما فكرنا بهذا أبداً، صحيح.."

قال الضخم اليدين والقدمين: "ولكن المرأة جميلة ها!"

"إذا لم تتيس شهوار..."

"أليس كذلك ياه؟"

قال الرجل الضخم اليدين والقدمين الضخمة: "أنا لم أقل هذا بالقصد نفسه."

إدريس: "ماذا؟"

"يلزم هذا المكتب امرأة، أليس كذلك؟"

"في التفتيش؟"

"طبعاً!"

حين خطر "التفتيش" ببال إدريس، تذكر قدرت البركان الذي يتجول في الأناضول منذ فترة طويلة، ويقوم بعمليات "التحصيل" طبعاً، وسبب عدم إرساله النقود حتى الآن.

"أجرة المكتب، وأجرة بيتي، ودين البقال.. بشرفي احترت من أين سأذهب إلى البيت مرة أخرى!"

قال ذو اليدين والقدمين الضخمة: "وماذا عني؟"

كان الآخرون بالوضع نفسه تقريباً.

"وصفة أمي الطبية في جيبي منذ أسبوع!"

"زوجتي بنت الأعمى ستولد، وأقول لها انتظري قليلاً. ليعد الأخ قدرت من التفتيش والتحصيل!"

تنهد إدريس مرة أخرى: "لم يُرسل إلى بيته أيضاً. انظروا، شهوار مثل الوحش.."

"والصبيان؟ ماذا عن الصبيان؟"

"والبنت؟"

"ولكن يا أخي، بشرفي إن حياة قدرت ليست حياة. المرأة القبيحة من جهة، والصبيان والبنت من جهة أخرى. يجب أن يقع بيده مليون عسى ولعل..."

قال الرجل الضخم اليدين والرجلين: "لو وقع بيده مليون فلن ينفع فزوجته تلعب البوكر، وبقية ألعاب الورق، والسحاق؟ دعك من هذا!"

"صحيح."

"رجل هذا القد قده، وضعته براحة يدها!"

"هو أيضاً يستحق هذا. لماذا ذهب ليأخذ سليلة باشاوات لفظتها بحور سبعة؟ ليحتمل القواد!"

" ارتكبتم خطيئة بحق الرجل. أنا كنت مطلعاً على زواجه. أمه المسكينة، أمه تلك تعرفونها ياه؟"

"هي السبب؟"

"أنا أعرف هذا، وكنت مطلعاً عليه كما قلت! هي وحدها السبب. ماذا؟ قالت إنها صاحبة حسب ونسب وأصل. لم يظهر من يطلبها في تلك المدينة الأناضولية الكبيرة، ووقع قدرت المسكين بها!"

قال الرجل الضخم اليدين والقدمين: "لو لم يتزوجها يا سيدي، لو لم يتزوجها!"

"ممكن يا هذا؟ أمه. وأنتم تعرفون كم هو متعلق بأمه!"

"وكم تساوي من النقود شهوارهذه. وهل تسمع لأم أو غير أم؟"

"وهذا صحيح أيضاً"

"الكلام بيننا، عندما تأتي إلى هنا، أخاف أنا أيضاً."

"بشرفي وأنا أيضاً."

"وماذا عني؟"

"بعرضي تنقطع مرارتي من الخوف."

....

قال طونتش عند موقف تشاغل أوغلو: "لنركب سيارة خدمة يا أمي."

نظرت شهوار من تحت النظارة الغليظة الإطار إلى ابنها نظرة كادت أن تبتلعه: "تكسي!"

وقفت سيارة أجرة سوداء ضخمة أمامهم.

"نعم؟"

"ستوصلنا إلى تبة باشي. سنأخذ حقائبنا من الفندق. ومن هناك..."

ذكرت اسم حي كبير يأتي بالدرجة الثانية بعد أحياء اسطنبول الشهيرة جداً والقديمة مثل ماتشكا، وشيشلي، ونيشان طاش.

اعتقد السائق أن المرأة العجوز ستساومه.

"قال لنأخذكم يا سيدة"

انتظر أن تقول: "كم تريد؟" ولكن العجوز لم تسأله. فتحت الباب الخلفي، وقالت للمرأة الشابة المغناج الجميلة: "تفضلي يا حلوتي!"

وبينما كانت المرأة الشابة تركب السيارة، كان الشاب الجامعي ينظر إليها دون أن يلفت نظر أمه. انحنت عندما دخلت إلى السيارة. ارتفع ثوبها، وبرز البياض من ركبتيها إلى فوق للحظة. تحرق الشاب الجامعي حسرة على عدم إمكانيته افتراسها. توترت أطرافه كلها، وبدأ الدم يدور في عروقه بسرعة الرصاص.

ركبت أمه السيارة أيضاً وقالت لابنها: "اركب أنت من الأمام!"

عندما كان يركب الى جانب السائق كان يحترق من الداخل. أم، أو غير أم، امرأة بقرة إلى أبعد الحدود هذه!

انطلقت السيارة.

كانت المرأة الشابة تنظر إلى الشاب الجامعي بطرف عينها من يسار المرأة البشعة. "بطرف عينها" لأنها فهمت بأن أمه السحاقية، ستغير عليها من ابنها.

"هذا يعني أن أساورك، وأقراطك، وما أخذه من زوجة صاحب الفندق معه؟"

"نعم."

"حسنٌ. جيد جداً أنك صادفتني."

قبضت على ابنها وقد استدار داخل السيارة إلى الخلف نحو اليسار، متطلعا إلى المرأة الشابة كأنه سيأكلها، فطار صوابها: "التفت إلى أمامك!"

غضب الرجل الشاب كثيراً: "إيه.. وأنت أيضاً.."

غضبت المرأة: "تقول إيه؟.. وأنت أيضاً؟"

"كفى يا هذه.."

التفت إلى الأمام غاضباً، ولم ينظر إلى الخلف حتى تبة باشي. كانت أمه تفقد صوابها أمام النساء الشابات، أو الفتيات. هل كان أمامها أبوه؟ تصرخ أمامه، وتجعله يكنس الأرض، ويجلي المواعين، ويهرع بصفيحة الزبالة إلى الزبال، ولكن طونتش لم يكن أباه قدرت البركان!

وقفوا أمام الفندق في تبة باشي. نزلت سما من السيارة بسرعة، وصعدت درج الفندق راكضة، واختفت وراء الباب.

التفت طونتش إلى أمه في السيارة: "أراك مرة أخرى فقدت صوابك أمام المرأة؟"

امتقعت المرأة العجوز من خلف النظارة: "نظرت إلى بنت الناس وكأنك ستأكلها. أليس هذا معيباً؟"

"وماذا عن التباهي عليّ أمام المرأة؟"

"انته من هذا الآن، وفي البيت نتكلم فيه!"
ضحك السائق: "عشت يا شاب!"
جاءت سما بحقائبها فوضعها السائق في صندوق السيارة وتحركوا. تقضي حركة السير بأن تسير السيارة إلى غلاطة سراي، ومن هناك ستعبر إلى طرلا باشي، ثم من أمام آينلي تشتشمة إلى تبة باشي، وشيشهانة، وأونقباني..
وقفت السيارة أمام أحد الأبنية الضخمة المصفوفة على طرف الشارع.
قالت شهوار: "أنت اذهب إلى البيت يا طونتش."
سأل طونتش غاضباً: "إلى أين أنت تذهبين؟"
"سأمر على خالتك السيدة الداية قليلاً.."
"الخالة السيدة الداية، الخالة السيدة الداية.."
لحظة تحرك السيارة، خرج الأخ الأكبر من البناء الذي يسكنون فيه: "واخ يا طونتش، أين العجوز؟"
كان طونتش يتشاجر مع الهواء أصلاً: "اتركني يا هذا."
"لماذا؟"
"الخالة السيدة الداية، الخالة السيدة الداية.."
"أليس هناك أخبار من أبي؟"
"لا يوجد.. لا يوجد، ولكنني أغضب كثيراً من هذه العجوز!"
كان الأخ الأكبر أيضاً نموذجاً آخر أضخم من طونتش بقليل، وكل منهما مخط أبوه مخطاً. وهذا أيضاً يرتدي طاقماً بنياً مخططاً بالأبيض. اشترى قدرت البركان قماش هذه الأطقم كلها بالتقسيط

بكفالة صديق له، وفصل الثلاثة وخيطها عند خياط بائع القماش نفسه مقابل أقساط معينة كل شهر، وحتى الآن لم يدفع أي قسط.

شقيق طونتش الأكبر بسنتين (يالم) اهتم بقول أخيه: "لا يوجد.. لا يوجد، ولكنني أغضب كثيراً من هذه العجوز!"، وسأل: "لماذا؟"

"كنا في المكتب. جاءت امرأة ما رأيت مثلها. والله مارلين مونرو لا شيء بجانبها!"

"إنك تبالغ؟"

"يبعث لي البلاء إذا فعلت!"

"من أين أتت؟"

"السيد الوالد طبقها خلال التفتيش، هذا ما يبدو. سألت العم إدريس عن أبي. انظر إلى معاكسة القدر. العجوز صارت مثل الخراء طبعاً.. أنا كنت في الخارج عندما أتت، الله.. صعقت!"

"بعد ذلك؟"

"بعد ذلك، خرجنا، وركبنا سيارة أجرة. أعجبت كثيراً بالمرأة. ستذوب لو رأيتها. أجلستني في الأمام. عندها لعبة خبيثة.. تؤنبنا، وتصرخ بنا عندما تكون هناك امرأة شابة أو فتاة. هكذا صارت مرة أخرى. اجلس في المقدمة. التفت إلى قدامك.."

"هل أخذت المرأة إلى الخالة الداية؟"

"أخذتها إلى هناك.."

وقعت تحت نظره أخته المغناج قادمة من الرصيف المقابل، فقال: "انظر، انظر إلى أليف!"

نظر يالم، فضحك: "أي فتاة حيوانة هذه يا!"

"بشرفي وراءها ثمانية شباب!"

"لا تبال. هذا يعني أن المرأة.."

"أخذتها إلى الخالة الداية."

"هدفها تهريبها منا.."

"الشرف!"

شتم يالم الشرف.

"أنا ذاهب إلى آقسراي.."

"هل جدتك في البيت؟"

"في البيت."

"هل يوجد ما يؤكل؟ جعت كثيراً..."

عبر يالم إلى الرصيف المقابل بخمس أو ست خطوات دون أن يجيب. عبر بطريق متعرج بين سيارات الأجرة والخدمة، والحافلات، والحافلات الكهربائية بحركات سريعة. تقابل مع أخته، وقال لها: "اذهبي إلى البيت!"

عندما رأى الشبان يالم، انزعجوا، وتراجعوا.

قالت أليف: "ما علاقتك أنت؟"

"إذا صفعتك بالكف؟"

"لم أفهم."

سار يالم نحوها كأنه سيصفعها. أطلقت ألف صرخة لفتت أنظار من حولها، وتمسكت بالشباب، واختبأت خلفهم. ضحك الشبان مقهقهين بما يشبه الصراخ.

قال واحد منهم: "عاشت أليف!"

قوام أليف شبيه بقوام أخويها الكبيرين، ولكنها فتاة جميلة جداً. ومازالت في الصف الأخير من المدرسة المتوسطة في إحدى ثانويات البنات في اسطنبول. إذا رسبت هذا العام أيضاً فستفصل من المدرسة، ولكن هذا لا يهمها.

بدأت ثرثرة الشبان مرة أخرى: "أليف، هش أليف!"

"ما هذا التباهي يا ؟"

"بشرفي إنها لا تبالي. لو كنت أنا.."

"ماذا كان سيحصل؟"

توقفت أليف فجأة. وبعد أن قيمت زحام السيارات العابر أمامها بعينيها، وعبرت إلى الرصيف الذي يقع عليه بناؤهم بحركات تذكر بحركات أخيها الكبير. لم يبق بينها وبين واقية طين سيارة خدمة إلا قيد شعرة. ضغط السائق على الزمور بقوة. وصرخت السيارة مثل حيوان وحشي.

أسندت أليف إبهامها على أنفها، وفتحت أصابعها بحركة ساخرة، ثم وقفت بجانب أخيها الأكبر منها، ناسية السيارة والسائق.

لم يسأل الأخ الأكبر منها مباشرة عن "أولئك الشبان". وحتى لم يخطر بباله هذا. كانوا شبان الحي، ولديهم أخوات أيضاً. وطونتش ويالم يعلقان على أخواتهم ويمازحانهن.

"أكل، هل يوجد أكل؟"

هزت أليف كتفها: "هل يوجد خبر من أبي؟"

"لا يوجد، ولكن العجوز..." وشرح لأخته ما شرحه لأخيه الأكبر.

قالت أليف: "هذا يعني أنها جميلة جداً! عشتما.. وطبعاً سيلعق الوالد الهواء!"

غمز طونتش وقال: "إذا تم الحصول على فرصة من السيدة الوالدة."

فهمت أليف الأمر خطأ، فقالت: "تفوه، قليل تربية.. أنا ذاهبة إلى الخالة الداية."

كان طونتش جائعاً حقيقة. لماذا لا يرسل هذا المسن نقوداً يا ترى؟

ولج البناء. أشعل ضوء الدرج الآلي. أضيئ الدرج المظلم بالصفرة.

لو أرسل نقوداً، كان سيذهب إلى (سوق الزهر) ويشرب قدحين. أي بقرة هذه الأم! لابد أن أباه قد أطبق على المرأة الشابة. وهل وقع عليها أمر حماية شرف المرأة؟

فجأة فُتح باب الطابق الأول، ومسح سيل الضوء المنبعث منه ضوء الدرج الأصفر الخفيف. الخالة دورانة مجعدة البشرة، تبلغ الستين من عمرها، ولكن كحلها وأحمر شفاهها وزينتها على ما يرام. تغنجت مثل امرأة شابة، وقالت: "طونتش باشا.. كيف أخبارك؟"

بدت المرأة كأنها ستأكله، دعته سراً عن أخيه الأكبر لتقدم له الحلويات والأطعمة التي تعدها، وسألته عما إذا كان معه نقود أم لا. حسنا سيجعلها جيدة لولا "أنها استهلكت عمرها"، وهي بعمر جدته.

"جيدة يا خالة دورانة.."

"ما هي أخبار السيد الوالد؟"

"والله هذه المرة طال التفتيش قليلاً.."

"هل أنت جائع؟"

"أشكرك!.."

صعد إلى الطابق الثاني وهو يجر نظرات المرأة العجوز المتصابية المعجبة، ثم إلى الطابق الثالث، وإلى طابقهم. ضغط على الجرس طويلاً.

كانت جدته قد جاءت من خياطة الأكياس عند بائع الملح في طهطة قلعة قبل نصف ساعة، وهي في غرفتها لشدة تعبها، واستندت إلى قائمة المقعد الطويل، وغطت قليلاً بالنوم. استيقظت على رنة الجرس الثالثة أو الرابعة، ونهضت بتثاقل وفتحت الباب. طونتش مثل البارود مرة أخرى: "ما هذا يا عجوز؟ هل صُب رصاص في أذنك مرة أخرى؟"

لم يصغ حتى للجواب الذي ستجيبه جدته وهو يتجه بسرعة نحو المطبخ. أما الجدة فلم تكن تستطيع أن تترك حفيدها الوسط الذي تحبه كثيراً دون جواب مهما كلف الأمر. هذا ما تعلمته في قصر جدها الباشا، وفيما بعد من أبيها الباشا، وهذا ما اعتادت عليه: "بعد أن عدت من الشغل، كبوت عند قائمة المقعد الطويل قليلاً.."

بحث طونتش في الثلاجة، ولكنه لم يجد شيئاً يأكله. فخرج غاضباً: "ألا يوجد شيئ يؤكل يا ناس؟"

دهشت جدته مرة أخرى، فانسلت إلى المطبخ، تلفتت يميناً ويساراً. فتحت الثلاجة وأغلقتها. ثار حفيدها عليها مرة أخرى، وقال غاضباً: "لماذا تتجولين في المطبخ مثل بطة تائهة؟"

اندهشت العجوز تماماً: "أبحث لك عن طعام يا صغيري.."

"بحثنا ولا يوجد. نقود، هل معك نقود؟"

كانت الجدة تعيش من النقود التي تحصل عليها من بائع الملح. كانت تعمل من الثمانية إلى الرابعة مساء، أو الخامسة، وأحياناً إلى السادسة أو السابعة إذا وجد شغل وهي تخيط أكياس الملح، أو تلصق فتحات لفات الملح مقابل يومية تبلغ ست ليرات. وعلى الأغلب تصرف ثلاثاً منها، وتخبئ ثلاثاً. لأن الكنة "التي لفظتها سبعة بحور" تأخذ

منها خمسين ليرة أجرة الغرفة الصغيرة التي تسكن فيها، وكان قدرت "الله يجعل التراب بين يديه ذهباً" يعطي أمه الخمسين ليرة سراً عن زوجته. ولأنها تعرف عادة كنتها بتقليب الأغراض في الغرفة بحثاً عن نقود، فقد كانت تخبئها في مكان بعيد، وتعطيها أحياناً لأحفادها.

إثر قول حفيدها المتوسط: "نقود، هل معك نقود؟" ذهبت إلى غرفتها، وجلبت عشر ليرات من أربعين ليرة كانت تخبئها تحت المقعد المطاول وأعطتها له: "خذ يا صغيري."

"كم هذه؟"

"عشر ليرات."

"لو كان هناك عشر أخرى..."

"ماذا ستفعل؟ هل ستشتري كتاباً؟"

"لا يا هذه، لا تجعليني أشتم الآن الكتب والدفاتر!" ثم صرخ بوجهها: "عرق، سأشرب عرقاً!"

ارتعد وجه الجدة المجعد، وارتعشت عيناها الزرقاوتان، ثم تمتمت قائلة: "الله لا يرينا، يا رب..." لو كان سيشتري كتاباً، وليس عرقاً، لأعطته الأربعين ليرة التي تخبئها كلها. ولكن العرق؟ كان جانبها المؤمن يرى أن الذي يعطي ثمن العرق يرتكب الحرام بقدر ما يرتكبه الشارب.

نزل طونتش درج البناء مسرعاً وهو يطلق بصفيره لحن إحدى أغاني (أزنافور)، وجدته تقرأ عليه من الخلف ثلاث مرات "قل هو الله أحد"، ومرة "الحمد لله رب العالمين"، وتنفخها عليه، ثم أغلقت الباب بهدوء. كانت تقرأ وتنفخ حتى على كنتها. وهل كان يُذكر، مجرد ذكر، طلب تناول الطعام في قصر جدها الباشا الكبير وأبيها الباشا.. والسيدة

جدتها وأمها.. والعمات والخالات والأخوال والأعمام، وأبناء الأعمام والأخوال وبناتهم.. عندما كانوا يرتدون الألبسة التي تضج بالألوان في ذلك القصر الكبير، ويخرجون في النزهات؟ لقد ظهر هم تناول الطعام هذا حديثاً. قديماً إذا جاء فقير، فلا يُمهل ليقرع الباب، إذ يهرع الخدم ويعطونه أوعية مليئة بالطعام.

ذهبت إلى غرفتها. فصلت عشر ليرات أخرى من النقود المخبأة. بما أنها أعطت للمتوسط، فإن من حق الكبير أن يأخذ أيضاً. هؤلاء أحفاد. حتى إنها يجب أن تأخذ منها عشر ليرات أخرى وتعطيها للفتاة سراً عن أمها. لو كان معها كثيراً لأعطت الفتاة أكثر. هذه ستكون بضاعة الغرباء. غداً عندما تذهب فهل يقع نصيبها على شخص جيد أم سيئ، هذا لا يعرفه أحد.

تنهدت بعمق شديد.

كيف كانت ستعرف بأن نسل الباشا سيغدو على هذا الحال في هذه المرحلة؟ بيد هذا ما حصل. كان ابنها قدرت يأتي اليه اللحم قبل أن يذكر اللام، والماء قبل أن يذكر الميم! وهل يمكن أن يكون صغيرها المسكين ابن أبيه، وحفيد جده لعبة بيد زوجته التي لا تمتلك خمسة قروش، ويهرع بصفيحة الزبالة ليعطيها للزبالين؟ يجب أن يرفعوا رؤوسهم من قبورهم، ويروا ما حلّ بصغيرهم!

حلّ حزن في قلبها وسط لون الشمس الغاربة الشاحب. أرخت نفسها هناك بجوار المقعد المطاول حيث غفت قبل قليل، وأسندت رأسها على طرف المقعد. أغمضت عينيها. كانت تقترب من الستين، يدور رأسها عندما تنهض على قدميها، وتتجول في البيت فيبدو كأن البناء الضخم يدور خلف عينيها المغمضتين.

- ١٥ -

وصل القطار الى محطة أنقرة وتوقف. كان قدرت بين أول الركاب النازلين منه تقريباً. خرج مسرعا من المحطة بوقع قدميه حاملا حقيبته الصفراء. كان ينوي ركوب سيارة أجرة، والانطلاق في طريق "الوزارات" لا لعمل هناك بل لإضاعة "الشرطي المدني" الذي علق وراءه من المدينة التي كوى فيها محافظها ومدير أمنها ورئيس بلديتها وأصحاب محلاتها. هل هو مجرد "شرطي مدني"؟ هذا ما اعتقده، والنقود التي حاول الحوذي مصتق الأقرع أن يدسها بيده في المحطة في اللحظة الأخيرة!

خرج من المحطة، وتوقف، وأشعل سيجارة، وانتظر.

"الشرطي المدني" أيضاً خرج، وعندما رأى "حضرة السيد" واقفاً، توقف هو أيضاً. حسنٌ يا عزيزي، إنه يلاحقه بالتأكيد. حسنٌ، ولكنه لم يأخذ النقود التي أعطاه إياها الحوذي. لابد أن تلك النقود هي نقود محددة الأرقام من قبل لكي يقبض عليه بالجرم المشهود، ويحرقونه بها. لقد كلّ وملّ من الحياة على هذا النحو. لو مات.. لو استطاع أن يموت.. ولكن الأولاد.. لم يكن يشفق على طونتش ويالم.. هما رجلان. ولكن أليف؟ هي فتاة لم تنه حتى المدرسة المتوسطة... بعد أن يموت فإن أمها

التي تعيش جوها الخاص تبعد الأولاد عن الدراسة، وتزجهم في حياة العمل. امرأة سافلة، من أجل البوكر والبريدج..

ركب سيارة أجرة بسرعة: "إلى الوزارات!"

انطلقت السيارة في الطريق. استرق النظر من النافذة الخلفية. كان ثمة سيارة تسير خلفه بالضبط. يجب أن يكون "المدني" في تلك السيارة. لم يكن هذا مهماً أبداً. لا يؤثر عليه الشرطي المدني، ولا تهمه الشرطة المدنية بإذن الله، لكنه لن يستطيع تجاوز البقرة التي في البيت. إنه منذ أيام على ما يرام، ولكن ماذا كانت تفعل أمه المسكينة يا ترى؟ لعل تلك المرأة البقرة البشعة الشمطاء المشاكسة تجعل المسكينة تتقيأ دماً، ولاسيما الآن، لابد أنها في مصيبة لأنه لم يرسل نقوداً!

نظر مرة أخرى من النافذة الخلفية. كان قادماً ويلاحقه!

ولكن لا ضرورة لأن يموت الآن. يعطي سما أساورها وأقراطها، ويترك لنفسه ما أخذه من زوجة صاحب الفندق، ويشتري من الآن مقسماً صغيراً خارج المدينة، وليكن في تشكمجة أو بكر كوي، أو في أي مكان آخر من أجل البيت الذي سيدس رأسه تحته عندما يتقدم في السن.

حين أراد أن ينفض رماد سيجارته خارج السيارة من النافذة، ارتد الرماد إلى وجهه، وعينيه. الله يبعث له البلاء. ولكن الأمور بدأت تسير نحو القذارة! لم يكن ارتداد الرماد هذا على وجهه علامة خير أبداً. كانت الإشارة سيئة. يمكن أن يكون "المدني" قد وجد طريقه وأمر بتوقيفه في العاصمة.

اقتنع بهذا فجأة، وقذف السيجارة الملعونة التي مازالت مشتعلة بيده نحو الخارج.

حسنٌ، على أي أساس يمكن أن يوقفه؟ لم يواجه ما يشبه هذا في المدن أو البلدات التي قصدها قبل هذه. لماذا؟ لماذا لم يواجه هذا، وهنا...

خطر بباله الحوذي مصتق الأقرع الضعيف جداً. يجب أن يكون هذا بسبب ذلك القذر. لماذا ركب بعربته أصلاً؟

نزل في منطقة الوزارات. "الشرطي المدني" نزل هو الآخر. انتظر فترة. وإذا كان قد خطر بباله أن يقبض عليه من ياقته، ويطلق الصراخ، فإنه لم يكن بحاجة لمغامرة أخرى. غاص في أحد الأبنية الكبيرة حاملاً حقيبته الصفراء، ومصدراً وقعاً بقدميه الضخمين. وصل إلى وزارة الداخلية و"المدني" بباله.

بقي "المدني" عند أول الدرج، ولكنه ظل ينظر إليه.

دخل إلى "المكتب الخاص". كان أصحاب الأعمال ينتظرون دورهم من أجل الدخول إلى الوزير. كل شخص بحاله، ينتظر أن يأتي دوره بأسرع وقت ممكن وهو يفكر مهموماً. دخوله بوقع قدميه المميز لفت أنظار الجميع هناك، وعلى رأسهم مدير المكتب الخاص، وحتى أن هناك من نهض له احتراماً هنا وهناك.

"لا تزعجوا أنفسكم يا أولادي، لا تزعجوا أنفسكم!"

ذهب باهتمام إلى طاولة مدير المكتب الخاص. وهذا أيضاً نهض على قدميه أمام حضرة السيد هذا الذي لا يعرفه أبداً، ولكن هيبته وقوامه يُظهران أنه رجل مهم.

"تفضل يا سيدي!"

"أعتقد بأن حضرة السيد الوزير مشغول جداً؟"

"كثيراً. ولكن إذا كانت لكم رغبة."

إنه لبيب، ويفهم من الإشارة، فقال: "لا، لا، لدي بعض القضايا الهامة التي سأطلعه عليها. سأراه مساء في (أنقرة بالاس). سلم لي عليه!"

"على رأسي يا حضرة السيد."

خرج جاذباً نظرات إعجاب الجالسين هناك مصدراً وقع قدميه المعهود. كان "المدني" عند الباب كما توقع. رآه يكلم مدير المكتب الخاص وسمعه إلى حد أنه أفسح الطريق باحترام "لحضرة السيد" وهو خارج من الباب، وحياه وهو ينحني حتى كاد أن يصل إلى الأرض. وهل هذا كلام؟ الرجل، لا، "حضرة السيد" سيبلغ وزير قد الدنيا بأمور مهمة جداً، وسيلتقي به مساء في "أنقرة بالاس" بشكل خاص. هذا يعني أن هذا الرجل ليس "مفتشاً" فقط كما قيل، بل أمره أكبر بكثير، ولكن ماذا؟

ركض خلفه مرة أخرى. ركب الرجل بسيارة أجرة، وكان يجب أن يركب هذا سيارة أجرة أخرى، لكن لم تكن ثمة سيارة أجرة. التفت يميناً ويساراً...و"حضرة السيد" كان يتفرج على "المدني" مسروراً من النافذة الخلفية مبتعداً. قال للسائق: "اسحب إلى قاربيتش!"

انطلقت السيارة بطريقها مسرعة تحت أنظار "المدني" المندهشة وهو يركض إلى اليمين وإلى اليسار. لو كان قد خطر بباله أن يأخذ رقم لوحة السيارة، ويسأل السائق فيما بعد إلى أين أخذه فلن يكون لهذا أي فائدة.

أخذ حضرة السيد نفساً عميقاً في السيارة، وأشعل سيجارة. نعم،

سيحول الذهبيات التي أخذها من زوجة صاحب الفندق إلى نقود في السوق المسقوف.. لا، لا، لم يعجبه هذا. يُخشى أن يحدث أي شيء. يجب أن ينتظر عدة أيام!

إنه يشعر شعوراً غريباً بأن هذه الذهبيات لن تبقى معه. لا يعرف سبب هذا الشعور، ولا سبب تفكيره به، لعل سما ستعقد الأمور كثيراً، وستقع الواقعة على رأسه في النهاية.

قال لنفسه: "ماذا يمكن أن يحدث؟ لندع ذهبيات سما، من رآه يأخذ ذهبيات امرأة الفندقي ليعطيها لسما؟ لا أحد. أنا، والمرأة، والله! غير هذا؟ لا أحد أبداً..."

ارتاح قليلاً: "بفرض أن ادعاءً غير مناسب قد حدث. ماذا سينجم؟ سينكر هذا. لا يا عزيزي، هذه أوهام خاصة.. دع هذا الآن، وكيف سأبيع الذهبيات؟"

كان بباله بسرعة السوق المسقوف في اسطنبول، والزحام، ودكاكين الصاغة بواجهاتها المليئة بأكوام الأساور الذهبية والخواتم. بداية، يلج أول دكان ويعرض عليه زوجاً من الأساور، ويقول: "هل لك أن تنظر إلى هذه؟"

يأخذها الرجل أو أجيره باحترام، ويقول: "هات لنراها يا سيدي.." يقلبها، ويتفحصها: "جميلة جداً. ماذا تنوون أن تعملوا بها؟"

"أريد أن أبيعها."

يمعن صاحب الدكان أو أجيره النظر بها. يظهر أنه لا يجدها مناسبة للبيع. وتبدأ مساومة، ويستمر التجاذب. قال لنفسه بصوت مسموع: "مستحيل!" ثم تابع قوله لنفسه: ".. لا يمكن أن تباع. ماذا يحدث لو

انفجر لغم القضية، ونقلت إلى الشرطة؟ وبما أن عنواني مع سما.. فإن شرطة اسطنبول ستقبض على إدريس بلمح البصر وتسأله عني. في الحقيقة أن إدريس والآخرين ليسوا صافين، ولكن ألسنتهم مربوطة، وبرغم هذا لا يُعرف ماذا سيجري، يمكن أن يفلت منهم شيئاً!"

دُهش كثيراً لسرعة وصوله عندما وقفت السيارة أمام قاربيتش. صرف سائق سيارة الأجرة، ودخل إلى قاربيتش متحسباً لأي طارئ. عندما دخل قال الذي عند الباب باهتمام: "تفضل يا حضرة السيد!" وانحنوا احتراماً حتى وصلوا إلى الأرض. لقد رؤوا سادة وسادة محترمين كثيرين، أما هو فدخل بوقع قدميه، وتلفت إلى اليمين واليسار. كانت هناك مجموعات قليلة في الحديقة. خرج. توقف لحظة: "سيسأل عني حضرة السيد مستشار وزارة الداخلية. سأكون في أنقرة بالاس في التاسعة مساء!"

انحنوا حتى الأرض: "على رأسي يا حضرة السيد!"

بعد خروج الرجل، تبادلوا النظر فيما بينهم، وتحدثوا بسرعة: "من هذا؟"

"من أين أعرف أنا؟"

"أي مستشار سيسأل عنه؟"

"لا أعرف هذا أيضاً."

"لا يُكتب على جباه المستشارين مستشارون يا أخي."

"أليس لديك شغل يا هذا؟ اسمع ما يهتم له!"

"..............."

"..............."

قفز "حضرة السيد" إلى سيارة أجرة أخرى قبل أن يضيع مزيداً من الوقت. أصبح متأكداً أنه لم يعد ملاحقاً، وانطلق في طريق المحطة. كان ثمة قطار إلى اسطنبول بعد ساعة. لقد تبخر "المدني" لكن عيه برغم ذلك أن لا يتساهل باتخاذ التدابير اللازمة. ما إن انطلق نحو زاوية مظلمة من مطعم المحطة، حتى هرع كبير النادلين والنادلين باحترام:

"تفضل إلى هنا يا حضرة السيد!"

"يا حضرة السيد، هذا الطرف يشرح النفس أكثر."

"..............."

اتجه بحاجبيه المقطبين، وكتفيه العريضين، وحقيبته الصفراء مصدراً وقع قدميه عبر الأماكن التي قدمت له، وجلس إلى طاولة في أقل الأماكن لفتاً للنظر. كانت عيون محيطه عليه. حتى إن هناك أشخاصا يتبادلون الحديث محاولين معرفة من يكون.

"كأسان مزدوجان من عرق (كولوب)، وصودا، و..."

"حاضر يا حضرة السيد؟"

"جبن أبيض، وبندورة، وخيار،ولحم مسلوق، وشمام!"

انحنى كبير النادلين إلى الأرض، وقال: "كما تأمرون يا سيدي!"

كانت عيناه على باب المطعم احتياطاً لأي طارئ. كأنه ارتكب جريمة. نعم هكذا، فقد فتح الحديث في المكتب الخاص حول "أنقرة بالاس"، وأعاد هذا عند باب قاربيتش، كأنه مكّن الأمر. طالما أنه مكّن الأمر، فما عمله في المحطة؟ لنقل إنه سيقتل الوقت حتى التاسعة أو العاشرة، في هذه الحال سينتظر "المدني" النتيجة أيضاً. كان يجب عليه أن يذهب من هنا إلى "أنقرة بالاس"، ولكن هذا مستحيل من جهة، كما

أن قضاءه ليلة أخرى في أنقرة، يعني تأخره ليلة عن اسطنبول من جهة أخرى، ما سيجعل غضب زوجته اللعينة تصل إلى أقصى حدودها.

جاء عرقه، ولحمه المسلوق، وجبنه الأبيض، وشمامه: "هل لكم أمر آخر؟"

اكتفى بهز رأسه إلى الجانبين مثل الرجال الكبار. أخذ رشفة من عرقه في أثناء ابتعاد كبير النادلين... أووه... هذه الدنيا. يا لجمال هذه الأيام، وحتى هذه الساعات التي يبتعد فيها عن "زوجته القذرة"! لو أن أولاده وأمه ليسوا عند زوجته التي يجب أن يقول إنها نوع من "عملاق بسبعة رؤوس"

رشفة أخرى.

لو لم يكونوا هناك، كيف كان سيتمسك "بشغله" من البداية بشهية كبيرة، ويسلب مدن الأناضول وبلداتها، وكيف سيحصّل أربعين أو خمسين ألفاً، ويبني على مقسم سيتدبره في أحد أحياء اسطنبول القصية البيت الذي يضع مخططاته في حقيبته، وينهي "هذا العمل القذر"!

رشفة ثالثة، وصودا، وجبن أبيض، وشمام. ولكن ما فكر فيه لن يحصل في هذه المرة على الأغلب... ليس ثمة خلاص قبل الموت. حتى لو لم يعتبر زوجته موجودة، فهناك إدريس والآخرون. كانوا موجودين إلى حد أنهم حمّلوه مسؤولية ملكية جريدتي "أخبار العمل والعمال" و"صوت الكسبة" وحملوه مسؤولية المداهمات هنا وهناك، ولعب دور "هيئة التفتيش". وبتحميله مسؤولية "رئيس هيئة التفتيش" وضعوه في فوهة المدفع. وإذا أراد أن ينفصل عنهم، فإنهم قد يقدمون على فعل كل سوء معه، حتى احراق بيته من أجل أن يمحقوه.

عبرت ذاكرته ظلال الضيق. بالرشفة الرابعة أنهى عرقه. لا خلاص من "المرأة القذرة" و"الأصدقاء القذرين"!

لم يظهر "المدني" حتى موعد القطار. قطع تذكرته، وصعد إلى إحدى مقصورات الدرجة الأولى المريحة. حالياً هو مرتاح. خاصة عندما تحرك القطار، فقد بقي "المدني" في أنقرة. وبمتعة ولذة أسند رأسه على خشب النافذة، وغط في النوم فوراً. رأى زوجته، وبيته في حلمه. كان ذاهباً إلى بيته بسيارة أجرة. أما زوجته فقد كانت تحمل عصا، وتنتظره على شرفة الشقة التي يسكنها. حين نزل من السيارة، ركضت نحو الأسفل: "ولاه، أين كنت يا ديوث؟ ها؟ أين كنت؟ أجب لكي نرى!"

"يا زوجتي العزيزة، انتظري يا زوجتي العزيزة، لأشرح لك يا زوجتي العزيزة."

عندما استيقظ كان يتصبب عرقاً، ورأى "المدني" أمامه مرة أخرى، وغدا كأنه قد ضرب في مخه.

كان الرجل يبتسم: "أظن أنكم رأيتم حلماً يا حضرة السيد؟"

قال مرتبكاً: "نعم، إيه، نعم."

"هل حضرة السيدة..؟"

"حسنٌ، ولكنني أنا.."

"لا تعرفني؟"

"لا."

"كيف هذا يا حضرة السيد؟ ألم نأت إلى أنقرة بالقطار نفسه؟"

"لم أكن منتبهاً."

"بعد ذلك ذهبتم إلى الوزارات."

"نعم."

"محسوبكم أيضاً كان لدي شغل هناك. مصادفة في المكتب الخاص، يعني في المكتب الخاص للوزارة نفسها... حتى إنكم تركتم للمدير ملاحظة بأنكم ستلتقون السيد الوزير بعد الساعة التاسعة في أنقرة بالاس.."

"نعم، ولكن ما علاقتك بكل هذا؟"

"علاقتي؟ لا شيء. ولكنني من منطلق الحاجة للتعبير عن إعجابي بحضرة السيد الذي شرف محافظتنا، وجعل الأمور كلها تسير في نصابها خلال عدة أيام."

هل كان الرجل مجنوناً، أم ماذا؟

"تابعوا!"

"محافظتنا محافظة متروكة لعناية الله يا حضرة السيد. بفضلكم، كنست شوارعها، وغُسلت خلال عدة أيام. تجولتم على الفنادق والمطاعم. ورأيتم بأم عينكم كيف كانت قذرة، وبلا رقابة. حتى إنكم وجدتم من المناسب أن تنزلوا في بيت صاحب الفندق بسبب قذارة الفنادق."

"من أين تعرفون كل هذا؟"

"محسوبكم جار صاحب الفندق الذي أقمتم في بيته. أخي الكبير خياط. أنا كنت موظفاً بسيطاً في المحافظة، وقد طردني هذا المحافظ الضيق النفس المصاب بالربو من وظيفتي. لهذا السبب تقدمت بطلب إلى وزارة الداخلية. كنت سأفضي لكم بهمومي، ولكن صاحب الفندق منعني. ولم أجرؤ أيضاً."

فهم أن الرجل ليس "شرطياً مدنياً"، فارتاح واتخذ وضعية حضرة

السيد: "لماذا لم تجرؤ؟ قضيتك هي قضيتي، وهي قضيتنا. بعبارة أخرى قضية البلد!"

"معكم الحق يا حضرة السيد، ولكن حضرتكم السامية تفضلتم إلينا هناك سراً من أجل التحقيق في قضية المحافظ دون علم أحد. ولكن الذي أعجبني فيكم هو تصرفكم العملي، وطردكم تلك المرأة المصيبة من بيت صاحب الفندق!"

"..............؟"

"المرأة المسكينة لا تسأل عن ذهبياتها، ولا تعرفون كيف تدعو لكم؟"

"..............؟"

"هل تحدث أمور كهذه في بيت شريف يا حضرة السيد؟ دعو القانون جانباً، هل ديننا يسمح بهذا؟ أليس هذا هو سبب التسيب في الدين؟ وهل هناك إمكانية لأمة أن تعيش إذا كانت متسيبة بدينها؟"

لم يكن منتبهاً، ولكنه صدّق حقيقة بأن الرجل ليس "شرطياً مدنياً". نعم، نعم، يجب أن لا يصرف الذهبيات. إذا حدث أي عارض، وجاءت المرأة، وطلبتها، وقللت الأدب، يمكن له أن يقول لها: "لم أعطك العنوان دون سبب، خذيها!" ولكن كيف سيخفيها عن زوجته المتوحشة؟

"خاصة أن رغبتكم بمداهمة المحافظ في غرفته خلقت ارتياحاً في المحافظة كلها. ولكنهم لعبوا عليكم يا حضرة السيد. لا تقولوا إنكم سمعتم هذا مني برغم أن المحافظ كان في غرفته، فقد جعلكم تقابلون مساعده. هل قابلتم السيد مساعده حقيقة؟"

"نعم."

"نعم" ولكن القضية هي تخبئة الذهبيات. عندما سيذهب إلى البيت، سيعلقون به مثل كل مرة قائلين "نقود!". لو عرج على إدريس بداية، ولكن القطار يصل ليلاً إلى اسطنبول. وفي ذلك الوقت يكون إدريس قد أغلق المكتب.

عندما وصل القطار إلى المدينة "التي فتشها" قدرت، نهض شقيق الخياط الموظف الذي تعرض للظلم. وقبل يد "حضرة السيد": "تصل بالسلامة يا حضرة السيد.."

"مع السلامة يا ابني.. سلم لي على أبناء بلدك، وقل لهم إنني أقبلهم جميعاً من أعينهم!"

"أمركم يا حضرة السيد."

نزل. كان الحوذي مصتق الأقرع هناك. نادى منفعلاً: "مصتق، مصتق!"

كان مصتق يشرب كل يوم بالمئتي ليرة التي لم يعطها "لحضرة السيد"، وبقيت معه. وهو ثمل مرة أخرى. قال: "ماذا يوجد؟"

"رجلك في القطار!"

"من رجلي؟"

"السيد المفتش!"

انفعل فجأة، وسأل الحوذي مصتق الأقرع: "ماذا؟ أين؟"

"انظر، ها هو هناك.. في نافذة الدرجة الأولى!.."

ركض مصتق. ودخل إلى المقصورة التي يوجد فيها "حضرة السيد"، ورمى نفسه على يديه على الأكثر بسبب عدم أخذه المئتي ليرة، وتركها له: "الله يخلي لك أولادك يا حضرة السيد. الله يجعل التراب بين يديك ذهباً..."

من أين ظهر له هذا الرجل القذر مرة أخرى!

"حسنٌ، حسنٌ.. عشت، هيا..."

"أنت أبي يا حضرة السيد، بشرفي أبي!"

"هذه مجاملتك، حسنٌ..."

كان مصتق الأقرع سكراناً إلى حد أنه شتم "المجاملة"، ثم صحح الوضع: "اغفر لي يا سيدي، حباً لله اغفر لي!"

"يا عزيزي، لا يوجد ما يُغفر.."

"ماذا يعني لا يوجد؟ من أكون أنا بوجود حضرتكم مثلاً.."

"..............؟"

"من أكون أنا مثلاً.."

"حسنٌ، حسنٌ..."

قرع الجرس. قفز الحوذي مصتق الأقرع من القطار، وكان يركض بجانب القطار الذي يسير ببطء: "الله يسهل لك طريقك يا حضرة السيد، الله يجعل التراب بين يديك ذهباً.."

تسارع القطار، وبقي مصتق على الرصيف وبعد ذلك عاد ووصل سكره إلى الذروة، وجاء إلى شقيق الخياط الذي اعتقد "حضرة السيد" أنه "شرطي مدني"، وقال: "أي رجل هذا ياه! أي رجل يا عالم.." وبدأ يبكي. كان البكاء بسبب الفرح. وإذا كانت ثلاثمئة من الخمسمئة التي حصل عليها من صاحب المطعم قد اختطفتها زوجته، فإن مئتين قد بقيتا من نصيبه، فقال: "أنا لم أر في حياتي مفتشاً شريفاً ورجلاً بهذا الشكل. لو أطلق عليه رجل مثله النار فسيسامحه بدمه!"

صعدا إلى العربة، قال شقيق الخياط: "إلى أين يذهب من هنا يا ترى؟"

قال مصتق دون تفكير: "إلى التفتيش"

"صحيح. ذهب إلى الوزارات في أنقرة، وقدم تقريره فوراً. بشرفي رأيته بعيني.."

شعر مصتق الأقرع بالضيق فجأة. يخشى أن يكون قد رفع تقريراً بصاحب المطعم الذي أخذ منه الخمسمئة ليرة؟ رغم ضيقه الكبير، لم يُظهر هذا. وساط بسوطه مؤخرتي بغليه كما يفعل دائماً: "حاااا!"

إذا تعقدت الأمور، "لم أر، لا أعرف، لم أسمع، لا علم لي. كما أنني لم آخذ لا خمسمئة، ولا غيرها من صاحب المطعم!"

- ١٦ -

جاءت شهوار إلى بقال الحي بنظارتها الغليظة الإطار، وبعينيها الساحلتين إلى جذر الأنف، وبشفتيها المصبوغتين كثيراً، ودخلت بتباهيها المعهود: "الله يجبر يا كبير البقالين!"

"كبير البقالين" رجل بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره، فتي، وتاه بالاتجاهات بسبب فتيات الحي، وخاصة النساء الفقيرات، وقد قفز قلبه، ونظر إلى المرأة العجيبة أكثر من أن تكون قبيحة: "تفضلي يا حضرة السيدة.."

"لماذا لم تعط عجوزنا ما طلبته؟"

بلع البقال ريقه وضحك، ثم اتخذ موقف الجد: "هل تلك المرأة هي أم حضرة السيد حقيقة؟"

سأل هذا لمجرد الكلام. فهو يعرف أنها أم السيد قدرت. وقد سأل هذا لمجرد الكلام، أو على الأصح ليتجنب قصف المرأة القبيحة.

دهشت المرأة القبيحة: "آآآ..."

"لم أسأل بهذا المعنى يا سيدتي. أعرف أنها أمه، ولكنها قليلة الأناقة كثيراً، وغير هذا، فهي ثرثارة كثيراً أيضاً!"

فتحت المرأة القبيحة عينيها عشرة على عشرة: "هل نقلت كلاماً؟"

"يا سيدتي، الكلام بيننا، قالت إنك جلبتِ ضيفة إلى بيت السيدة خيرية الداية.. هل هذا صحيح؟"

ازداد انتباه المرأة القبيحة إلى الحد الأقصى: "ما علاقتها بهذا؟"

"القضية هنا. تقول: تُشرب الوسكي، وتلعب الورق والبوكر على حساب ابني. وهناك نزهات إمرغان، وخيول مزرعة سباهي، والسيارات. وتقول: لنر كيف ستنتهي هذه السلطنة. وأنا أيضاً..."

ازداد توتر شهوار إلى آخر حد: " لم تعد تعطينا المواد اعتماداً على كلام امرأة خرفانة قذرة، أليس كذلك؟ حباً بالله! اعرف هذا جيداً يا حضرة البقال أنني حتى هذا اليوم زوجة قدرت الشرعية.. وليس هناك أي حق قانوني لأمه عندنا. أنا أبقيها عندي لأكسب رضاء الله. وإذا ما زادتها علي، والله وبالله أمسكها من يدها، وأطردها!"

خلال حديثها انزلقت عيناها تماماً إلى جذر أنفها، وانقلب وجهها وواصلت الكلام قائلة: "أناس قذرون، لا شخصيات لهم، وتافهون.. التي تقول إنها ضيفة هي نتاج ابنها السافل. سوف أحاسبه. موضوع المرأة يتعلق به، يتعلق به!" هدأت بعد ذلك: "أنت أعطني الآن زجاجتي ويسكي.."

ابتلع البقال ريقه.

"لماذا لا تعطني؟"

فرك يديه: "والله يا حضرة السيدة.. الدين ازداد قليلاً. وكما تعلمين حضرتك، الآخرون أيضاً تعلقوا بالدين كثيراً."

"وهل أنا مثل الزبائن الآخرين؟"

"لم أقصد هذا يا سيدتي. ولكن يجب أن أدفع لمؤسسة توزيع المواد التي تحتكرها الدولة. وأدفع للتجار، والضريبة."

"هيا، هيا. إذا لم يأت في هذه الليلة، فسيأتي غداً، وتمسح ديوننا كلها. ثم ما هذا؟... عيب! ألا نأخذ ديناً مثل هذا دائماً يا عاكف أفندي؟ أنا كنت سأطلب منك قليلاً من النقود أيضاً!"

نظر البقال عاكف إلى صديقه الجالس بجوار طاولة البيع حزيناً.

"لا يمكن هذه المرة يا حضرة السيدة. سيكون سهلاً لولا أنني سأدفع غداً الضريبة، ولمؤسسة المواد التي تحتكرها الدولة، ولكن.."

"حسنٌ، حسنٌ، هات الويسكي!"

جلب البقال عاكف الويسكي دون رغبة، وأعطاها إياها. أخذتها شهوار، وخرجت من الدكان. ستشتري لحماً شرائح من عند القصاب، وبندورة وجزرا وغيره من عند الخضري.

قال البقال من خلفها: "الله يبعث البلاء لامرأة كهذه!"

قال صديقه المتجاوز سن الأربعين: "لماذا؟"

"قال زوجها إذا تجاوزوا الحدود، تقطع عليهم المشتريات. ولكن هؤلاء."

أخرج دفتر الدين متوتراً، وفتحه: "انظر إلى هؤلاء يا أخي، اقتربوا من الألفين. عندما ذهب الرجل إلى التفتيش، نبهني ألا يتجاوزوا الألف. لا أستطيع أن أقنع المرأة."

في هذه الأثناء دخلت أليف ابنة قدرت البركان إلى الدكان كالقنبلة: "علبة علكة، وعشر ليرات نقداً!"

"لا يوجد نقود."

كانت أليف قد مزقت غلاف العلكة: "سأضرب رأسك بشيء الآن ها!"

"قالت أمك."

"أف، لا تجعلني أبدأ بأمي الآن. هيا!"

كانت تضرب الأرض برجليها باستمرار.

نظر البقال إلى صديقه الذي بجانبه. بالنسبة إلى الصديق: "ليس عشرة فقط، بل الإنسان يضحي بخمس عشرات، أو عشرعشرات، وحتى مئة عشرة من أجل فتاة كهذه!"

"أعطها، أعطها، أعطها! لا ترد الآنسة خائبة. من يعلم، لعلها ستذهب إلى السينما؟"

قلبت أليف شفتيها: "أنا لا أدفع نقوداً للسينما. يسلم لنا الأخ الكبير دمير..."

أخرج البقال قطعة من فئة العشر ليرات نظيفة، وجديدة تطقطق، ومدها لها.

التقطت الفتاة النقود، وخرجت متقافزة من الدكان وهي تعلك العلكة. وراح عقل البقال وصديقه معها أيضاً.

قال الصديق: "ولاه عاكف! أعطيت لتلك المرأة القبيحة زجاجتي ويسكي، واستكثرت عشر ليرات على هذه الصبية؟ ولاه، لو طلبت روحي أعطيها!"

غمز البقال وقال: "يا عزيزي، لا تكثر بالكلام. لأننا هنا أخذنا وأعطينا بالكلام. لو كان لهذا المستودع الخلفي لسان.."

"حباً لله؟"

"أووووه..."

"أليست بنتاً؟"

"بنت، بنت، ولكنها ابنة أمها!"

خطر ببال صديق البقال المستودع الذي في الداخل، وثوب الفتاة التي دخلت قبل قليل وهو مرفوع.

قال البقال: "عندها نصف دزينة عشاق على الأقل. يسكن مقابلنا طلاب جامعة. تذهب ليلاً ونهاراً لعند الشباب ومعها زميلاتها."

"ماذا يفعلون؟"

"يرفعن أثوابهن، ويعرضن أفخاذهن. غضب القصاب من هذا، وجاء إلي عارضاً همه."

"عرض همه؟ هل غضب المخبول من رؤية أفخاذ الصبايا؟"

"يا عزيزي، الرجل في السبعين تقريباً."

"أمثال هذه لا يبثثن الحيوية في ابن السبعين فقط، بل يبعثن الموتى!"

تضاحكا.

قال الصديق بعد ذلك: "حسنٌ، ماذا يفعل الشباب؟"

قال البقال: "ماذا سيفعلون؟ هذا الحي خصب جداً. هؤلاء الشبان أتوا من أمكنة متفرقة من الأناضول إلى الجامعة. يجتمع ثلاثة أو خمسة منهم على استئجار غرفة أو شقة. إنك تفهم ياه؟"

"والله يجب أن يكون الإنسان طالباً في هذه الأيام!"

كان يأتي زبائن آخرون إلى الدكان ويذهبون. كان هذا الدكان بقالية الحي منذ أربعين عاماً على الأقل. وكان البقال الثلاثيني يأتي عندما كان أبوه حياً أيضاً، ويتحادث مع الفتيات، ومع النساء الفقيرات على الأكثر. ولكنه استقر بالدكان بشكل دائم بعد وفاة أبيه قبل عشر

سنوات. وهو يمضي خمس عشرة ساعة أو ست عشرة من اليوم على الأقل هنا بالاستماع إلى قيل وقال النساء.

سأل الصديق: "ماذا يعمل والد هذه الفتاة؟ هل هو مفتش؟"

طوال هذه السنوات لا يعرف عمل قدرت البركان الحقيقي. رجل طويل وعريض لا يدخل بالباب. نساء الحي تهتم بشاربيه الضخمين، وكانت تهتم أكثر السيدات المحترمات اللواتي مضت سنوات على وفاة أزواجهن، وعندما توفوا، تركوا مالاً وملكاً وعقارات. هناك السيدة إفاقة، وهي في الستين من عمرها تقريباً. وهي أرملة أحد المحافظين السابقين منذ خمسة عشر عاماً. كلما أتت إلى الدكان تسأل عن زوجة قدرت البركان القبيحة، ثم تبدأ القول: "شهوار؟ آي.. الله لا يجعلها شهوة... لا يمكن أن تنزل من بلعوم، أو تمس! الله يلهم الصبر للسيد قدرت. الحقيقة إنه رجل كامل مكمل. وإذا سمرته بالأرض يتسمر. وهل هذه القذرة تناسب مثل هذا السيد المحترم؟"

وفي اللحظة التي كان البقال سيحكي فيها لصديقه عن السيدة إفاقة، دخلت إلى الدكان بحاجبيها المرفوعين، وشعرها المصبوغ، ووجهها اللامع الذي لا يعرف أحد كم نوعا من الكريم قد مسحته به. حين أرادت أن تقول: "الله يجبر يا كبير البقالين؟ ما هي أخبار السيد قدرت؟" رأت صديق البقال، فضبطت نفسها. لكن البقال فهم الوضع فقال: "صديقنا ليس غريباً يا عزيزتي السيدة إفاقة. ما هي أخبار المرأة الشابة التي عند الداية؟"

كأن السيدة إفاقة كانت تنتظر هذا: "آه، لا تسأل يا عاكف أفندي، لا تسأل. كانت القبيحة ذاهبة بزجاجتي ويسكي مرة أخرى."

كبرت هموم البقال: "لا تفتحي هذا الدفتر أبداً. إن أعطيتها مشكلة، وإن لم أعطها مشكلة أخرى. جاءت أم السيد قدرت، وفتحت فمها، وأغمضت عينيها!"

"أنا أرسلتها يا هذا. لا تعطها، اقطع الدين يا سيدي. لست مجبراً!"

"هذا يعني أنك أنت أرسلتها؟"

"أنا أرسلتها ياه.. لتذهب المسكينة إلى طهطة قلعة لتعمل عند بائع الملح، وهي فوق هذا سليلة باشاوات، وبالمقابل تمارس هذه القذرة السافلة السحاق، وتلعب البوكر والورق، وتشرب الويسكي. إيه.. ليس لدى الله عز وجل أصبعا ليفقأ بها الأعين. امرأة قذرة. وجدت سيداً محترماً لا يدخل بالباب، ومثل السبع، وعلقت له الرسن."

دخلت امرأة شابة إلى الدكان وهي تحمل زجاجة زيت زيتون. بدا عليها الفرح عندما رأت السيدة إفاقة، فاقتربت منها: "هل تعلمين أخبار شهوار يا أختي الكبيرة؟"

نفضت المرأة الستينية التي تحاكي الفتيات الصبايا على الأغلب برأسها لتلقي خصلة شعر نزلت على جبينها إلى الوراء كالصبايا، ثم سألت: "لا، ماذا حدث؟"

"ويسكي، وبوكر، وذهاب إلى مزارع الفرسان مرة أخرى مع الشباب لركوب الخيل، وقيادة السيارات."

قالت السيدة إفاقة بأسلوب يذكر بالصبايا مرة أخرى: "يا حلوتي، هذه مهارات شهوار القديمة!"

"صحيح، ولكن تلك التي اسمها سما، أو لا أدري ماذا، والغيرة من تلك المرأة؟"

"ممن؟"

"من ابنها الصغير يا هذه!"

"من طونتش؟"

"قال هذا حموي. يتجول الولد حول بيت الداية ليلاً. وسما تعطيه إشارات من النافذة بأعواد الثقاب. حتى إنها نزلت في إحدى المرات إلى الباب. كانت الساعة الثالثة أو الرابعة ليلاً."

"وبعد هذا؟"

"بعد هذا يحترق قلب أمه من الداخل!"

"الداية؟ الداية ياه؟"

"من أين ستعلم الداية؟ ها، انتظري، انتظري.. نسيت أهم خبر. سما، تعرفين سما هذه؟"

"نعم؟"

"بنت حمي جارتنا تعرفها. إنها من قوم قابِ"

"وما شغلها هنا؟"

"لا أحد يعلم. وعندها أب وأم، ولكنهما لا يكلمانها. تعلقت المرأة بأحدهم، وهربت إلى الأناضول مغنية. والدها مسلم، وملتزم بدينه!"

عندما دخل ابن قدرت البركان الكبير إلى الدكان، قطعت المرأتان القيل والقال، ابتسمت السيدة إفاقة، وقالت: "أوووه.. ما شاء الله يا يالم. كيف حالك؟"

"شكراً لك يا خالة السيدة إفاقة..."

"السيد والدك ذهب هذه المرة طويلاً أيضاً."

"ماذا سيفعل يا خالة السيدة إفاقة؟ إنها الوظيفة."

أشار للبقال بأصبع السبابة بمعنى: "قطعة من فئة العشر ليرات.."
نظر البقال إلى صديقه المجاور له، ثم إلى المرأتين.

فهمت السيدة إفاقة: "أعط الشاب ما يريد يا هذا!"

فتح البقال درجه يائساً، وأخرج قطعة قذرة من فئة العشر وقدمها له. ودست السيدة إفاقة فوراً عبارة: "آه، آه.. لو عندي ولد مثلك يا يالم، أبيع البناء، وأعطيك ثمنه لتصرفه. ولكن الأم ليست أماً!"

انفعل يالم بحصوله على العشرة من جهة، وبمداعبة غروره من جهة أخرى، فلف السيدة إفاقة من رقبتها، وقال: "يا خالتي العزيزة، آه يا خالتي العزيزة، افرضيني ابنك."

"لا أستطيع أن أفرض هذا يا يالم. أقول لك دائماً: تعال عندي، واسكن في طابقي، وفي شقتي.. وكل شي يهون لك!"

قال الأصغر من عند الباب: "لا.. يا خالة السيدة إفاقة، لا تغوي أخي الكبير، بشرفي إن الدم سيسيل!"

"آه منك يا طونتش. عشت أنت أيضاً"

قال يالم: "لا تغار يا أخي، الدنيا مقامات."

قال البقال: "هذا كل شيء."

دخل طونتش بإشارة الحقوق على ياقة سترته، عانق السيدة إفاقة: "يا روحي، يا حبيبتي أنا، يا حبيبتي الحلوة، يا حبيبتي الوحيدة.."

تظاهرت السيدة إفاقة بالغضب: "لا.. لا لعب في هذا!"

"لماذا؟ ماذا حدث؟"

غمز بعينه: "تفهمين ياه؟"

"لم أفهم.."

"هات إذنك!"

فتحت حديث سما بأذن الشاب، فقال طونتش: "اسكتي.. ممن سمعتِ؟"

ابتعدت المرأة الشابة التي دخلت قبل قليل وبيدها زجاجة زيت زيتون متسللة، وكانت تمارس القيل والقالَ مع السيدة إفاقة، ولكن طونتش فهم الأمر: "هل هذه البقرة هي التي أخبرتك؟" ثم أفضى بالسر: "حميها أخبرها، ولكن عليها أن تخبئ علاقتها بحميها عن أهل الحي."

التقطت السيدة إفاقة موضوع قيل وقال آخر: "افهم؟" وتأبطت ذراع الشاب، وتابعت: "هذا يعني..."

أشار الشاب كما أشار أخوه بالضبط طالباً قطعة من فئة العشر ليرات. ولم يكن عند البقال مناص من تلبية طلبه. وخرجوا جميعاً من الدكان. بقي البقال وصديقه وحدهما، قال الصديق: " والله دكانك متعة!"

تنهد البقال: "لو كان يحدث هذا أحياناً، فهو معقول. ولكنني منذ سنوات طويلة في المكان ذاته مثل حمار البطرك، فهذا لا يحتمل. بددت مبالغ طائلة من النقود يميناً ويساراً. نعم، أنا أكسب، أنا أكسب، ولكن نصف النقود تذهب على وجع القلب من النساء. لهذا فإن المرحوم الوالد راح قبل أن يصل إلى الخامسة والخمسين.."

قال الصديق: "رحماك يا عاكف، ليكن موت الحصان من الإفراط بالشعير..."

وبينما كان يأخذ قبعته الأسطوانية وهو خارج، قال: "هيا، أنا ذاهب!"

"مع السلامة. إذا اشتهيت احتفالا عرج علي. وإذا عرجت مساء يكون الاحتفال أكثر متعة."

ذهب حتى الباب مودعاً صديقه، ثم وقف عند الباب، وبدأ ينظر إلى الشارع الذي تملؤه الشمس. شرد. فجأة صحا لنفسه، وشد انتباهه إحدى سيارات الأجرة التي تمر بسرعة وتتوقف أمام البناء الذي يسكنه قدرت البركان. نزل الرجل بجسمه الضخم وهو يحمل حقيبته الصفراء، ويرتدي حذاءه الأصفر. دخل البناء دون أن يعير اهتماماً كبيراً لمحيطه. فرك البقال يديه بامتنان. إيه.. جاء صاحب الدين البالغ ألفين ليرة تقريباً!

....

مع اقتراب قدرت البركان من بيته، ازدادت ضربات قلبه. كم كان جيداً لأيام وأسابيع في مدن الأناضول. كان بعيداً عن نقيق "امرأته القذرة" يصول ويجول على هواه مقابلاً بالاحترام بدل إهانات زوجته. ولكن الأمور الآن ستسوء على الأغلب.

عرّج على إدريس، وقد لاك الرجل بعض الأمور، ثم فهم أن "سما قد جاءت، وقابلت زوجته." ولكن قدرت البركان يتظاهر بأنه لا يعرف كل هذا.

صعد الطابق الأول بهدوء وقلبه يخفق بقوة. توقف قليلاً. ترى هل "المرأة القذرة" في البيت؟ إذا كانت في البيت، فكيف ستقابله؟ كان يعرف كيف ستقابله. بداية ستفتح موضوع عدم إرساله النقود طوال هذه الفترة، ثم ستفتح موضوع سما. ولن يدع مجالاً لهذا، لأن قصة الذهبيات ستظهر. لا يعرف ما سيحدث بعد هذا، ولكن العاصفة ستستمر على هذا النحو.

الطابق الثاني: كان قد ملّ وسئم من هذه الحياة. تجول على مدن الأناضول مدينة مدينة، صال وجال، سحب نقوداً، دخل سجنا وبعد ذلك خذ جواباً: "من يسقط برجليه لا يبكي. من قال له انصب على الناس؟" وإذا لم تسمع هذا الجواب، خذه من هذا وذاك.

شعر بالراحة عندما خطرت بباله مخططات البيت التي في حقيبته. تذكر الذهبيات التي أخذها من زوجة صاحب الفندق ليعطيها لسما. يمكن ألا تبقى الذهبيات التي أمنتها لديه سما، ولا النقود التي "جباها".. يمكن أن تبقى لديه ذهبيات زوجة صاحب الفندق الشرعية فقط. لعله بهذه الذهبيات، وبالألف أو الألفين التي أودعها بالمصرف خفية عن شهوار يمكن أن يبني البيت المؤلف من غرفتين في الأعلى، ومقهى في الأسفل في نهاية عمره. وحتى ذلك الوقت يكون قد أنهى طونتش الحقوق، ويالم الطب، وذهبت البنت إلى بيت الزوج، ويبقى وحده مع أمه، ويرتاح.

الطابق الثالث: وصل خفقان قلبه إلى درجة لا تُحتمل، ومد أصبعه المشعر الغليظ إلى الجرس، وضغط على الزر الأبيض. كان رأسه يدور، وعيناه تظلمان. لم يخف من كل أولئك المحافظين ومدراء الأمن والموظفين بمختلف درجاتهم في المدن التي تجول فيها في الأناضول بقدر ما يخاف زوجته التي سيقابلها بعد قليل. لم تكن امرأة، بل بلوى من بليات الله. لو صفعها صفعة واحدة سيسوي وجهها كما تقول الخالة السيدة إفاقة، ولكن هذا غير ممكن. كانت المرأة تعرف قضية "التفتيش والجباية". وخاصة إذا صفعها! ستقوم القيامة بعينيها المنزلقتين إلى جذر أنفها.

فُتح الباب: كانت أمه، أمه التي ليس له غيرها! شعر برغبة في أن يعانقها ويقبلها من خديها، ويقبلها كثيراً، ولكن ترى هل شهوار في البيت؟

قالت أمه بوجهها الأبيض المتجعد مثل الرز بالحليب: "تعال يا صغيري. لا أحد هنا!"

لم يستطع أن يعانق أمه حتى تلك اللحظة، وقبل خدي أمه المتجعدين كثيراً.

أسندت أمه رأسها على صدر ابنها الذي تحبه كثيراً، وبدأت تنشج.

قال قدرت البركان: "يا عزيزتي أمي!"

"يا صغيري، يا عزيزي ابني..."

"لماذا تبكين؟

"كيف لا أبكي يا ابني؟ آه، كيف لا أبكي يا ابني؟ مرة أخرى شدت شهوار اللجام إلى الآخر. استفادت من غيابك، ولم تترك ركوب خيل أو سيارات، ولا الخليلات الصبايا في بيت تلك السافلة الداية.. يا هذا، جرت الويسكي مثل السيل. سقطنا على ألسنة أهل الحي كلهم. لم أعد أستطيع النظر بوجه أحد من العار الذي لحق بنا. في النهاية ذهبت إلى البقال عاكف أفندي، وقلت له أوقف الدين قليلاً يا ابني. قال: لماذا أيتها السيدة الوالدة؟ وهل يوجد سبب يا ابني؟ وهل يحتمل من فيه روح كل هذا الدين؟ غداً ابني سيدفع ذلك الدين! المهم أنك رجعت..."

دخلا إلى غرفة أمه. جلست أمه على المقعد المطاول: "ما الذي يغيره رجوعي يا أمي؟"

"ما قصدك بماذا يغير هذا يا ابني؟ أنت رجل البيت!"

كان قدرت البركان ينظر نظرة خاوية إلى أمه التي لا تعرف حقيقة الأمر. كان رجل البيت، ولكن المرأة تعرف أسراره كلها، وخشيته تنزل رجولته إلى الصفر. وكان صعباً جداً أن يشرح كل هذا لأمه!

كانت العجوز تنصح ابنها دون توقف: "لا تنزل بعد الآن صفيحة الزبالة إلى الزبال يا قدرت. إذا كانت هي سليلة باشاوات، فأنت ابن باشا أيضاً. لماذا تُسّفه نفسك إلى هذا الحد؟ بماذا سيفيد الولدان اللذان كل منهما بقد خازوق؟ بماذا ستفيد البنت؟ ثم عليك أن تلجم تلك الفتاة قليلاً!"

"لماذا؟ ماذا حدث؟"

"مثل القطة الهائجة يا ابني. خرجت البارحة إلى الشرفة. الله لا يعطيها، كان وراءها ثمانية شبان أو عشرة على الأقل. وكل منهم مثل الخازوق، مثل الخازوق. أما الولدان فهما في عالم آخر. وبالنسبة إلى زوجتك..."

رفع قدرت البركان يده المشعرة في الهواء، وقاطع أمه: "دعي الآن كل هذا. لدي كلام معك!"

تناول حقيبته بشهية عن الأرض وفتحها على ركبتيه وأخرج منها أحدث مسودة مخطط بيت، وقال: "انظري يا أمي، في الأعلى غرفتان على هذا النحو، وبينهما صالون، ومطبخ في الخلف، وبجانبه تواليت.. وفي إحدى الغرفتين موقد حطب. ألا تتذكرين الشومينيه التي كانت في قصر السيد الوالد عندما كان حياً؟

تذكرت المرأة المسنة أيام زوجها السابق القديمة التي لن تعود أبداً. طفح قلبها وسالت الدموع من عينيها ساخنة. تنهدت مهمومة. آه، آه..

كيف لا تتذكر ذلك القصر؟ كان آيلاً إليهم من حميها، وتنزل من سقيفاته محفورات تشبه الدانتيل. كان يأتي والد قدرت الباشا بعربته إلى البيت، وعلى رأسه طربوش أحمر داكن، وفي قدميه بوط من الجلد الرقيق... وكيف كان شارباه؟ كانت مثل "واو الثلث". كانوا يستقبلونه عند الباب. يكون حضنه وتحت إبطه مليء بالراحة، والسكاكر، والحلوى الطحينية، ويصعد الدرج متمايلاً، ويقف عند آخره. كانت تتناول الصرر من يد زوجها، ينتقلان بعد ذلك إلى غرفة النوم. وعندما يرتدي زوجها منامته الحريرية كانت تساعده بارتدائها، وتعلق ألبسته بعناية على العلاقة. أين كانت كنتها شهوار، أين كانت؟ لم يكن في زمانهم امرأة تقول لزوجها: "أنت بحالك وأنا بحالي!" وهل يبلغ المقام أن تجعل زوجها يرفع صفيحة الزبالة ويلحق بالزبال؟!

"ولكنك لا تستمعي إليّ يا عزيزتي أمي.."

انقطع شريط عقلها السينمائي: "أنا يا صغيري؟ راح عقلي إلى الأيام القديمة."

"خبئي هذه الذهبيات في مكان. واحذري أن تريها لشهوار أو الأولاد!"

"من أين جلبتها؟"

ألقى كذبة: "أنجزت عملاً لأحدهم، وأعطاني إياها بالمقابل. ماذا سنفعل، هل تعرفين؟"

"ماذا سنفعل يا صغيري؟"

"عندما يأتي الزمن المناسب، سنبيعها، ونودع ثمنها بالمصرف فوق مالنا الذي هناك، وسنبني بيتنا!"

لم يكن عقل العجوز يستوعب كيف سينجز هذا العمل ومتى. هذه المرأة، وهذان الولدان، وهذه البنت.. وجدوا "حظيرة بعلفها"، ويتذرعون بالدروس والمدرسة والجامعة، والرجل المسكين يشتغل، ويكسب، ويتعذب، ويجلب، ويعطي، وهم يصرفونها على الجاهز!

نهضت حاملة الذهبيات، وخبأتها في مكان لا تستطيع شهوار، كما لا يستطيع الأولاد أن يجدوه.

"ولكن احذري أن يعلموا بالأمر يا أمي العزيزة!"

"لا لن اخبر احدا يا ابني.. وإذا صعب الأمر، أخبئها تحت سلة الطعام وأنا ذاهبة إلى الشغل، فينتهي الأمر."

"حسنٌ، هذا أفضل.."

تنهد. وبدأ الولد وأمه حديثاً حلواً مثل كل مرة عندما يبقيان وحدهما: "لن يكون لي خير من هذين الولدين، وهذه البنت يا أمي، أعرف هذا. همي كله أن ينهي طونتش الحقوق، ويالم الطب، وأليف المتوسطة. إذا أنهت أليف المتوسطة، إذا لم تكمل دراستها إذا أرادت فهي في النهاية ستذهب إلى بيت الزوج. ما أنتظره أنا أن يحصل كل من الولدين على مصدر رزق. إذا حصل كل منهما على عمل، تذهب أمهما إليهما، وتُعلف هناك!"

"حسنٌ، ولكن يا ابني، هل يقبل الولدان بهذا؟"

"سيقبلان يا هذه، إنها أمهما!"

"حسنٌ، صحيح.. والكنتان؟ هذا ممكن إذا قبلت الكنة أن تسكن معها حماتها. ولكن عقلي لا يستوعب أن تسكن شهوار مع كنة تحت سقف واحد."

مرت غمامة هم من وجه قدرت البركان العريض والوسيم. يعرف، يعرف هذا، المهم هل تتركه شهوار؟ إنها بليته. ستلاحقه حتى القبر، وبعده ستلاحق الولدين، وبعدهما البنت لتكون بليّة على رؤوسهم، وتجعلهم لا يستمتعون بحياتهم.

كان يعرف أن عمر أمه لن يطول لرؤية البيت الذي لن يستطيع بناءه حتى بعد سنوات طويلة. فهي أصلاً امرأة على عتبة السبعين، وتذهب يومياً إلى العمل.

فجأة رن جرس الطابق بجنون، وكأن قنبلة لم تكن بالحسبان قد سقطت بين الأم وابنها قفزا مرتبكين. وبينما ركضت الأم لتفتح الباب ذهب قدرت البركان إلى غرفة النوم وهو يحمل حقيبته وأغراضه. فإذا كانت شهوار القادمة يجب أن تراه في غرفة نومهما وليس في غرفة أمه.

كانت القادمة أليف. دخلت إلى البيت بانفعال كالعاصفة: "هل أتى أبي؟ صحيح؟ أين هو؟"

نادى من الداخل: "أنا هنا يا ابنتي، أنا هنا!"

ركضت أليف: "هل جلبت نقوداً كثيرة؟"

وقفت جدتها بباب غرفتها، وقالت: "آآ، يا ابنتي. قبل النقود، اسألي والدك عن أحواله وصحته. هل الرجل بصحة جيدة، أم مريض؟ أي ابنة هذه، لا أفهم..."

احتجت الفتاة على جدتها بحركة عنيفة: "إيه.. لا تتدخلي أنت!"

في تلك اللحظة بالضبط قرع الباب من جديد. ركضت الجدة مرة أخرى وفتحت الباب. كان الولدان هذه المرة.

قال طونتش: "يا سيد قدرت. يا حضرة السيد قدرت!"

أضاف يالم: "بشرفي التقطت أمي عصا ضخمة وهي قادمة!"

كأن عرقاً بارداً بدأ يتصبب من ظهر قدرت البركان فقال: "لماذا؟ ماذا فعلت؟"

قال طونتش: "ماذا ستفعل أكثر من هذا؟ لماذا لم ترسل نقوداً؟"

أضاف يالم: "صار دين البقال قد الدنيا!"

ثم بدأ الأبناء الثلاثة يتحدثون بشكل متداخل: "لا تعرف طبع أمي، أليس كذلك؟"

"دائماً تفعل هذا!"

"لماذا؟"

"الآن عندما تأتي أمي تسأل لماذا؟"

"..............."

"..............."

"..............."

دخلت الجدة المؤنبة عدة مرات متتالية إلى غرفتها وهي تبكي، ووقفت لتصلي المغرب. عندما كانت تقرأ الدعاء وصل ضجيج شهوار وهي تصعد الدرج. كان باب الطابق مفتوحاً أصلاً: "هذا يعني أن حضرته استطاع أن يشرفنا في النهاية. مع أنني كنت أظن أنه قد مات في إحدى الزوايا. أين، أين هو؟"

قفز قدرت البركان بسرعة السهم وهو بارد كالثلج، وقلبه يخفق بشدة: "أنا هنا يا زوجتي العزيزة!"

قالت شهوار وقد ذهب حول عينيها إلى أقصى حد: "يااا. يعني

أنت هنا؟ هذا يعني أنك استطعت أن تتذكر في النهاية أن لك بيتاً وأولاداً. يا قدرت البركان، يا حصيرة عتيقة، يا صفيحة زبالة..."

قالت الجدة بصوت مرتفع من غرفتها: "صدق الله العظيم!"

تركت شهوار الابن، والتفتت إلى الأم: "ما هذا يا عجوز؟ هل دخلت مثل الشيطان بيننا؟"

قالت وهي تجلس على سجادة الصلاة: "عيب، عيب.. بين أولادكم الذين بطولكم... هل تخاطب زوجة زوجها على هذا النحو؟"

امتقعت شهوار بالحمرة: "انظري إلى شغلك أنتِ!"

التفتت إلى زوجها: "إيه، احك لنسمع يا سبع النفخ؟"

ضحك الأولاد مقهقهين.

من الداخل: "لا حول ولا قوة إلا بالله.."

صرخ طونتش: "اخرسي ياه."

قالت شهوار: "كللت ومللت من هذه الأم الخرفانة. نعم أجبني، أجب. أين كنت تستعرض طولك طوال أسابيع؟"

أجابت بنفسها على جوابها: "أين سيكون؟ داخ عندما أحاطه الاحترام من هنا وهناك، ونسي المرأة، والزوجة، والأولاد، أليس كذلك؟"

كح قدرت البركان بشكل خفيف على يده المكتنزة، ثم قال: "لا. كنت في مأزق كبير.." وتذكر فجأة: "ها، رأيت إدريس؟"

سألت شهوار بإيحاء: "لا.. لماذا؟"

"كانت ستأتي امرأة اسمها سما.."

"من هذه المرأة؟"

"كانت خليلة عند صاحب فندق في إحدى مدن الأناضول، وتعرفت

عليها. لجأت إليّ، حتى إنها أمنت عندي ذهبياتها لأعطيها إياها هنا. كنت سأقول، إنني سأعيدها لها إذا كانت قد أتت."

لم تغير شهوار موقفها: "تعطيها لها عندما تأتي. حسنُ، كم لدينا من النقود؟"

"حوالي الخمسة آلاف."

"حوالي خمسة آلاف؟ هذا فقط ما جنيته خلال ثلاثة أسابيع؟"

"لا تسألي عما حلّ بي... سبب تأخري هو تعثر أموري في آخر محافظة ذهبت إليها. كدت أخرب الأمور كلها..."

"لماذا؟"

"تعلق بي حوذي قذر. الرجل اللعنة جعل من البرغوث جملاً. أجج المدينة كلها.."

حكى لها عما جرى له بحسب ما يناسبه. فلم يفتح لها حديث الذهبيات التي أعطته إياها زوجة صاحب الفندق ليعطيها لسما، ولا عرضه الزواج على سما.

في النهاية قالت له شهوار: "هل انتهى؟"

قال قدرت البركان بشكل طبيعي جداً: "انتهى."

"يعني هذا كل شيء؟"

بدا كأنه يشك بشيء، فقال: "هذا كل شيء يا زوجتي العزيزة، ماذا سيكون أكثر من هذا؟"

"حسنُ، هات الخمسة آلاف لكي نرى!"

أخرجها قدرت البركان، وأعطاها إياها.

"والذهبيات التي ستعطيها لسما أيضاً!"

"أخرج الذهبيات، وتردد وهو يعطيها إياها. فجأة شك بالأمر بشكل عجيب. لأن زوجته سحبت الذهبيات من يده وأخذتها.

"حسنٌ يا قدرت البركان... أين الذهبيات الأخرى؟"

اهتز قدرت البركان كأنه أكل لكمة، وبدأت تتطاير الظلال أمام عينيه.

ها؟ ماذا؟.."

"الذهبيات!"

"ها هي أعطيتك إياها..."

"أسألك عن الذهبيات التي أعطتها لك زوجة صاحب الفندق لتعطيها لسما. أما كنت ستعطيها لسما؟"

بدأ البناء الضخم يدور فوق رأس قدرت البركان. ها قد تعثرت أموره وقعد على الخازوق. قال: "لا" وفكر: كيف ستثبت أنه أخذها من زوجة صاحب الفندق؟

من جهة أخرى ارتبك فيما سيقوله للجدة، وما يجب أن يفعله. فوقف بارداً كالثلج وسط غرفته وهو يفرك بيديه.

فجأة ارتفع صخب في الخارج. بعده صوت شهوار المتوترة: "يا سافل بلا حياء ولا خجل! أين تلك الأم التي لا ترفع جبينها عن سجادة الصلاة؟ يا سيدة القصر المحترمة التي تغضب عندما أقول عن حضرة السيد المحترم قدرت البركان حصيرة عتيقة، وصفيحة زبالة!"

ذهبت إلى غرفة الجدة، وأشعلت النور. ارتبكت الجدة فيما ستقوله، وبقيت واقفة في غرفتها.

بدأت شهوار تصرخ: "أين؟ دافعي عن ابنك! دافعي عن ابنك

الشريف جداً يا حضرة السيدة! دافعي عن مكانة ابنك السافل الذي أقلق راحة امرأة من الناس، وعرض عليها الزواج!"

لم تستطع ضبط انفعالها، فعادت، والتقطت مزهرية وقذفته على رأس "مفتش المفتشين". ولكن المزهرية اصطدمت بالجدار المقابل لأن الرجل انحرف قليلاً، وتحطمت، ثم انهارت، وبدأ يخرج الزبد من فمها كأن نوبة هستيرية قد انتابتها.

بدأ الولدان والبنت ينظران إلى أبيهم، وجدتهم بحقد، وهرعوا إلى أمهم. وكلونيا، وماء الزعتر، وروح النعناع... أحدهم يفرك معصمها، والآخر جبينها بالكلونيا.

وبينما كانت أليف تبكي نشيجاً، صرخت بأبيها: "لماذا تقف هكذا؟ اركض إلى الطبيب!"

قفز قدرت البركان بسرعة غير متوقعة من جسمه الضخم. نزل الدرج ركضاً. مهما يكن فقد أنقذ من ذلك البيت القاسي ولو لعدة دقائق. حسنٌ، ولكن جبينه كان يؤلمه بشكل كبير. لابد أن ينتفخ حتى الغد. إدريس عرف بقدومه على الأقل. سيخبر الحيوانات الأخرى، وهم سيبدؤون التعليق عليه: "أهلا وسهلاً يا حضرة السيد!"

ارتعد فجأة، فقد شرد. استجمع نفسه بعد ذلك: "أووو.. عاكف أفندي، أهلا وسهلاً..."

"ماذا حدث لجبينكم؟"

"لجبيني؟ لا شيء. اصطدمت بالرف في الظلام.. أنا ذاهب إلى الدكتور. هل هو في البيت يا ترى؟"

"لا أعتقد. فقد كانوا ذاهبين إلى السينما!"

"ألا يوجد طبيب آخر في هذه النواحي؟"

"هناك السيد تونجاي!"

"ها، حقاً.."

ذهب إلى الطبيب تونجاي بوجه مقطب.

بعد ربع ساعة أسعفت زوجته الإسعافات اللازمة. وتمنى الدكتور الشفاء، ومساءً سعيداً، وانطلق في طريق بيته. ولكن ما سبب نظرات أولاده الحقودة؟ ماذا فعل؟

عندما فتحت زوجته عينيها بعد قليل، نهضت من الفراش وجلست: "أجبني، لماذا عرضت الزواج على سما؟ أين الذهبيات الأخرى التي أخذتها أمانة لتعطيها لسما؟"

كان يقسم أيماناً وراء أيمان، ويطلب جلب القرآن ليتوضأ ويحلف عليه. وإثر إشارة لأليف من أمها، هرعت، وجلبت سما، وجاءت.

عندما قالت المرأة الشابة أيضاً: "نعم، نعم.. زوجة صاحب الفندق الشرعية أعطتك ذهبياتها لتعطيني إياها!" انهار على كرسي وهو يتنفس بصعوبة.

ولكن أولاده من جهة، وشهوار من جهة ثانية، وسما من جهة ثالثة... خاصة أن سما كانت تقول: "عيب، عيب.. اخجل من قوامك وهيبتك. خدعتني بقولك إنك أعزب. أليس هذا حرام بحقي؟ كنت أعيش بشكل ما. ماذا سأفعل بعد الآن؟"

في هذه الأثناء غمز بعينه لطونتش دون أن يشعر أحد.

أصدر طونتش صوت: "جق، جق، جق.."

لكز يالم طونش بمرفقه.

استمر التدافع طوال الليل. لم تبق حقيبة أو جيب إلا وفُتش. فجأة خطر ببال أليف احتمال آخر: "أخشى أن يكون أعطاها لجدتي لكي تخبئها؟"

طونتش: "حقا يا!"

اقتنع يالم بهذا: "ممكن، ممكن..."

أصدرت شهوار أمرها العسكري: "فتشوا غرفة العجوز!"

هاجم الأحفاد الثلاثة غرفة العجوز مثل ثلاثة وحوش. مع أنها كانت قد نامت. أيقظوها لكزاً: "ابنك أعطاك قطعاً ذهبية، أين هي؟"

خافت العجوز، وارتعدت. ونسيت كلامها ووعدها. كانت تنظر، وتنظر فقط.

صرخ يالم: "أين هي يا هذه؟"

ولكي لا يبق طونتش أقل من أخيه هزها من ذقنها: "أجيبي يا بومة!"

كانت أليف تبحث في الزوايا والأطراف. تعثرت بسلة طعامها، وكادت أن تسقط، فرفستها بغضب. اصطدمت السلة بالجدار المقابل، وانقلبت رأساً على عقب. ونزلت منها الأشياء التي فيها مع الذهبيات. هجم الأخوة الثلاثة مثل ثلاثة ذئاب جائعة: أساور، أقراط، نقود.. دخلت شهوار محتدة جداً. قلبت "العجوز" على المقعد المطاول: "آه منك يا شمطاء، آه منك يا سافلة!"

غابت الجدة عن وعيها.

كان قدرت البركان يحاول أن يهرب بصعوبة في الصالون، وشهوار تقذفه بما يقع تحت يدها من مزهريات ومنفضات سجائر وغيرها وهي تلاحقه.

أما الأولاد فقد كانوا يصرخون كالجوقة.

- ١٧ -

لا يمكن أن يقع لقدرت البركان أكثر من هذا الذي كان يخاف منه. كان مجروحاً بجبينه ورأسه ورقبته من الخلف. والأسوأ من هذا، فقد سقطت مخططات البيت التي يخبئها في حقيبته بأيديهم، وبدأت شهوار من جهة، والأولاد من جهة أخرى: "ما هذه؟"

ماذا يمكن أن يقول؟ هل يقول لهم: لأنني لا أثق بأحد منكم، سأبني بيتاً كهذا، من أجل أن أضمن شيخوختي، وأدس رأسي فيه"؟ أم يقول: "أنا أخاف من لعبة التفتيش والجباية، ومرارتي تنقطع رعباً من أن أكشف وسأدخل السجن، وعندما أدخل السجن تمحق حياتي تماماً، وسئمت من هذه الحياة. افهموني. أخاف، نعم أخاف أن يقبض علي؟

أما شهوار والأولاد، فطالبوه بتفسير: "أجب، ما مخططات البيت هذه؟"

الطريق الأقصر هو إبعادهم عنه لذلك قال: "لا شيء يا أعزائي. رسمتها في وقت فراغي فقط!"

خطر بباله أمراً أكثر إقناعاً، فقال: "يا أعزائي! من أجل أن أفرض الثقة على المحيط في أثناء التفتيش، من أجل أن أقنعهم بأنني مهندس الشؤون الفنية أو مفتش مثلاً، أحتاج مجموعة من المخططات، والرسوم

الأولية. وبحسب الضرورة، أفتح حقيبتي، وأنشرها على الطاولة لمجرد الخديعة. ومن يراها.."

إذا كان الأولاد قد اقتنعوا، فإن شهوار كان تقول: "هذه ليست من ذلك النوع. كلها تقريباً مخططات بيت صغير مؤلف من غرفتين وصالون، وفي الأسفل دكان. لا يمكن أن تقنعني بهذا. أجب. يا محتال! أجب ولاه!"

"أي جواب يا زوجتي العزيزة؟"

"ما هذه؟ لمن تفكر أن تبني هذا البيت، ولماذا؟"

بعد أن أخفى هذا مدة طويلة، ألقى كلامه: "من أجل أن أدس رأسي يوماً ما!"

التقطت شهوار نيّة زواجه الجديد: "حسنٌ، ونحن؟"

"أنتم، يعني أنتِ والأولاد.. سيكون واحد من الولدين محامياً، والآخر طبيباً. البنت ستتزوج. وبما أنك لا تتركي الأولاد..."

وضعت يديها على خصرها، ووقفت أمامه: "وحضرتك القديرة مع سما أو غيرها، أوووه.. أليس كذلك؟ آه منك يا عديم الشرف، آه يا سافل. هذا يعني أنك ستطردني عندما يستطيع الأولاد تحصيل العيش؟"

كانت تبحث عن شيء تضرب فيه رأس الرجل، أما الأولاد فقد كانوا يضحكون مقهقهين.

قال قدرت البركان مرتبكاً: "بالعكس تماماً يا زوجتي العزيزة، بالعكس تماماً."

"كيف بالعكس تماماً؟"

"أنتم ستطردونني، وفكرت بهذا لكي لا أبقى في الشارع.."

قضى تلك الليلة مفكراً بألم حتى الصباح على الأريكة مسنداً رأسه إلى خشبها، وهو بين النوم والصحو. ماذا سيفعل الآن؟ جعلهم ينتزعون الذهب والنقود كلها تقريباً. لم يعد عنده قرشاً واحدا غير تلك النقود التي في المصرف، وهي نحو الألفي ليرة. كان يعرف أن المرأة التي حصلت الآلاف الخمسة منه لن تدفع حتى دين البقال. ستبقى الديون، وهناك أمه التي نُكّل بها... بقي أن شهوار والأولاد يعتبرون المرأة المسكينة "شريكة بالجريمة" مع ابنها، ويعتبرونها "حامية" لجريمة ابنها، ويشاكسونها بين فترة وأخرى، ويوجهون إليها مختلف الإهانات.

عندما خرج صباحاً وهو ممتلئ بالجروح، كانت زوجته والأولاد، وحتى أمه نياماً. وكان هناك أكثر من ساعة لموعد ذهاب أمه إلى العمل. في قدميه الحذاء الأصفر الموقع، وعلى رأسه القبعة الأسطوانية، وبيده التي يضعها خلف ظهره حقيبته الصفراء.

كان البقال عاكف يفتح دكانه في تلك اللحظة. رأى الرجل قادماً إليه وهو يرفع باب دكانه السحاب، فالتفت فرحاً: "خير يا حضرة السيد.. خير من الصباح الباكر هكذا؟"

أما هو فقد جاء بهيبة موظف رفيع المستوى أو نائب في البرلمان، أو وزير بالضبط. وتوقف لحظة بجانب البقال: "كيف حالك لنرى؟"

"شكراً لك يا سيدي."

"أودعت نقوداً مع السيدة. ستأتي، وتسدد لك الحساب!"

"أرجوك يا سيدي، لِمَ العجلة؟"

"لا يا عاكف أفندي. خذ مالك، وأعطني ما لي. هل ديننا كبير؟"

"هل أنظر يا سيدي؟"

"تقريباً يا عزيزي."

"ألفي ليرة تقريباً يا سيدي.."

أطلق قدرت البركان صفير دهشة، ثم استجمع نفسه: "قل احترقنا."

"سلمتم يا حضرة السيد.. كان ممكناً ألا يبلغ الحساب كل هذا. كان استهلاك الويسكي هذا الشهر كبيراً إلى حد ما.."

دهش قدرت البركان: "استهلاك الويسكي؟"

"نعم يا سيدي. السيدة زوجتكم، استهلكت كل ما أخزنه من الويسكي تقريباً!"

ماذا يمكنه أن يقول؟ مضطر أن لا يجعل من هذا الأمر قضية: "المهم، الله يديم الصحة. ماذا سنفعل؟ لو كنت مثل بقية البقالين لا تبيع غير العرق والفودكا، لما استطاعوا أن يأخذوا ويشربوا..."

"ماذا ستفعلون يا حضرة السيد؟ مثل حضرتها القديرة هناك زبائن أكابر يطلبونها! وإلا فهذه ليست من عادتنا كما تعلمون. البقالون لا يبيعون الويسكي!"

"هيا، جعله الله خيراً.."

"مع السلامة يا حضرة السيد."

ظط، ظط، ظط.. ابتعد. اعتادت المرأة الآن على الويسكي. صار عليه من الآن فصاعداً أن يدفع نفقات الويسكي. هل تستأهل هذا؟ هل تستأهل المرأة الساحلة العينين الصغيرتين إلى جذر الأنف كل هذا؟

تنهد مهموماً. لم يكن في جيبه سوى بضع ليرات. مع أن أحلامه كانت كبيرة! كان سيأخذ نفساً ويرتاح لشهرين أو شهر على الأقل

بخمسة آلاف ليرة وكسور. وحتى إذا خرج مع إدريس والآخرين "للتفتيش" في اسطنبول أحياناً، فإن رأسه سيكون مرتاحاً أيضاً.

لم يكن في المكتب غير إدريس في الوقت الذي وصل فيه. كانت على الطاولة والأرض جريدة "أخبار العمل والعمال"، وهنا وهناك "صوت الكسبة".

قفز إدريس من خلف الطاولة وكان ينتظره كما لو أنه ينتظر حاجاً: "تفضل. ما هذا؟ ما هذه الجروح، والكدمات؟"

دخل مهموماً، وجلس على طرف: "لا تسأل!"

كان إدريس ينتظر بفضول.

بعد أن تنهد إدريس مهموماً، قال: "لا يوجد أكبر من هذه الكارثة يا إدريس!"

حكى كل شيء، ودون إخفاء أي تفصيل.

ازرق إدريس نتيجة خوفه لمعرفة أن النقود كلها راحت للمرأة. أجرة المكتب والبيت، وأجرة بيوت الأصدقاء، وديون البقال والقصاب والخضري..

كأن الذي ينتظر الحاج هو قدرت البركان، فسأل: "ماذا سنفعل؟"

قال إدريس بقليل من الغضب: "كيف أعرف ماذا سنفعل؟ خربت القضية كلها. قلت لك البارحة دع قسماً من النقود هنا، يمكن أن يحدث شيء ما. لم تسمع مني. ها نحن الآن لا نستطيع شرب حتى الشاي. بائع الشاي أيضاً كان ينتظرك كما لو أنه ينتظر حاجاً!"

"حسنٌ، ولكن يا أخي..."

"حسنٌ، وهل يوجد في الأمر ولكن؟ ألا يرسل الإنسان بعض النقود من أجل ترتيب بعض الأمور من المكان الذي يذهب إليه؟"

"كنت سأرسل، لم أستطع. دخلت في وضع معقد.."

"هذا كلام، كل هذا كلام..."

نهض قدرت البركان عن الكرسي الذي يجلس عليه، وبدأ يذرع الغرفة بوقع أقدامه الصادر عن حذائه الأصفر. إن هذه السفالة من النوع الذي لا تجدها حتى لو بحثت عنها، فلا يمكن مضغها أو ابتلاعها."

"هل لديك سيجارة؟"

"إذا كان معك فاعطني!"

تنهد بعمق. وقف أمام طاولة إدريس: "كم كان الأمر جيداً في الماضي، أليس كذلك؟ لو أننا لم نأت إلى اسطنبول. كانت بلدة، والقرويون المهذبون يجلبون الزبدة والعسل والجبن، وكان أصحاب المصالح يقدروننا أعز تقدير!"

لم يكن لدى إدريس وقتاً للتخيل والشغل على الماضي: "دع عنك هذا الآن.. ماذا سنفعل؟"

سأل مندهشاً: "ماذا سنفعل بماذا؟"

"نقود، تلزمنا نقود!"

"حسنٌ، ماذا فعلتم في غيابي؟"

"بماذا؟"

"ألم يقع حادث عمل، ألم تخرجوا في جولة تفتيشية؟"

"هل يمكن هذا من دونك؟"

"هل هناك أشياء جديدة؟"

"ليأت الجمل ونرى. كان يتكلم عن بعض الأمور. سقط بناء أو ما شابه في لوند. ويقول الآخرون إنهم سمعوا ببعض قضايا الفساد في

أمكنة ما. إذا أتوا الآن، اخرجوا إلى العمل دون تضييع أي وقت، ولنتخلص من الإفلاس!" ثم أضاف: "جبينك، ووجهك مشطب، ومتورم. لا يمكن أن تذهب إلى التفتيش على هذا النحو يا أخي!"

بعد نصف ساعة جاء "الجمل" صاحب اليدين والقدمين الضخمتين. وعندما رأى قدرت البركان، قال: "واخ، السيد المفتش.."

وعندما رأى وجهه ويديه دهش، وقال: "هل سلختك المرأة مرة أخرى؟ ما أحوال وجهك هذه؟"

قال قدرت البركان: دعك من هذا. منذ البارحة وأنا أخرج من أنفي ما رضعته من أمي!"

"لماذا؟"

وبينما كان يذرع المكان قال: "ليحك لك إدريس.."

اقترب الجمل من إدريس الجالس خلف الطاولة، وبدأا يتحدثان همساً: "هل أكل العلقة من امرأته مرة أخرى؟"

"دعك يا هذا، ألا ترى وجهه؟"

"النقود؟"

"طيرها!"

"لمن؟"

"للمرأة القذرة.."

"لا تقلها؟"

"بشرفي."

"حسنٌ، ماذا سنفعل؟"

"من أين سأعرف أنا؟"

نهض الجمل غاضباً من جانب طاولة إدريس: "ولاه، إنك لا تستطيع أن تسوي شيئاً بيديك الاثنتين. رأيت الكثير، ولكنني لم أر واحداً فاشلاً مثلك!"

نظر قدرت البركان متألماً. ضربه الجمل ضربة خفيفة على صدره، وقال: "حسنٌ، كيف سندفع الآن أجرة بيوتنا؟ ودين البقال والقصاب والخضري؟ كيف سيدفع إدريس أجرة هذا المكان؟ ودين بائع الشاي؟"

غضب قدرت البركان: "يا ناس، لماذا تربطون قدركم كله بي؟ ألم تقوموا بأي عمل في غيابي؟ وإذا لم تقوموا، فلماذا؟"

قال الجمل: "اسمع ما يسأله هذا الثور! ولاه، أنت شرفنا. لولاك كيف يمكننا أن نتدبر تلك الأحابيل؟ ثم ما قضية تلك المرأة ولاه؟ قلت للمرأة إنني أعزب، ولنتزوج؟."

ضحك بشكل لا إرادي، وقال: "يا هذا خرجت في طريقي، وامرأة مثل النخاع. ماذا أفعل؟ قلت لنفسي أرسلها إلى إدريس في اسطنبول. ويخبئها إدريس في مكان ما. وبعد أن أعود."

"كل ما يأتي من الله جيد، أليس كذلك؟"

"هذا كل شيء!"

"زوجتك المشاكسة كانت هنا. ولكن ابنك كان ينظر إليها كأنه سيأكلها.."

"طونتش؟"

"ماذا حدث للمرأة الآن؟"

"خربت كل شيء، لا تسأل!"

بينما كان يحكي كل شيء من البداية، جاء القصير، والأخضر

العينين والآخرون. اكتملت "هيئة التفتيش". وبعد أن استمعوا بطلاوة لما شرحه قدرت البركان، قالوا: "النقود، ما هي أخبار النقود؟"

ضايقته مثانته، وبينما كان خارجاً، قال: "ليحك لكم الجمل."

تحلق "الفقراء المهمومون" الذين ينتظرون قدرت البركان كما يُنتظر الحاج حول الجمل: "ما أخبار النقود يا جمل؟"

"يبدو أنه مفلس ها؟"

"بشرفي لا أستطيع الذهاب إلى البيت هذا اليوم. قطع صاحب البيت تذكرتي بكل معنى الكلمة!"

"وأنا؟ بعد أن قطع البقال تذكرة لي، لم يعد معي ثمن خبز. تركت الأولاد جائعين."

قال الجمل: "دعوا ولاه هذه النغمة التي ترددونها في كل وقت. لا يوجد نقود، لا يوجد!"

كما لو أن صاعقة نزلت عليهم.

أضاف الجمل: "أخذت المرأة القذرة منه النقود!"

قال الضئيل الأخضر العينين: "كيف؟"

"وهل فيها كيف؟ قال لنفسه سأعمل فيلماً، فصار حال الغبي فيلماً. ألا ترون وجهه، وجبهته، وبقية أعضائه؟ ما هذه التشطيبات؟ والكدمات؟"

وبعد لحظة من الصمت الأسود الداكن، بدأ الكفر والشتائم والشكاوى:

"ربك، وكتابك.."

"أرضك وسماؤك.."

"ما أقذر هذه المرأة ولاه!"

"كم ليرة سحبت منه؟"

"خمسة آلاف وكسور!"

"خمسة آلاف وكسور ها؟"

"تبين أنه مخبول بكل معنى الكلمة يا!"

"غبي فظ."

"إنه ليس الرجل الذي يبديه قوامه، والسلام!"

"..............."

"..............."

"..............."

كان إدريس خلف الطاولة يستمع فقط. في النهاية وجد أن الحديث سيطول، فتدخل: "يجب أن نخرج في تفتيش دون أن نضيع الوقت!"

لم يكن هناك حلّ آخر بالنسبة إلى الجمل أيضاً، فقال: "هذا كل شيء." ثم التفت إلى الرجل الضئيل الأخضر العينين: "أين وضعت جريدة البارحة؟"

تناول الرجل الضئيل الأخضر العينين الجريدة من على الرف حيث وضعها، فتحها الجمل بسرعة: في عمود أخبار المدينة القصيرة خبر قصير مؤلف من عدة أسطر. وقع حادث عمل في ورشة بناء في منطقة لوند، ومات عامل، وجرح عدة عمال آخرين.

بعد أن عاد قدرت البركان من دورة المياه قال الجمل: "هيا لكي نرى يا محتال. شمّر عن ذراعيك!"

أطرق قدرت البركان برأسه: "ارحموني يا ناس، لحظة وصولي مباشرة؟"

"وهل لدينا حل آخر يا صديقي؟ القوم كالأجراس من الإفلاس!"

تناول الجريدة، وقرأ خبر حادث العمل القصير. هل تقدم به العمر، أم ماذا؟ إنه يشعر بسأم رهيب تجاه دوره. كان سأماً عجيباً. لم يكن يريد، لا يريد. لا يريد، ولكنه لا يستطيع إقناع المرأة التي في البيت، وأصدقاءه في الخارج. يعتقدون أنه يخدعهم. وسيلعب لعبة خاصة، ويتجاوزهم!

قال الجمل: "أنت جاهز؟"

نظر إليه بعينين خاويتين تماماً: "جاهز على ماذا؟"

"هل نخرج إلى التفتيش؟"

خطر بباله البيت الصغير خارج المدينة بغرفتين، وتحته مقهى أو بقالية. ولكن هذا البيت تلاشى في أفق بعيد جداً!

أدار عينيه إلى الجمل، ثم إلى الآخرين. طابور من العيون السود، والشهلاء، والزرقاء، والخضراء تنظر إليه بحقد. الحل الوحيد للتخلص من هذا الحقد هو تلبية رغبتهم.

تمتم قائلاً: "نحن ذاهبون."

بينما كان القصير الأخضر العينين خارجاً من الغرفة، توقف لحظة بالباب، وقال: "أوقف سيارتي أجرة، أليس كذلك؟"

قال الجمل: "نعم. ولكن لتكن السيارتان جديدتين!"

"طبعاً، طبعاً."

ترك قدرت البركان نفسه على كرسي مريح، ينظر إلى ظلمة المر

عبر الباب الذي خرج منه صديقه قبل قليل لجلب سيارتي أجرة. لم يكن يرى. ثمة خوف يرتجف بداخله منذ أيام. وفي الحقيقة إنها ليست أياماً، بل يتأرجح هذا الخوف منذ سنوات، ولكنه ازداد كثيراً في الأيام الأخيرة. يبدو له أنه سيقع، ويقبض عليه، ويوضع القيد بيده، ويلقى إلى السجن. كان خائفاً من السجن. إنه يعرف طعم سجن البلدة التي عمل فيها كاتباً في النفوس قبل سنوات طويلة. لا تمر أيام، بل ساعات، وحتى دقائق لتهبط على داخله غيوم سوداء ثقيلة محملة بمطر الهم، فيغدو كأنه يدوخ. إذا صرخت لا تستطيع الصراخ لأنهم سيقولون إنك مجنون، وإذا بكيت فلا تستطيع البكاء لأنهم يسخرون منك، إذا أردت أن تتحدث فماذا ستقول؟ في الأيام الأولى لدخوله السجن تحدث كثيراً ما أراد أن يتحدث به واستنفذه. الاستماع إلى أحاديث الآخرين! شبعت هذا، ومللت منه. إذا كان هناك من يحكي شيئاً، فهو يحكيه خمس، أو عشر، أو عشرين مرة. وفي كل مرة يتغير. لا تستطيع أن تقول له كذب. إذا قلت، يغضبون، ويشتمون، وينمّون عليك. وهذا لا يفيد إلا بجعل العداوات تكبر بسرعة. تكبر العداوات، وتنتفخ، وتتوسع. ولأسباب تافهة تتحول إلى شجار كلامي كبير، وتسحب السكاكين، ويطعن الناس...

"إيه يا محتال.. احك لنا لنسمع!"

أدار عينيه نحو الجمل. كان محملقاً بعينيه، ومنصتاً بأذنيه الشراعيتين. كان هذا الرجل يوتر أعصابه كثيراً. هذا فقط؟ هذا أيضاً، وذاك، والآخر، وحتى إدريس صاحب النظرة الجنية أيضاً. لقد غدا منذ سنوات طويلة البقرة الحلوب، وبغل العجل للمرأة والأولاد في البيت،

وللأصدقاء في المكتب. خاصة هذا الجمل! ولاه، بنيت عمارة ضخمة في قادرغة. من أين؟ هذا لا يعرفه حتى الجان. "ليكن من أينما كان يا ابني. ما علاقتك؟"

جاء ووضع يده على كتفه: "احك ياه!"

لو كان مكانه، أي لو كان عنده عمارة مثل عمارته في قادرغة، وترك المرأة والأولاد، وذهب من هنا، إلى بلدات الأناضول التي تعرف القلب والإنسانية، فلا هناك من يناديه "محتال"، ولا امرأة تقذفه بالأشياء. المرأة المقرفة راكمت عند البقال ديناً بألفي ليرة لن تدفعها، لا يمكن لها أن تدفعها. لئلا يمسك بها عناد البغال هذه المرة. ها هو قد أمسك بها. وأي عناد أيضاً!

اقترب الجمل من إدريس بهدوء: "رجلك يفكر مرة أخرى بشؤم!"

هز إدريس رأسه وهو يضحك، وقال: "إيه، عندما يأكل العلقة من الزوجة يفكر هكذا بعمق دون أن يعرف ما سيفعل!"

"ولكن حياته ليست حياة يا!"

"لئلا يصل هذا إلى أذنه."

"الرجل محاصر بشكل سيئ جداً!"

"حكيت معه كثيراً في زمن ما، ولكنني لم أستطع إقناعه. أمه تلك، أترى أمه تلك؟ وجدت شهوار حيث وجدتها وجلبتها. من هي؟ تقول إنها ابنة باشا. قلت له دعك من الخبل، والأعزب سلطان، ولكنني لم أستطع إقناعه. لو أنه أعزب الآن.. ها؟"

"لو كان أعزبا للعب بالنقود لعباً بشرفي.."

"لا أفرحت المسكين زوجة، ولا أولاداً!"

"إذا أسلم الرجل الرسن للأولاد والعائلة، فاقطع منه الأمل!"

جاء الرجل القصير صاحب العينين الخضراوين منهمكاً: "هيا السيارتان جاهزتان!"

قال الجمل: "هل هما جديدتان؟ لامعتان؟ ملكتا السيارات؟"

"شيفروليه موديل عام ١٩٥٦، وبعرضي كل منهما مثل البنت!"

اتخذ إدريس موقف الجد: "هيا، نحن ذاهبون!"

اتخذ قدرت البركان هيبة مفتش كبير ورئيس هيئة تفتيشية مسؤول في البلدية، أو الحكومة، أو الدولة، أو في أي مؤسسة أخرى، يقوم بتفتيش مفاجئ. نسي التشطيبات والخدوش في وجهه، والكدمات في جبينه.

الجمل هو موظف ثرثار في الهيئة التفتيشية. يجلب السيارات، ويحمل حقيبة سوداء كبيرة، و"جابي الهيئة التفتيشية"، والآخرون منهم موظف مسؤول، ومنهم سكرتير، ومنهم طبيب، أو ما شابه ذلك.

خرجوا من المكتب ببطء. عبروا الممر والدرج، ونزلوا إلى الطابق السفلي، ووصلوا إلى باب بناء المكاتب. كانت السيارتان حقيقة آخر طراز، متلامعتان، وإحداهما سوداء كبيرة، والأخرى كبيرة أيضاً، بيد أنها كحلية.. والسائقان أيضاً اعتقدا بأن قدرت البركان "رئيس هيئة تفتيشية" بوقع قدميه، فقدما له الاحترام بانفعال وهما وراء المقودين. قدما التحية "لحضرة السيد".

هرع الجمل بيديه وقدميه الضخمة، وفتح باب السيارة الأمامية: "تفضل يا حضرة السيد!"

أما هو، أي قدرت البركان، فقد دخل إلى السيارة بقبعته

الأسطوانية، ويحمل حقيبته الصفراء. جلس السائق خلف المقود كأنه تأخر عن عمل ما: "إلى أين يأمر حضرة السيد؟"

قال الجمل باحترام وهمس وكأنه مساعد حضرة السيد للسائق الذي جلس في مكانه: "لوند!". ركب إدريس وحامل الحقيبة السوداء، والآخرون في السيارة الخلفية. انطلقت السيارتان بسرعة الواحدة وراء الأخرى في الشارع.

لم يتخلص قدرت البركان بعد من ضيقه. دع التخلص من الهم، ولكنه بدا كأنه محكوم إعدام يُؤخذ إلى المشنقة. ليس ثمة من يفهم هذا. كانت زوجته تعتقد أن زوجها يسيّر الأمور بسهولة كبيرة، وأنه يقوم بأعمال تنجز تلقائياً، وتتدفق الآلاف وعشرات الآلاف إلى جيبه، و"الرجل" يخبئ النقود نتيجة سفالته. لم تكن زوجته فقط، بل حتى أصدقاؤه بمن فيهم إدريس لا يؤمنون بأنه لا يملك نقوداً، وعلى الأقل خمسة عشر ألفاً أو عشرين ألفاً. أمه فقط - كم هي طيبة هذه الأم!.. لم تشك بأن ابنها يكذب، وكانت تصدق كل ما يقوله فوراً، وعندما تجد الفرصة تضع رأس "قدرت المدلل" الضخم والشبيه جداً برأس أبيه كما كان قبل سنين طويلة على ركبتيها، وتداعبه ساعات طويلة. ولأنها تعتبر نفسها مذنبة بوقوعه بهذه الأحوال بين يدي هذه المرأة المقرفة، فكانت تشفق بداخلها عليه. لقد وصلت إلى الستين، وأكملت دورة عمرها. وإذا جاء "أمر الله الحق"، وأغمضت عينيها فهي لا تخاف من الموت بل تخاف على صغيرها من الأهوال التي سيراها على يد "هذه المرأة البشعة" عندما تمحى من الوجود!

"في أي جهنم أنت يا قدرت؟ الزبال، جاء الزبال!"

يركض هلعاً قدرت، قدرتها، عزيزها قدرت، وحيدها وصغيرها، وعينيها، الضخم الذي لا يتسع له الباب حتى لو كان في دورة المياه، ويلتقط الصفيحة القذرة الصدئة، ويلحق بها الزبال. أما الولدان الشبيهان بخازوقين فكانا المدللان لا تطلب أمهما تطلب منهما شيئا، ولا أحد منهما يبادر لالتقاط الصفيحة من يد أبيه.

إذا كانت السيارتان المارتان في الشوارع إحداهما خلف الأخرى بسرعة لا تبثان الهلع في المحيط، فهما تلفتان الانتباه. أحياناً تفتح شرطة المرور مصابيح مفارق الطرق عندما تهدئ السيارات من سرعتها. في أحد المفارق لم يستطع شرطي المرور كبح نفسه فحياهم وكأن في السيارة الأمامية رئيس الحكومة، وفي الخلفية رجاله.

لم يكن قدرت البركان حتى منتبهاً لتحية الشرطي. انطوى على نفسه في زاوية السيارة، وكأنه "مساق إلى الإعدام". لماذا لا يتركونه براحته الآن؟ لم يكن لديه رغبة بالعمل والاحتيال على بعض الناس. كان شخصاً مختلفاً تماماً في تلك اللحظة. كان طفلاً، أو حمالاً خوافاً ومتوجساً وجائعاً وطفراناً، أو لصاً فاشلاً. نزلت عليه مسكنة العالم كله، وكأن الناس الذين احتال عليهم دائماً قد كبروا، وكبروا، وكبروا. لماذا يضغطون عليه؟ لم تكن لديه رغبة. ماذا حدث عندما جاء؟ ماذا حدث للنقود التي سحبها من أصحاب المحلات الذي أدخلهم القفص؟ ألم يكن كل هذا مقابل سكنه في شقة، واستلافه بمختلف الأقساط، وعدم استطاعته دفع الدين، وهروبه بعيداً جداً، وتغييره الطرق نتيجة خجله من عدم دفع الدين، وتناوله طبق طعام، وعلى الأكثر طبقين؟ وحتى ذلك "البيت الصغير" الذي تبرعم في عقله عبر السنين، وأطلق أغصاناً

وفروعاً وجدوه كثيراً عليه، ومزقته الأيدي الفظة بعد أن كان يمنحه أكثر الخيالات طزاجة في الليل.

خطر بباله أن يُشعل سيجارة، ولكنه تراخى. ماذا سيحدث؟ ما الذي سيتغير إن شرب أو لم يشرب؟ الأفضل على ما يبدو هو الموت. لو يحدث زلزال، ويكون جالساً بجوار أمه، ويبقيان تحت الأنقاض. تهيجت انفعالاته. يجب أن لا يترك أمه وسط هذه الدنيا الغدارة، ووسط أولئك الناس الغدارين. فإذا ذهبت، سيشعر بنفسه أكثر وحدة، وأقل سنداً، وستضعف رغبته بالحياة.

تنهد تنهيدة عميقة، ونظر إلى المحيط الذي يمر منه بخوف. يا لطيف، بدأت عينه اليسرى ترف. جرّب رف عينه اليسرى كثيراً. في إحدى المرات خرج مع أصدقائه "للتفتيش والجباية" ولم يكن مهموماً نصف الهم الحالي، ولعب دوره بشكل جيد جداً، الا أن الأمر لم ينطل على صاحب المحل الذي فتشوه، ووقف بوجوههم. ماذا لو حدث هذا مرة أخرى؟ ماذا لو وقف الرجل بوجوههم؟ وإذا وقف بوجوههم،وطلب الشرطة؟

"هل نأخذ استراحة في هذا المقهى يا حضرة السيد؟"

كأنه استيقظ من نومه. نظر إلى الجمل. لن يكون سيئاً، ولكن من سينزل من السيارة؟ من سيجلس على كراسي القهوة الخشبية، ويشرب القهوة؟ بدا له أن قوته لن تساعده على كل هذا. كأن جناحه قد انكسر، والقوة والهوس والرغبة التي بداخله مثل بالون ثقب بإبرة وطار.

رغم هذا، قال: "لا، سنتأخر على التفتيش!"

قال السائق لنفسه: "هاا.. مفتش!"، وضغط على الوقود، ثم رغب بأن يسأل: "أين ستفتشون يا حضرة السيد، ولكن خشي من ضيق

الرجل، وجديته، فتخلى عن السؤال. هو لا يصادف دائماً "كباراً" كهؤلاء، وكما هناك الفيل أكبر من الجمل، أراد أن يشتكي من شرطة المرور الذي يدققون كثيرا، وهم قريبون منه كثيراً. وقد تخلى بسببهم عن العمل على سيارة الخدمة. كيف لا يتخلى وإذا ما أخذ راكباً يعد مخالفا، وإذا أنزل راكباً يعد مخالفا، وإذا نظر يميناً مخالف، وإذا ضحك تسجل عليه مخالفة...

"توقف يا شاب!"

أوقف الجمل السيارة في المنطقة التي لا يعرف رقمها من لوند. نزل وفتح باب "السيد المفتش" باحترام. وكانت قد وصلت السيارة الخلفية في تلك الأثناء. جاؤوا إلى جانب "رئيس هيئة التفتيش، ومعاونه" اللذين نزلا من السيارة باحترام. سار "السيد الرئيس" في المقدمة باهتمام. كان واضحا أن السيارتين ستنتظران. فكر الجمل الذي ينسل خلف "السيد الرئيس"، ملتفتا إلى السائقين، وقال لهما بجدية رسمية: "انتظرا، سنعود!"

تُرك الجزء المنهار من البناء كما هو عليه. كان البناء غير المأهول، وعلى الهيكل منتصباً وخاوياً. انحنى قليلاً نحو الأمام.

سار الجمل إلى البناء في المقدمة. توقف، وتلفت إلى اليمين وإلى اليسار.. يبدو أنه ليس هناك أحد. نادى: "هيه، أليس هناك أحد؟"

لم تظهر أي حركة في البناء المائل إلى الأمام. كان قدرت البركان ممتناً، وحتى فرحاً. إن شاء الله لا يكون هناك أحد في البناء. هذا ما يُفرحه. عندما يفرح، يتخلص من الشعور بالفشل الذي هبط عليه، فانشرح: "الله، الله..."

التفت إلى قدرت البركان باحترام: "هل أدخل وأتفقد الداخل يا سيدي؟"

وبينما كان يقول لنفسه: "إن شاء الله لا يكون هناك أحد!"، قال: "ادخل!"

كفر الجمل العائد بعد خمس دقائق قائلاً: "الله، والقرآن.. لا يوجد أحد!"

انشرح قدرت البركان، وكأن جبالاً نزلت عن ظهره. نظر إلى السيارتين المتوقفتين بعيداً، وقال: "ماذا سنفعل؟"

غضب الجمل: "ماذا يعني ماذا سنفعل؟ إذا لم يكن هناك أحد، فسنذهب إلى شاطئ البوسفور!"

"ماذا يوجد في شاطئ البوسفور؟"

كفر الجمل مرة أخرى: "ولاه، سأنزل بسلالتك كلها يا محتال!"

بكل هدوء: "لماذا؟"

"تسأل لماذا؟ لديك اليوم خبال حقيقي. الرجل يقول لماذا! ولاه، سيارتا الأجرة تنتظران مثل وحشين. تخلينا عن أجرة بيوتنا وديون البقال. لنجد صيداً صغيراً نصرف به سيارتي الأجرة، وغداً يفرجها الله!"

قال إدريس: "السائقان ينظران هناك مثل ذئبين!"

قال الضئيل الأخضر العينين: "أخشى أن يكونا ابنا آوى. لنذهب إلى السيارتين!"

سأل قدرت البركان: "حسنٌ، لنذهب... ولكنكم هل تعرفون مكاناً يجب تفتيشه؟"

قال الجمل: "الله كريم. نجد ورشة صناعة لبن زبادي أو غيرها ونفتشها."

- ١٨ -

كان حي الحوذي مصتق الأقرع كله ناصباً هوائياته ويستمع لشجار الرجل مع زوجته. ويبدو غالباً أنه فهم سبب وضع المرأة في معصمها "سواراً ذهبياً بثلاثمئة ليرة"، وتباهي مصتق الأقرع بعد أن يملأ رأسه بالعرق منذ أيام.

"... الله لا يحرمنا من الحمير. لولا وجود الحمير والمخبولين كيف سيعيش مفتحو العيون مثلي؟"

صوت المرأة الشبيه بالمطحنة يحاسبه دون انقطاع: "أجب، هيا أجب، يعني لم تأخذ المئتي ليرة للمفتش؟"

"افرضي أنني لم أعطه إياها ما علاقتك أنت؟"

"كيف ما علاقتي أنا؟ ماذا أكون أنا لك؟"

"إذا كنت امرأتي، فلستِ الله!"

"حسنٌ، أنا أعرف ما سأفعله غداً..."

"ماذا ستفعلين؟ هل ستعلقينني من لا أدري أين في السقف؟"

"ليأت الصباح وخير إن شاء الله. لن أكون ضرصون العوراء إذا ما ذهبت إلى الأم زينب وحكيت لها كل شي!"

بدا الحي أنه فهم الموضوع: أخذ الحوذي الأقرع خمسمئة لكي

يعطيها للمفتش، وانتزعت زوجته منه ثلاثمئة، ومنذ أيام يسكر بالمئتين!

ومع سماع الحي كله، سمعت الأم زينب بهذا أيضاً. صباح اليوم التالي عندما كانت تمسح أخشاب أرضية المحافظة التي نخرها الدود، جاء حاجب المحافظ الطويل النحيل، وكان شارداً، بل ومتوتراً: "يعطيك العافية يا زينب الأم!"

ارتعدت، ثم هدأت، وتثاءبت.

قال حاجب المحافظ: "ما هذا؟ هل رضعت ولداً في الليل؟"

تنهدت المرأة العجوز: "لا يا عزيزي، أي رضاعة؟ الحوذي الأقرع سكر مرة أخرى، وتشاجر مع زوجته. هي تقول من طرف، وهو يرد من طرف. وهل ترك القذران المجنونان أحداً ينام؟"

لم يكن الحاجب سيتوقف عند الموضوع، ولكن الأم زينب قالت: "المرأة أيضاً كلبة ونحسة. الرجل أعطاك ثلاثمئة ليرة، وأنت اشتريت سواراً، فلماذا تنقين أكثر؟ ليكن معه مئتين يصرفها. ما دخلها ؟ ولكن لا، فهي تنتف به منذ أيام، حتى حولت الرجل إلى فروج!"

"من أين أخذ الأقرع الخمسمئة؟"

فكرت الأم زينب قليلاً: حقيقة، من أين أخذ الخمسمئة؟ تذكرت الشجار المستمر منذ أيام. كانت هنالك كلمة مفتش تدور في الوسط. زوجة شاحذ السكاكين حكت لهم قبل مدة. أما لم يعط الخمسمئة التي لا تدري من أين أخذها للمفتش بل تقاسمها مع زوجته أو أن المفتش لم يقبل أن يأخذها.

حكت هذا بناء على كذب وخطأ. تحول حاجب الوالي إلى آذان صاغية عندما سمع كلمة المفتش. بما أن المحافظ منذ أيام ينط ولا يحط،

فإن "الرجل" أي "السيد المفتش" قد ذهب إلى أنقرة، وقدم تقريراً للداخلية. حتى إن هناك من رآه عندما ذهب إلى الداخلية. عندما كان الحاجب يجلب الماء والقهوة للسيد المحافظ ومدير الأمن، كان يصغي لحديثهما. كانا قلقين كثيراً. حتى إن المحافظ كان يخشى أن يحال إلى التقاعد. وكان مدير الأمن ومساعد المحافظ يهونان عليه بقولهم إنه يمكن ألا يُحال إلى التقاعد بل يُنقل إلى محافظة أخرى.

ذهب الحاجب إلى مكان غلي القهوة وهو يفكر بكل هذا. ولأن السيد المحافظ مصاب بالربو، وهو دقيق جداً، فقد كان يغلي له قهوته بشكل خاص، حتى إنه لا يستعمل أي سكر في غليها، بل يستخدم تلك الحبات الخاصة بمرضى السكر.

عندما حانت الساعة الحادية عشرة هرع الحاجب. أعطاه السيد المحافظ قبعته وعكازه. علق العكاز باحترام، ثم وقف أمام الطاولة عاقداً يديه على بطنه، وانتظر.

لم يكن وضع السيد المحافظ على ما يرام. بدا لونه يشحب أكثر من السابق.

"هل تأمرون بالقهوة يا حضرة السيد؟"

كان شارداً. لم يكن يقول: "اعمل" أو "لا، لا أريد!" بعد فترة طويلة، قال: "ماذا؟"

"هل تأمرون بالقهوة؟"

"ناد لي مساعد المحافظ!"

هرع الحاجب ونفذ الأمر. كان المساعد متوعكاً لإفراطه مساء بتناول البسطرمة بالبيض، وقضى ليله مؤرقاً تقريباً. شعر بالضيق لاعتقاده بأن المحافظ سيفضي له بهمومه مرة أخرى، فقال للحاجب: "أنا قادم."

ذهب متأخراً قليلاً. كان المحافظ في غرفته، ووجده يتجول في الغرفة التي كانت أخشاب أرضيتها تصر تحته بعد أن نخرتها الديدان. وقف عندما رأى مساعد المحافظ قد دخل: "لا يوجد شيء جديد، أليس كذلك؟"

فهم مساعد المحافظ سبب سؤال آمره المتغيرة طباعه منذ أيام، فقال: "ليس بعد!"

لم تعجب المحافظ كلمة "بعد": "أخشى أنك سمعت شيئاً ما؟"

"مثل ماذا يا سيدي؟"

"يعني حول إحالتي إلى التقاعد، أو نقلي إلى مكان آخر؟"

"لا يا سيدي، لا ضرورة للقلق."

" إحالتي إلى التقاعد ستكون كارثة بالنسبة لي، النقل كذلك. الشتاء أمامنا، وهو فظيع. وأنا لا أنوي التحرك إلى أي مكان، ولكن هذا لا أحد يعرفه. إذا كان الرجل قد نظم تقريراً ضدنا، فهذا يعني أنهم سيفرقوننا كلنا. مدير الأمن تصله الأخبار. رجله في الداخلية أبلغه بوصول رجل كهذا، ولكنه لا يعلم شيئاً عن التقرير!"

أمَرَ الحاجب: "اعمل القهوة لنا!" وناوله سكره الخاص الذي أخرجه من علبة صغيرة كانت بجيب صدارته. أخذها الحاجب وخرج. عندما عاد بالقهوة بعد ربع ساعة، وجد مدير الأمن معهما أيضاً.

قال المحافظ: "اعمل قهوة لحضرة السيد أيضاً."

لم يكن الحاجب يعرف كيف يشرب مدير الأمن قهوته. أو على الأصح نسي في تلك اللحظة. سأله ثم غلاها بسرعة وجلبها.

كان السيد المحافظ قد جلس خلف طاولته: "يا سيدي، ليس مهماً

حتى لو أحلت إلى التقاعد. عديلنا سيفتتح فندقاً سياحياً في اسطنبول. قال لي في رسالة سابقة أنه يمكن أن يعطيني ضعف المبلغ الذي آخذه من المحافظة. بيد أن الإنسان عندما ينزل من المحافظة إلى إدارة فندق سياحي، فلا يبقى عنده تعلقا بالعمل. ما رأيكما؟"

لم يكن مساعد المحافظ مؤيداً لهذا الرأي: "لو كان عندي عديل خير مثلكم يا حضرة السيد..."

مدير الأمن أيضاً كان يفكر مثله: " لقدمت استقالتي..."

قال المحافظ: "دعونا نرى. تحدثت مع المرأة والبنات في البيت. إذا لم يتم نقلي إلى محافظة أخرى وأحلت إلى التقاعد..."

قال مساعده: "سيكون هذا رائعاً يا حضرة السيد."

أطلقوا بعد ذلك ضحكات رخوة، وبدؤوا:

"ماذا يعني فندقاً سياحياً في اسطنبول؟"

"هل هو على البوسفور، هل هو على البوسفور؟"

قال المحافظ: "في أجمل مكان من البوسفور!"

"قولوا في جنة الدنيا إذاً؟"

"هكذا هو المكان، هكذا، ولكن..."

نهض مدير الأمن واقفاً: "اسطنبول يا حضرة السيد، اسطنبول!"

ازدادت شهية مساعد المحافظ: "إدارة فندق سياحي في اسطنبول تعني الجنة العليا بين الحوريات والشباب يا حضرة السيد!"

"اقلب صفحة الشباب.."

"لتكن الحوريات."

"وخمر الكوثر."

"لا، أنا لا أحيد عن العرق!"

"المهم يا عزيزي هو هواء اسطنبول وماؤها!"

قال المحافظ: "نعم. زوجتي تقول هذا أيضاً..."

"هل الفندق ضخم؟"

"ضخم جداً يا سيدي. وبحسب قول العديل، فإنه لا ضرورة لاستئجارنا بيتاً. يمكن أن يخصص لي جناحاً فيه. كيف سيكون عليه الحال حينئذ يا حضرة السيد؟"

قال مدير الأمن: "قطائف بالقشدة!"

دخل الحاجب. قال لمدير الأمن أن "شرطياً مدنياً" يريد مقابلته على عجل. هرع مدير الأمن. كان هذا الشرطي المدني الذي كلف بالمهمة عندما جاء المفتش الضخم البنية. همس للمدير كأنه يعطيه سراً: "تتأكد لي القناعة يا حضرة السيد بأن المفتش هو مفتش مزور."

سأل بفضول: "هكذا!"

"نعم."

"كيف؟"

"هناك خمار على أطراف المدينة يدعى حيدر. النادل الذي يعمل عنده هو رجلي. عندما حاصرته في المرة السابقة، استطاع أن يستدرج معلمه بالكلام، فقال إنه أعطاه نقوداً!"

قال مدير الأمن بسرور بالغ: "هكذا!"

"نعم."

"تعال!"

دخل "المدني" خلف آمره إلى غرفة المحافظ والحاجب من خلفهما بفضول.

قال مدير الأمن فرحاً: "البشارة يا حضرة السيد، البشارة!"

انفعل المحافظ: "خير؟"

"أعتقد أن قضية المفتش الذي أتى قبل فترة قد فاحت رائحتها..."

التفت إلى "المدني"، وقال له: "احك!"

حكى "المدني" ما يعرفه.

ازداد انفعال المحافظ أكثر، وقال الحاجب ما يعرفه: "أنا محسوبكم يا حضرة السيد أيضاً سمعت أموراً ما..."

نظروا إلى الحاجب دون اهتمام. لماذا يوجد شخص كهذا بينهم وهم يتكلمون بأمور سرية كهذه؟

قال الحاجب: "الحوذي مصتق الأقرع أيضاً أخذ من صاحب مطعم خمسمئة ليرة لكي يعطيها له، ولم يعطها. حتى إن الأم زينب تقول إنه تقاسم النقود مع زوجته!"

تحولت "عدم أهمية الحاجب" فجأة إلى أهمية رهيبة.

قال المحافظ: "مهم جداً!"

قال مدير الأمن: "احك، احك!.."

قال الحاجب: "أنا أنقل كلام الأم زينب يا سيدي..."

"من هي الأم زينب؟"

"أليس هناك امرأة تمسح خشب الأرض، وتقوم بأعمال الخدمة؟"

قال المحافظ: "هل هي هنا؟"

"هي في غرفتي يا سيدي. هل أناديها؟"

"نادها!"

ركض الحاجب. ارتعدت الأم زينب التي كانت تتناول جبن الظروف

والخبز مع الشاي ليحل محل إفطار الصباح وغداء الظهر إزاء انفعال الحاجب، فقالت: "ولاه، إذا كنا قد قلنا لك شيئاً فلِمَ أدخلتني في الموضوع؟"

"الوضع بالنسبة لك جيد يا أم. هيا انهضي!"

"لِمَ هذه العجلة، دعني أبلع اللقمة."

بلعت لقمتها، وتناولت كأس ماء، وجلست على الأرض، وشربته بعد أن وضعت يدها على رأسها. ومسحت فمها بطرف معطف العمل الأسود، ولحقت بالحاجب وقلبها يخفق. كانت غاضبة جداً من هذا الطويل شبيه المئذنة. إذا كانت قد أعطته سراً فهل يجب عليه أن يسرع به للسيد المحافظ الكبير؟ دخلت إلى غرفة المحافظ وهي مقررة أن تحافظ على لسانها في المرة القادمة. كانت الغرفة مليئة بدخان السجائر. سألوا وحققوا. كانت مدركة بأن أي ضرر لن يمسها من هذه الأسئلة والتحقيق، وعلى العكس تماماً، فإن هذا سيحرق نفس ضرصون العوراء التي تباهي يميناً ويساراً بالسوار الذهبي الذي بمعصمها بقيمة ثلاثمئة ليرة، وتتشاجر ليلاً مع زوجها مقلقة الحي عندما يغط في نوم لذيذ.

بدأت تحكي: "شجار كل ليلة، كل ليلة يا حضرة السيد. كلُّ الحي ملّ منهما. ماذا هناك؟ أخذ زوجها خمسمئة ليرة، وأعطاها ثلاثمئة، وبالمئتين الباقية كان يسكر كل يوم حتى منتصف الليل."

سأل المحافظ بفضول: "من أين أخذ الحوذي الخمسمئة ليرة؟"

"هذا ما لا أعرفه يا سيدي."

"هذا يعني أنه كان سيعطيها للمفتش، ولم يعطها؟"

"أنا أيضاً أقول ما قالته لي زوجة شاحذ السكاكين هدية."

خلال نصف ساعة سُحبت زوجة شاحذ السكاكين هدية، والحوذي الأقرع، وزوجته إلى مديرية الأمن، وخضعوا لتحقيق دقيق. كان مصتق الأقرع سكراناً إلى آخر حد أيضاً. وكان ينط كل قليل، ويقول: "خذوني إلى مدير الأمن، وأنا أشرح له كل شيء!"

كان مدير الأمن يسمع هذا من الغرفة المجاورة أصلاً. لم يستطع الاحتمال، فقال: "هاتوه!"

عندما رأى مصتق الأقرع مدير الأمن، بدأ مناحة، وارتمى على يديه في آن واحد: "ارتكبت خطأ يا حضرة السيد. احمني. أنا حوذي طوال تلك السنوات كلها. منذ ألقى مصطفى كمال باشا اليونانيين في البحر في إزمير. احمني. لا تضحي بي لهذا وذاك. أنا، وهذه القرعة، أي مصتق الأقرع سألازمك في كل وقت يا سيدي!"

قال مدير الأمن: "الأمر بالنسبة لك غير مهم. نحن نريد أن نعرف ما إذا كان ذلك الرجل مفتشاً حقيقياً أم لا!"

قال مصتق الأقرع: " الرجل مفتش حتى النخاع!"

"من أين تعرف؟ "

"وهو مفتش المفتشين أيضاً!"

"حسنٌ، ولكن يا ابني، كيف عرفت أنه مفتش المفتشين؟"

"أنا أعرف!"

"هل قال هذا هو؟"

"هه، وهل يقول هذا؟ وهل هو مخبول؟"

"طالما الأمر هكذا، من أين فهمت؟"

"أنا فهمت. أنا ألقي نظرة على الإنسان، فأفهم فوراً من يكون. إنه

شعور من الله. الرجل مفتش حتى النخاع. إذا لم يكن مفتش المفتشين فهل يدفع ثمن الطعام الذي يأكله، والعرق الذي يشربه؟"

غضب مدير الأمن: "لا تحك كلاماً فارغاً!"

"أما رأينا مفتشاً يا حضرة السيد؟"

أدرك مدير الأمن أن الحصول على معلومات من هذا الرجل السكران إلى أبعد الحدود أمر غير ممكن.

بسؤال مفاجئ أراد أن يرمي فارغاً ويحصل على الممتلئ: "هذا يعني أنك أخذت من الرجل خمسمئة ليرة، ولم تعطها للرجل؟"

زل مصتق الأقرع: "من صاحب المطعم؟"

"نعم."

"أنا دخيل عرضك يا سيدي. هذا الرجل مشاكس. في اليوم التالي سألني إذا كنت قد أعطيته النقود أم لا؟ قلت له إنني أعطيته إياها. إذا عرف أنني لم أعطه إياها، فإنه سيخنقني. لا تخبره، ممكن؟"

لم يفهم مدير الأمن أي صاحب مطعم، ولكنه يجب أن يجعل الرجل ينزلق. وجد أن المناسب أن يجرب معه طريقاً آخر، نادى: "تعالوا!"

دخل ضارب آلة كاتبة: "حاضر يا سيدي؟"

خفض صوته عن قصد، وقد خفضه ليعطي الأمر أهمية، أو يظهر أنه سر سيبقى بينهم الثلاثة: "الحوذي مصتق أفندي ليس غريباً عنا. حتى إنه يعد رجلنا. والأصح هو رجلي. خذ إفادته سراً عن الجميع."

تأوه مصتق الأقرع: "أرجوك يا سيدي."

كرر مدير الأمن: "خذ إفادته واجلبها لي!"

وقال لمصتق الأقرع: "أوراق الإفادة ستأتي إليّ" وانحنى على أذنه:

"لا تشغل بالك أبداً. أنا أغطي على الأمر. ويجب أن لا تنسى أنه لا يوجد شيء ضدك، لا يوجد شيء أبداً. ولو وجد فلن أضحي برجلي... هيا!"

عندما خرج نادى على الموظف وطلب منه أن يعرف بوجه خاص من أي صاحب مطعم أخذ الخمسمئة!"

"على رأسي يا سيدي..."

خلال ثلاثة أيام عرف كل شيء تقريباً. وتم التوصل إلى قناعة بأن "مفتش المفتشين" محتال رهيب.

أرسلت الأوراق المنظمة إلى المدعي العام.

حسنٌ، ولكن أين هذا الرجل الآن؟

ومثلما لا يعرفه أحد لا تتوفر صورة له أيضاً لتطبع وتوزع هنا وهناك.

كل هذا لم يمنع إحالة المحافظ إلى التقاعد لأنه بلغ السن القانوني. وخلال أسبوع قطع المحافظ علاقته كلها بالمحافظة التي كان يعمل فيها، وانطلق في طريق اسطنبول ليعمل مديراً للفندق الذي أنشأه عديله على شاطئ البوسفور.

- ١٩ -

تحوّلت شهوار الى مجنونة بعد أن أخذت سما ذهبها ورحلت. انتظرتها لعلها تعود، لكنها لم تعد، فكأن الدنيا انهارت عليها. إلى أين ذهبت؟ لماذا ذهبت؟ هل كانت تكذب بقولها: "آآآآه.. أين أجد مثلكما في هذه الدنيا يا أختي الكبيرتين؟ لتتبول الكلاب على شوارب الرجال. بعد الآن سوف أكون سافلة إذا عدت لرجل عادي، بل حتى إلى الرجل الأكثر وسامة في الدنيا!" هل خدعتهما؟ هل هذا يعني أن مراءاتها كانت من اجل الحصول على ذهبياتها؟ آه من هذا العقل الجاهل.. لماذا، لماذا لم تسمع كلام "أختها في الآخرة" السيدة الداية؟ قالت المرأة المسكينة كأنها عرفت ما سيحدث: "يا روحي يا شهوار! اسمعيني، لا تعطها ذهبياتها. ستأخذها، وإما أن تبددها، وإما أن تعلق برجل قذر. والله سنحترق بعد ذلك فوراً!"

لم تسمع منها، بماذا سيفيد الندم ولطم الذات الآن؟ تضع في حضنها ما تبقى من قطع قماش متسخة، وربطة شعر، وحبسات شعر، وتشمها، وتبكي. وبينما تقضي اليوم كله بالبكاء، تفتح فأل الورق وفنجان القهوة، أو تجعل أحد يفتح لها الفأل. لم تكن مبالية بزوجها وحماتها وأولادها. انتزعت نفسها، وأهملتها. ووصل بها الأمر إلى أن

السيدة الداية كانت تغضب منها وكادت تصفعها على وجهها، صارخة بها: "كفى يا شهوار، كفى! إنها مجرد امرأة من أحد الأحياء الرثة لا تساوي خمسة قروش. فهل يُنتظر منها الكثير؟ لقد رفست النعمة هنا. ما الذي كان ينقصها؟ هل كانت ستحصل على الراحة عند رجل؟ هل كنا ننصب لها خازوقاً؟ أما كانت سفرتها لا ينقص منها أي شيء حتى من الويسكي، تأكل ما تريد، وتضع وراءها ما لا تريد؟ هل كانت تحمل حجراً على ظهرها من أجلنا؟ هل كان يقلق راحتها أي شيء؟ مجنونة غداً سيضع الرجال الفائحة روائحهم ما تستحقه بيدها، ويسلبونها ذهبياتها، ثم رفسة على مؤخرتها، وترى ما يحل بها!"

وتضيف فوراً: "لا تبكي، لا تبكي أبداً. يدور الثعلب، ويدور، وينتهي به الأمر في دكان الفراء. ها أنا أنقش هنا لتتذكري، إذا لم ترجع سما إلى هنا بعد أن تأخذ ما تريد من الرجال، فسأنهق كالحمير وأكون عبرة للعالم!"

كانت شهوار تستمع راضية. كان احتمال عودتها يسعدها. آه كم سيكون هذا جيداً، كم سيكون: "هل تأتي يا عزيزتي السيدة الداية؟"

"لا تشكي أدنى شك. أنا لدي تجربة في هذا الأمر. مرّت من تحت يدي أمثال سما كثيرات. كانت هنالك بيهان تلك التي أحكي لك عنها دائماً.. وهذه أيضاً امرأة لذيذة مثل سما. ثم إنها أصبى، وأكثر غنجاً. وقعت لها ذات يوم حادثة مع ولد في مستودع التبن خلف بيتهم. وفجأة قبض عليها أبوها، وراح يضربها ويوجعها، وضرب إثر ضرب، ثم أمسكها من ذراعها، ورماها إلى الشارع. كان الجو باردا وفظيعا ولا شيء يسترها أو يغطيها. ذهبت إلى بيت الولد. أين الولد؟ هاجمه أبوه

وأمه، فلم تستطع أن تلتقط أنفاسها إلا عندنا. وجدتها زرقاء تحت الثلج، أسنانها تصطك. أدخلتها إلى الحمام، وغسلتها، وهكذا بدأ الزهري يظهر. أطعمتها وملأت بطنها، واشتريت لها لباساً، فدبت الحيوية فيها. إنها مثل سما تماماً، فهي تعمل برأسها مثلها، وتلقي خصلة الشعر النازلة على جبينها إلى الخلف. آه يا شهوار، آه، أحرقتني، وكوتني. المهم، شهر، خمسة أشهر، انتهى الشتاء، وجاء الصيف. جرت الدماء في قملها؟ وبدأت اللعب. مثل هذه، مثل هذه تماماً. أما بدأت هذه تلعب مع ابنك؟ وتلك أيضاً كانت على هذا النحو. كنت أطرد أحبابها من الباب، فتدخلهم من الشباك. كل ما فعلته لم يفلح. ذات يوم استيقظت، وأي استيقاظ؟ جدي بيهان إن كنت تستطيعين. بيهان تحت، وبيهان فوق. صارت الكافرة فص ملح وذابت. بكيت، ولطمت. وهل تركت فألاً لم أفتحه، أو شيخاً لم أذهب إليه لينظر في أمرها؟ وكم نذرت من النذر؟ لم تأت. لكنها ذات يوم... إذا قلت ذات يوم، فأقصد بعد مرور الربيع والصيف. ذات يوم مع بداية الشتاء طرقت الباب بنفسها."

"يا ربي دخلك... هل ستأتي سما ذات يوم؟"

"ولكن لم تبق عندي بيهان، بل حلت محلها آيتان. أما حكيت لك؟ إنها آيتان تلك. سألت شهوار بانفعال: "لن نعطي وجها لسما إذا عادت، أليس كذلك؟"

"لن نعطيها وجهاً، ولكن دعي الأمر لي!"

كانت تغير نغمتها كالأطفال: "ماذا ستفعلين؟ لا تكسري لها قلبها، ممكن؟"

" قلت لك: دعيها لي!"

ومقابل تظاهر السيدة الداية بالقوة، فإنها كانت تتحرق سراً، وتصب دموعها ليلاً في الفراش وإن لم يكن مثل شهوار. الحق أنها خرجت من آيتان، ومن بيهان خاوية اليدين. ولولا أنها كانت تشارك شهوار عليها بالسحاق، فكان يمكن أن يطير صوابها لهربها.

من جهة أخرى، فإن "ناقلات القيل والقال في الحي" فرحن كثيراً لهرب سما بذهبها، وخاصة إفاقة التي في كل أصبع من أصابعها خبر شؤم، فقد كانت تتحدث بالموضوع عند البقال عاكف، وفي مفارق أزقة الحي، وفي البيوت: "قه، قه.. قه، قه.. آه منك يا سما.. ما كنت لأضحك أبداً."

"إلى أين ذهبت برأيك؟"

"إلى حيث تريد يا هذا. إنها صبية مثل قطعة الألماس. فهل تترك وحدها؟"

"صحيح. لو تتزوج على الأقل!"

"إذا كان عندها عقل فلا تدخل تحت نير رجل!"

"صحيح، صحيح.. نحن دخلنا، فماذا حدث؟ وهل عرفوا قيمتنا؟"

"إذا كان عندها عقل، فتعيش مع الأغنياء، وعندما يعتقون قليلاً، هيا إلى واحد جديد. أليس كذلك؟"

"طبعاً يا سيدتي الخالة. هذا أفضل شيء."

"............."

"............."

"............."

مع كل هذا القيل والقال كانت شهوار خارج بيتها وزوجها وأولادها، وفي عقلها سما، وإما أن تكون عند السيدة الداية، أو مغلقة على نفسها غرفتها الى جانب أغراض سما. أحيانا تتبدد الدنيا، وتدب الحياة في خيالاتها عن سما، فتتحول إلى جسد حقيقي بروح ودم، وتقف أمامها، وتتحدث معها على الأغلب: "يا عزيزتي سما، يا صغيرتي، يا وحيدتي.. لماذا هربت؟"

"بسبب الخالة السيدة الداية يا أختي الكبيرة."

"ولكن لماذا؟"

"أنا أحبك أنت، أنت فقط!"

"أما كان من الممكن أن تخبريني أنك ستهربين يا ألماستي؟"

"خفت."

"من ماذا؟"

"من وصول هذا إلى أذن الخالة السيدة الداية."

"آه يا روحي أنا، ويا وحيدتي. وهل أوصل هذا لأذنها؟"

"لم أفكر بهذا."

"لن تهربي مرة أخرى، أليس كذلك؟ لا تهربي مرة أخرى يا سما، ولا تجعليني أجن. افهمي إنني لا أستطيع أن أبقى من دونك يا حلوتي.."

"حسنٌ، يا أختي الكبيرة العزيزة شهوار.."

"..............."

"..............."

انطواء أمها على نفسها، وإغلاق باب غرفتها، وجلوسها عند قائم

السرير أخاف أليف كثيراً. ذات يوم قالت لأخويها الكبيرين: "أنا خائفة كثيراً.."

"لماذا؟"

"من تغير أمي هكذا فجأة.."

حاول يالم الذي يدرس الطب أن يجري تحليلاً نفسياً ولو غير دقيق لوضع أمه، ولكن المحاولة لم تقنع دارس الحقوق، فقال: "ما صار يا دكتور."

"لماذا؟"

"برأيي إن هذه قضية مختلفة!"

غضب دارس الطب: "ولاه، ماذا يفهم الحقوقيون بعلم النفس؟"

"حسنٌ، ولكن تشخيصك هراء!"

"إذا ضربتك ضربة؟"

"هذا الذي قلته هو الخبيزة. تنبت في الربيع في الحقول..."

"خراء!"

"هذا أنت."

"ولاه حمار، ماذا تعتقد نفسك أنت؟"

"أنا لا أغضب من كلمة حمار!"

"حمار ابن حمار!"

"بابا، انظر إنه يناديك!"

"............."

"............."

"............."

قدرت البركان عند رأس أمه التي لا تتحرك في سريرها منذ أيام، حتى إنه لا يصغي لشجار الأولاد في الخارج. لم يكن مبالياً لحداد شهوار على سما التي هربت مع الذهبيات، وقيام البنت بحشر نفسها تحت الدرج في الطابق الأسفل مع حبيبها حتى منتصف الليل، وقيام وقعود الصبيين مع الفتيات أو النساء. كان مع أمه العزيزة عليه. يده على وجهها المجعد كالرز بالحليب، وعيناه على عيني أمه الفاقدتين بريقهما.

سحب الجار الطبيب السيد قدرت جانباً، وقال له: "كن قوياً. ليس بوسعنا أن نفعل شيئاً. أمكم..."

كم كان قول الحقيقة صعباً حتى على طبيب!

"أمكم يا سيد قدرت.."

لم يكن يستطيع قول "مصابة بالسرطان". لسانه لم يطاوعه. فعدم فراق هذا الرجل "الضخم" الذي لا تتسع له الأبواب أمه ولو دقيقة، وحزنه ونحوله هز مشاعره، فلا يطاوعه لسانه على قول الحقيقة.

"والدتكم أخذت نزلة برد قوية. ثم إن عمرها متقدم كثيراً..."

انكب قدرت البركان على يدي الطبيب: "الحل يا سيدي الطبيب، الحل؟"

رفع الطبيب عينيه بصعوبة عن الأرض: "الراحة المطلقة. أعطوها حقنتها كل يوم!"

لم تكن الحقن تفيد بغير تهدئة آلام السرطان المخيفة، ولكن ليكن، فأمه تتلوى بألم فظيع، ولا تصرخ! فيما بعد قال الطبيب: "دعوها تنام... فبقدر ما تنام بقدر ما يكون هذا جيداً!"

يضع قدرت البركان يد أمه المرتخية بين راحتي كفيه، ويقبلها، ويداعبها، ويحنو عليها. لم يتذكر أنه أحب أمه كما أحبها اليوم.. يخاف من موتها، ويحاول أن لا يكبس هذا على عقله. إذا ماتت أمه فليس له أي قريب غيرها. ماذا يفعل من غيرها في هذه الدنيا؟ عندما لا تكون موجودة فبماذا تفيد عمليات التفتيش المختلفة، وتحصيل مبالغ من النقود؟ عندما لا تكون موجودة فما ضرورة البيت خارج المدينة؟

تستيقظ أمه أحياناً، فتركز عينيها الزرقاوين على عيني ابنها، وتتخيل قدرت والده. الرجل يشير لها بيده لتأتي في حالتي الخيال والحلم: "تعالي يا امرأة. تعالي بعد كل هذا. أنا هنا وحيد جداً، وأحتاجك!"

وكانا يختلفان في أكثر المرات: "حسنٌ، ولكن لمن سأترك قدرت؟"

"يا امرأة، ما هذا الذي تفكرين به؟ هو عنده امرأته وأولاده. أنت تلزميني أكثر منه. ثم هل تعرفين هذا المكان؟ إنه ليس سيئاً أبداً. والله سترتاحين. هناك تنهش بك الكنة، وينهش بك الأولاد. تعالي، تعالي إلى هنا، تعالي إلى عند زوجك. تذكري أيام زواجنا الأولى. كيف كنا نتبادل الحب؟ كيف كان يعيش كل منا للآخر؟ كان لديك قميص نوم زهري.. هل نسيت؟ كنت ألبسك إياه على الأكثر. كنت تلبسينه، وأقول لك يا حمامتي. وكنت تنامين على ذراعي. كنت أجلب لك من عند الحاج بكر الراحة، فتغدين كأنك ملكت الدنيا. هل نسيت؟ تعالي إلى هنا، تعالي يا زوجتي العزيزة، ظهري يبرد.."

تستيقظ. وتفكر طويلاً بهذه الأحلام الملحاحة، وما تعنيه، ولكنها لم تكن تتوقف عند برد ظهر زوجها حتى ولو كان الألم مثل ألم جرح.

كل هذه كانت أحلاماً. في الحقيقة إنها الى جانب ابنها الذي يضع يدها بين راحتي كفيه، ويداعبها، ويقبلها، ويحنو عليها. إنه ولد تعاديه زوجته، ويعاديه أولاده حتى النخاع. إذا جاء يوم ومرض هذا الرجل، فإن هؤلاء الناكرين للجميل لا يلتفتون إليه. بعد ذلك يفتح الحديث بشهية وانفعال عن "البيت" الذي لم ينتهي الحديث عنه طوال سنين: "كم يكون هذا جميلاً يا أمي العزيزة، أليس كذلك؟ ها؟ كم هذا جميل، أليس كذلك؟"

"طبعاً يا ابني"

" نرجع كما كنا قديماً بعد موت السيد الوالد، أنا وأنت، يعني أم وابنها.. أنت تطبخين لنا طعامنا، وأنا أكون في الأسفل، في مقهاي. تنادينني إلى الأعلى للطعام. آه يا أمي العزيزة، لو تعرفين كم أنا مشتاق لورق العنب الذي تلفينه!"

"إذا تحسن وضعي، ونهضت يا صغيري، فإن أول شيء أعمله لك هو لف ورق عنب، ورقائق عجين. كنت تحب حلويات شفة البنت. والمرحوم والدك كان يحبها كثيراً. آه يا زوجي أنا، آه يا سيدي زوجي!"

لم تكن تفتح موضوع حلمها التي تراه باستمرار امام ابنها لكي لا تزعجه. فكيف تكرر عليه: " تعالي إلى هنا، تعالي يا زوجتي العزيزة، ظهري يبرد. دفئي ظهري!" الحقيقة أنها احتارت بين الأب والابن. الأب يقول تعالي، والابن يقول لا تذهبي. مع أنه لم يبق في هذه الدنيا ما يعاش. لو كانت الزوجة زوجة، والأولاد أولاداً لذهبت إلى عند زوجها، ولكن لا الزوجة زوجة، ولا الأولاد أولاد. إنها تنام منذ أيام، ولكن لا الكنة ولا الأحفاد دقوا عليها الباب: "كيف حالك يا جدتي؟" كانت

الكنة لعينة، ولا ينتظر منها شيء كهذا، ولكن الأحفاد؟ ألا يحملون الدم نفسه؟ ألا يأتون من النسب نفسه؟ هل كانت تتصرف معهم على هذا النحو؟ ألا تدهن لهم ظهورهم بالخل الممزوج بالكينين عند أخف نزلة برد؟ ألا تعمل لهم كؤوس هواء؟ ألم تبع آخر قطعة ذهب بقيت معها من المرحوم زوجها عند ختان حفيديها في (بدستنان)، واشترت لهما ألبسة ختان وألعاب؟ ولكنهم..

إغلاق قدرت البركان باب البيت على نفسه بدأ يغضب أصدقاءه كثيراً. كان الجمل يقول: "أي حيوان هذا؟ إنه يلعب علينا بقوله إنه أعطى النقود لزوجته. فهل يسمح هو لزوجته بأخذ النقود؟"

كل واحد من الآخرين يقول شيئاً: "كلامه إنه أعطى النقود لزوجته لعبة!"

"طبعاً لعبة."

"أنا منتبه له، لم تبق عنده الشهية السابقة. عندما كنا نقوم بتفتيش قديماً، أما كان قدرت يهز الأرض؟"

"الرجل ممثل كبير، ممثل كبير، ولكن.."

"سأم، ملّ، ماذا جرى له؟"

"حسنٌ، ولكنه مصدر رزقنا يا ابني. هل لدينا مهنة أخرى؟"

تدخل إدريس بالكلام في النهاية: "أمه مريضة، أمه!"

لم يبالوا: "يا هذا، أمه واحدة استهلكت حياتها!"

"ولكن ماذا"

"عمرها سبعون، انتهى أمرها!"

"حسنٌ، ما هو سبب عدم تركه العجوز؟"

وبعد أن تبادلوا النظر بشك، قال الجمل: "من يعلم؟"
قال الجابي: "أخشى أن يكون ما يخطر ببالي؟"
سأل السكرتير: "ما الذي يخطر ببالك؟"
"إنها امرأة عتيقة، من يعلم؟ يمكن أن يكون في زاوية أو على جنب... ها؟"
قال الجمل: "حقاً ياه. لم يخطر هذا ببالي. وشهوار لم تعد تعرج إلى هنا كثيراً؟ ما رأيك يا إدريس؟"
لِمَ لا يكون لدى العجوز في زاوية أو مكان ما ذهبا أو نقودا، أو قطعة أثرية؟ لماذا لا يكون، وقدرت يشك بأن زوجته ستأخذها في غيابه، وزوجته تشك بأن قدرت سيأخذها في غيابها؟
ليفكروا بما يفكرون، ويشكوا بما يشكون، فإن قدرت البركان لا تطاوعه نفسه على ترك أمه. في "الأعمال" التي ذهبوا إليها خلال الفترة الأخيرة، فرض سطوته بصعوبة، وحصّل شيئاً، أو لم يحصل، عندما حصّل المقسوم تجادل مع أصدقائه، وتقاسموا، وعندما لم يحصّلوا، عادوا خائبين. وبفضل هذا دفع للبقال أكثر من نصف دينه على الأقل، وهذا ما جعل البقال يفتح لهم دفتر الدين من جديد، ويكتب ما يؤخذ منه تحت ما تبقى من الدين السابق.
"يا أمي العزيزة؟"
"يا صغيري؟"
"كيف حالك اليوم؟ تبدين أفضل قليلاً.. ها؟"
لم تكن تستطيع قول غير: "الحمد لله يا صغيري."
مناداة زوجها لها ازدادت إلى حد أنها بدأت تخشى غضبه. كانت

تعرف أن غضبه سيئ جداً. كان طيباً وفريداً ورقيقاً، ولكنه إذا غضب، فيصفع بقوة.

في ذلك اليوم أيضاً غفت ويدها بين راحتي كفي ابنها، ورأت زوجها في الحلم كما في كل مرة. رأته، ولكنها هل كانت الأخرى معه أم ماذا؟ أمعنت النظر. كأنها ميزت "المرأة" هناك مختبئة خلف شجرة.

يدها الجافة القافزة عروقها الزرقاء بين راحتي كفي ابنها، وسألت زوجها الذي في حلمها بصوت مسموع: "يااا، هكذا إذاً؟"

دهش الرجل: "ماذا؟"

"أرى تلك المرأة معك. ألم تكتفي منها في الدنيا فأخذتها إلى الدنيا الآخرة؟"

"..............."

"..............."

"..............."

كان قدرت البركان يستمع لهذيان أمه مرتعداً: ".. أما كفى يا حضرة السيد، أما كفى في هذه الدنيا؟ حسنٌ، ما ضرورتي أنا إذاً؟ نعم، إما أنا أو هي!"

هزت كتفه بعد ذلك وهي تقول: "لن آتي، لا أريد، لن آتي. إذا كانت هي هناك، والله لن آتي، وبالله لن آتي. إذا بردت فلتبرد. هي هناك لتدفئ لك ظهرك. لن آتي يا سيدي، آ..."

خاف قدرت البركان من اليد التي بين راحتي كفيه، ونهض. لم يكن ثمة أحد في البيت في تلك الأثناء. شهوار عند السيدة الداية مرة أخرى. والبنت في السينما تجلس بجوار الأخ نجاتي صاحب السينما. الولد

الكبير في مقصف (طاشلك) مع أرملة الحي الفرحة دائماً. أما الصغير فهو يدور في محيط بيت والد سما في (قوم قابِ). وكانت سما قد سئمت من هذا الوسيم الضخم والمسرف بشكل فظيع، فباعت ذهبياتها وفتحت لأبيها بقالية في الحي، ثم هربت من طونتش كما هربت من شهوار لتعمل مغنية في الحدائق التي تقام فيها حفلات غناء وسط الأناضول.

هرب قدرت البركان من أمه إلى باب الغرفة، وهذه المرة الأولى في حياته يضطر فيها للهرب من أمه التي يحبها كروحه.

حسنٌ، ماذا سيفعل الآن؟ كيف يترك امرأة عجوزاً، مريضة، ويذهب؟

كان وسائط النقل تمر هادرة من الشارع أمام البناء، ولكن ظلالاً عجيبة بدأت تتطاير في شبه ظلمة البناء، وكأن البناء الثقيل بدأ يتشقق من أمكنة عدة. بدأت تظهر إلى السطح خرافات وعقائد دينية تعود إلى طفولته حفرت عميقاً، وكبتت في الداخل.. لعلها خيالات وظلال عقائد آلت من الأجداد، ومن أجداد الأجداد تجمعت عبر آلاف السنين، ولا يُعرف سببها. كانت قد حفرت في داخل الطفل قدرت الذي بكى في جنازة، وتلقيناً لقن لامرأة مغطاة الرأس، والآن وجدت المخرج، فخرجت إلى السطح: "الأرواح.."

"الموتى لا يموتون، يعيشون."

"إنهم يتفرجون علينا في كل لحظة، ويتطايرون بجوارنا."

"إنهم يحبون الوحدة، والأمكنة الهادئة. في بيوت الوحدة والهدوء فقط يمرون فوق الإنسان حتى إنهم يلمسونه بأجنحتهم أثناء مرورهم."

"إيه ماذا يفعل العبد؟ هل هناك سر يخفيه عن الأرواح؟"
"الأسرار كلها مكشوفة لهم!"
الأرواح التي تطلب الفاتحة والدعاء تعطي شارة للناس!"
كان قلبه مليء بالخوف، فتح كفيه، وبشفتيه المتمتمتان بدأ يقرأ "قل هو الله أحد" ثلاث مرات، و"الحمد لله" مرة. يجب أن يكون لهذه الكلمات، هذه الكلمات العربية التي لا يفهمها أبداً علاقة بالأموات والأرواح. والآن يعتقد بأن الظلال التي تدور من حوله قد تكاثرت. هل هذا يعني أنه تعرض لهجوم الأرواح التي تحتاج الى الدعاء؟ بدأت الظلال تغدو وجه إنسان بشكل تدريجي، ولكنها مثل الدخان الكثيف أكثر مما هي مثل الأناس الأحياء. ازداد خوفه. نظر إلى أمه بعينيه المحملقتين. انتهى هذيانها أو كلامها بحلمها، وهي تغط بنوم مريح، وكانت تتنفس براحة أيضاً.

غادر الغرفة بهدوء، وفتح باب الطابق. يجب أن يكون باب أحد الطوابق السفلية مفتوحاً لأن ضوءاً برتقالياً سقط على درج البناء. ازدادت جرأته. لم يبق هناك أرواح، ولا ظلال متطايرة ومنزلقة تطير.
"الموتى لا يحبون النور!"
نزل ببطء إلى ضوء الدرج. كان الضوء ينبعث من باب بيت السيدة الستينية إفاقة دوردانة المفتوح. أشعل ضوء الدرج الأوتوماتيكي. يجب أن تكون المرأة تنتظر إما طونتش أو يالم. أصغت لوقع القدمين النازلين من الأعلى، ثم سارت نحو الباب: أوه.. القادم أبوهما! يا سيد قدرت، يا حضرة السيد قدرت!

قالت وهي تبدو شبيهة بالمهرجين المتكحلين والمرسومة حواجبهم على

الطريقة القديمة، ملونين وجوههم في المسارح المعتمة أيام زمان: "واه يا سيدي يا سيد قدرت.. شكراً لمن جعلنا نلتقي يا هذا.."

كان قدرت منتبهاً لهذه المرأة، ولكنه لم يجد الفرصة. يقال إن لديها نقوداً وسندات وذهباً وماساً كثيراً، وكان اللصوص ستسللون إلى بيتها أحياناً.. ولكن أي حكمة أنهم لا يسرقون شيئاً كثيراً، يدخلون، ويخرجون..

تقول شهوار بإيحاء: "هؤلاء لصوص السيدة المحترمة إفاقة دوردانة الخاصين!" وتضحك.

"كيف صارت السيدة الوالدة يا حضرة السيد؟"

تنهد قدرت البركان: "ستكون جيدة إن شاء الله.."

"إن شاء الله يا سيدي، إن شاء الله. هل تصدق أنني أتألم من أجلكم كثيراً!"

"الله لا يحرمنا منك يا سيدتي."

"ألا تتفضلون إلى الداخل؟"

"لا أدري، الوالدة مريضة."

"الباشايان الصغيران ليسا في الأعلى؟"

"لا يوجد أحد"

"واه، واه.. واه، واه.. أليس حراماً بحقكم؟ زوج مثلكم، وأب مثلكم.. والسيدة شهوار تهملكم كثيراً.. لماذا تفعل هذا؟ وهل حضرتك رجل يمكن أن يُهمل؟"

جلبت أريكة مريحة من الداخل: "تفضل يا سيدي، تفضل يا عزيزي.. أنتم تشربون القهوة سكر وسط، أليس كذلك؟"

ركضت إلى الداخل قبل أن تتلقى جوابه، وغيرت ثوب النوم النايلون أو الأورلون أو البرلون الأزرق الفاتح الذي تلبسه الصبايا، والثوب المفتوح الذي فوقه، وعادت. مشطت شعرها بسرعة، ودهنت شفتيها بقلم الحمرة، وخديها. قالت بغنج: "شوكولا قبل القهوة؟ أم تأخذون كأس عنبرية؟"

مرة أخرى دون أن تتلقى جواباً: "أم..."

ركضت إلى الثلاجة بحركات تذكر بحركات الصبايا، وفتحتها، وجلبت زجاجة عرق ما ركة "كلوب" عليها غشاوة من البرودة، وقالت: "نعم أم عرق؟ انظروا كيف عليها غشاوة!"

وضعت العرق على الطاولة. وأغلقت باب شقتها الذي ما زال مفتوحاً حتى تلك اللحظة. هرعت إلى المطبخ راكضة مرة أخرى وعادت بطبق سردين: "أعمل لك سلطة لذيذة الى جانبها. إذا كنت جائعاً فيوجد باذنجان مقلي ومطبّق.

تخيل قدرت البركان لحظة بالمرأة وهي مضطجعة. إنها تجاوزت الستين براحة، ولكنه حتى الآن لم يسمع بأنها اشتكت من مرض، أو تألمت من كليتيها. وقد سمع أحياناً من هنا وهناك أنها قالت: "أنا أفضل من الصبايا، ولكن أين ذلك الرجل؟ أين ذلك الرجل الذي سيجربني؟"

تركض السيدة إفاقة دوردانة من هنا إلى هناك مثل عروس جديدة، تذهب إلى المطبخ، وتعود نشيطة وتقف ازاء الطاولة المستديرة الباقية من أيام المرحوم والتي كان يستخدمها في سهرات الخمر. لم تفقد حيويتها، ولم تنهك. وبينما كانت تخدم قدرت كأنه زوجها قالت: "الله يسامحني بتقصيري! ماذا أفعل؟ لا يمكن الموت مع الميت ياه! من قال له اترك زوجتك أرملة وهي في الأربعين؟"

"مطبّق الباذنجان يا عزيزي؟"

"إيه، ولكن لا تعيبي عليّ، فأنا أحب مطبق الباذنجان كثيراً!"

"مرني يا سيدي، أمرك يا عزيزي، يا عيني، أمرك.."

مطبق الباذنجان في طبق زورقي كبير.

"هل تأمرون بالبصل البنفسجي الى جانب شرائح السمك؟"

"أستغفر الله.. رجاء، رجاء فقط.."

"آه منك يا سيدة شهوار، آه. وجدت زوجاً مطيعاً على هذا النحو، وهي تخرف. القيام بواجبات الزوجة نحوك شرف، إنه شرف!"

"أشكرك يا سيدتي".

"والله ليس مجاملة يا حضرة السيد. صدقوني أن حضرتك رجل حتى النخاع.. هل الخبز بائت؟ سأجلب الأكثر طزاجة إن أردتم؟"

"أرجوكِ يا سيدتي، أرجوك.. أي بائت هذا؟ إنه بطراوة القطن، بطراوة القطن، ولكن حضرتك؟ حضرتك، ألن تشربي؟"

تغنجت: "آه منكم، آه.. هذا يعني أنكم تأمرونني أن أكون نديمتكم؟"

"إيه، لن يكون سيئاً."

"حسنٌ، ماذا أفعل؟ طالما أنكم تريدون..."

جلبت كأساً كريستالياً من المطبخ، وماء من الثلاجة، ولم تجلس قبالته بل على كرسي على يساره، وبيديها المعتادتين صبت عرقاً، ومزجته بالماء، وقرعت الكأس: "بصحتك يا حضرة السيد!"

"لتبق صحتك دائمة يا حضرة السيدة!"

الكأس الأول، والثاني، وبعد الثالث انفك لسان السيدة إفاقة. بدأت البشرة التي تحت الطلاء الأحمر بالاحمرار، والعيون بالتسبيل: "آه يا حضرة السيد، لا يمكنكم أن تتصوروا ما عانيته من المرحوم. راحت

حياتي معه دون أن أعيش يوماً جيداً. صدقوا، من المعيب قول هذا، ولكننا كلنا دخلنا بيت الدنيا، وخرجنا، كما هو معلوم؟ أنا لا امتلك مع زوجي، رحمه الله، ولا ذكرى واحدة يمكن أن أستعيدها.."

الكأس الرابع: "... والله لا أتذكر شيئاً كهذا وبالله أيضاً!"

اضطر قدرت البركان للقول: "واضح. فلم تُنهكي حضرتك أبداً.."

"آه يا حضرة السيد، آه. في هذه الأثناء تعرضت لنوبة برد، الله يحميكم، ويبعدها عنكم، فقد مرضت. باختصار، الحمد والشكر لله.. أعتقد لأنني لم أنجب طفلاً؟ انظروا إلى هذا اللحم!"

مدت ذراعها. لم يكن متهدلاً كما عند امرأة في ذلك العمر، ولا يبدو عليه التجاعيد، بل على العكس، حتى إنه يثير الشهية. التقط قدرت البركان الذراع بيده الضخمة المكتنزة. تلوت السيدة إفاقة وكأنها تتدغدغ: "آي..."

"ما هذا يا حضرة السيدة؟"

"دُغدغت!"

"أنا أدوخ بالمرأة المدغدغة!"

قالت مثل امرأة شابة: "حقاً؟"

كان قدرت البركان متجاوباً، فالتقط الذراع الآخر هذه المرة، وراحت المرأة تتلوى وكأنها تُدغدغ إلى آخر حد، وتنحني فوق قدرت البركان، ثم عناق، وبعده لحظة أراد قدرت البركان أن يقبلها، نهضت، وهربت إلى الطرف الآخر من الطاولة، ولحق بها قدرت البركان: "لا تطاردوني أرجوكم، لا تطاردوني!"

"لا تهربي، أقول لك لا تهربي."

"لا تفعل هذا يا قدرت، يا عزيزي قدرت دخلك لا تفعل هذا!"

"تعالي يا بنت!"

"ولكن كيف يمكن هذا يا روح روحي؟ ماذا لو جاء أحد؟"

"لا تخافي، لا أحد يأتي!"

وتحرك نحوها، فهربت. وفجأة توجه هروبها الى غرفة النوم وقدرت البركان خلفها. أمسك بها بجانب السرير، واحتضنها، وجاء صوت أليف من الخارج: "يا خالة سيدة إفاقة!"

تراجع قدرت البركان متعرفاً على صوت ابنته: "إذا سألت عني، فأنا غير موجود، ولم تريني!"

قالت المرأة: "آآآ، طبعاً."

هرعت، وفتحت الباب.

قالت أليف: "أبي ترك باب الشقة مفتوحاً، وذهب إلى مكان ما. هل رأيته؟"

"لا، كيف صارت جدتك؟"

شمت أليف رائحة اليانسون تفوح من فم إفاقة، فقالت بصفاقة: "ما هذا يا خالة سيدة إفاقة؟ لنفهم أولاً.. هل يُشرب العرق من دوننا؟"

ومن أجل إنقاذ الوضع، تنهدت، وقالت: "آه يا صغيرتي، آه، الوحدة أمر خاص بالله فقط. ماذا سأفعل؟ آلمني ضرسي اللعين قليلاً مرة أخرى. وعلى نية العلاج.."

في هذه الأثناء جاء الأخوان الكبيران وصعدوا جميعا إلى الأعلى وهم يتساءلون عن المكان الذي من الممكن أن يذهب إليه أبوهم بصوت صاخب.

وبعد زمن قصير، قال أبوهم عندما أتى: "انتهت سجائري!"

- ٢٠ -

ما بدأ مزاحاً بات حالة غرام كبيرة. احتضنت المرأة التي تعيش وحيدة لسنوات طويلة الرجل القوي الذي استحوذت عليه.

"اطرد شهوار النحيلة يا قدرت!"

"وبعد ذلك؟"

"نعيش معاً!"

"الأولاد، والأولاد؟ والبيت؟ ومصروف البيت؟"

"ما علاقتك أنت؟ بدل أن تأكل زوجتك النحيلة الجاهز، وأن تصرف على العاهرات من كيسك، دعها تعمل في مكان ما. والصبيان كل منهما بقد حمار. والبنت مثل قطط شباط. والذي يعطيه الله لا يتسع له كف. غير هذا، سأقول لك، إنك حقيقة سبع نفخ مثل ما تقول زوجتك!"

"أنت أيضاً يا إفاقة؟"

"نعم، أنا أيضاً، أنا أيضاً، ولكنني لست ممن لا يقدرن رجولتك مثل ما تفعل زوجتك. أنا أتألم من أجلك، أنت طيب القلب، وتعاني من طيبة قلبك. افتح عينيك!"

ترى هل تمتلك السيدة إفاقة أموالاً كثيرة؟ إذا كان معها، فهل تبني له ذلك البيت الصغير خارج المدينة الذي حلم به طوال تلك السنين كلها؟

إذا قبلت بهذا، إذا قبلت، وذهبا معاً، وضيعا أثرهما.. فقد كلّ وملّ من زوجته وأولاده، بقدر ما كلّ وملّ من أصدقائه. لابد أن يقبض عليه ذات يوم ويلقونه في السجن. وبعد هذا، لتمض كل دقيقة من حياتك التي لا تمضي بأي شكل بالوحدة الرمادية وأنت تتخيل منتظرا إكمال فترة سجنك!

خطرت بباله قضية البيت تلك ذات يوم عندما كان يرعي أمه. لم يكن ثمة أحد في البيت، وكان نائماً وأمه تتنفس براحة. إنها الفرصة المناسبة. نهض، ونزل فوراً. دفع الباب، ودخل. كانت إفاقة دوردانة تنتظره أصلاً. وتحدثت مرة أخرى مثل النساء الشابات وقد رفعت شعرها الى الأعلى، وصبغت شفتيها: "هل جئت يا روح روحي؟"

"سأكلمك بموضوع هام جداً."

"قبلني!"

"ولكنه هام جداً!"

"هل ضاجعت زوجتك هذه الليلة؟"

"لا يا روحي."

"وإذا كنت تكذب؟"

"لتعمى عيني!"

"إجلسني في حضنك!"

أجلسها، وقبلها، وداعبها، ولكن رغبات المرأة لا تنتهي.

"إفاقة، يا حبيبتي، اسمعيني لحظة!"

"لندخل إلى غرفة نومي."

"سندخل يا حياتي. ولكن لأقل لك ما يخطر ببالي أولاً.."

"لندخل إلى غرفة نومي في البداية وبعد ذلك.."

عانقها مضطراً، وتركها على السرير. فتمددت على ظهرها وقالت: "تعال إلى جانبي!"

أراد أن يتمدد بألبسته: "جئت، ولكن، ما أردت قوله أصلاً.."

"اخلع سترتك!"

"إفاقة!"

"ما هذا؟ ستخلع ألبستك حتى لو كنت مع زوجتك المقرفة. ستخلع ثيابك، ستخلعها يا سيدي!"

"يا إفاقة، يا حلوتي، تعرفين أن لا أحد عند أمي!"

انقلبت المرأة هذه المرة على بطنها، وبدأت تبكي بدلال.

بدأ قدرت البركان يداعب شعرها: "يا إفاقة، يا روح روحي، يا حبيبتي."

قفزت مثل امرأة شابة ومعقدة، وجلست: "لا، إنك تكذب، أنت تخونني. أنا لست إفاقة التي لك، ولست روحك، ولست حبيبتك أيضاً. لو كنت لإفاقة، وكنت روحك، وحبيبتك، لسمعت كلمتي."

"ما الذي أردته وقلت لك لا؟"

"قلت لك اخلع سترتك ولم تخلعها."

"حسنٌ يا حياتي ها أنا خلعتها."

قالت المرأة العجوز هذه المرة بإلحاح: "احتضني بقوة."

احتضنها.

"قبلني!"

قبلها."

"بقوة أكبر، وبصدق أكثر!"

بقوة أكبر، وبصدق أكثر. اتخذ حالة الجد بعد ذلك: "ماذا خطر ببالي، هل تعرفين؟ أقول، ليكن عندنا بيت خارج المدينة."

كأن إبرة غرزت في لحم السيدة إفاقة: "ماذا؟ بيت لنا خارج المدينة؟"

"نعم، بيتنا. في الأعلى ثمة غرفتان وصالون ومقهى في الأسفل..."

لم تكن السيدة إفاقة مصدقة أذنيها: "يا إلهي ماذا سيحدث؟"

"لو تسحب نفسها امرأتي القذرة تلك، وأولادي يذهبون، أو تغير حياتها.. ها؟"

"نعم؟"

"وأتزوجك."

قاطعته: "وننتقل إلى هناك، أليس كذلك؟ أخشى أن تدير المقهى تحت البيت أنت؟"

لم يقل لا، ولا نعم. فهمت المرأة نية الرجل.

"أيليق بك شغل المقهى وأنت سيد، سيد محترم لا يتسع لك الباب؟ لماذا تعلقت بك أنا؟ لأنك سيد محترم! وإلا كنت أجد صاحب مقهى لو أردت؟ إذا اضطررت فعليك أن ترمي امرأتك وأولادك، وحتى أمك، وتأتي، وتسكن عندي، في شقتي. يمكن في أفضل الأحوال أن أفعل شيئاً: نبيع هذا الطابق، ونشتري واحداً آخر في أحد أحياء اسطنبول الأرقى، وندس رأسنا تحت سقفه، وينتهي الأمر!"

كان يفكر: وبهذا يتخلص من أصدقائه النقاقين، ومن هلعه في كل

تفتيش" قائلاً لنفسه سيقبض علي. ولكن المقهى والبيت الذي يرغب بهما وإدريس كاتب العرائض الى جانب المقهى... يجلس هو خلف الطاولة، والنادل ينادي: "واحد شاي!"، "اثنان قهوة.. يركض في بحر دخان السجائر من هنا إلى هناك. كانت هذه حسرة في قلبه. إنها حسرته التي يعتقد بأنه لن يصل إليها في أي وقت.

وصلت قضية السيدة إفاقة إلى أذن إدريس: "ولكن احذر أن تفتح الموضوع للجمل أو غيره!"

"هل أنت مجنون؟"

"تصيدت أرملة غنية في مكان ما."

"إيه؟"

"عندها طابق، وسندات، ونقود..."

"كم عمرها؟"

لم يستطع القول فوق الستين، فقال: "إيه، خمس وخمسون تقريباً، ولكنها لم تلد، فهي امرأة سليمة. القضية ليست بسلامتها، بل بنقودها. إنك تفهم ياه؟"

"حسنٌ!"

"أنا سئمت من التفتيش، ومن التحصيل. أنا خائف. ما قولك؟ إذا قبض علينا، ألن يكون وضعنا بائسا؟"

خطر ببال إدريس سجن البلدة الوسط أناضولية في زمن ما. ما الذي كان ينقصهم؟ يكتبون من الصباح إلى المساء لوائح النقض وطلباته، وعاشا على ضيافات الموقوفين والمحكومين الجاهلين ذوي الأوضاع المالية الجيدة دون صرف قرش واحد، غير أنهما جمعا نقوداً.

"لماذا سيكون حالنا بالويل؟ هل كان هناك ما يُقال عن متعتنا ورفاهيتنا؟ هل نسيت تلك الأيام؟"

"نعم، ولكننا تقدمنا بالعمر الآن. وغير هذا فكر، فكر بما ستكتبه الجرائد! والله سنتبهدل..."

ولكن أصدقاءه لم يدعوه على راحته: "يا محتال، هيا نحن ذاهبون!"

تنتظر سيارات أجرة متلامعة في الأسفل. ينهض. يدخل في المقدمة بأداء "رئيس هيئة تفتيشية" مع مجموعة من الرجال الذين يحملون حقائب، ودفاتر كبيرة، ويتبعه أصدقاؤه من خلفه مبدين احتراماً كأنه "رئيس هيئة تفتيشية" حقيقية مؤمنين احترام المحيط له. تقطع السيارات الشوارع بسرعة، وانتباه، وتقف أمام المؤسسة التي يراد "تفتيشها". وما بعد ذلك واضح...

قال الجمل ذات يوم: "اكتشفت على البوسفور فندقاً سياحياً رائعاً. إذا استخدمنا الأمر جيداً، فإننا سنضرب ضربة جيدة!" ثم شرح الأمر: "أصحابه موظفون أصلاً.. أي أنهم سذج. تنقطع مراراتهم رعباً من الشرطة والمداهمات المفاجئة. الذي حكى لي فهمهم جيداً. وهم يتعاملون مع نساء وما شابه ذلك. لنقم بمداهمة. لنرسل خبراً لذلك اللعين لكي يأتي، ولنذهب غداً!"

كان "اللعين" بجانب أمه التي ساءت حالتها فجأة. كان قد بدأ لون المرأة بالازرقاق. وانتفخت يديها ووجهها، وخاصة وجهها الشبيه تجعده بتجعد الأرز بالحليب. لم تعد تستطيع رفع ذراعها، وإذا لم تأخذ الإبرة تصرخ بكل قوتها من الألم.

دخلت المرأة في الغيبوبة. وكان الطبيب يشك بأن تبقى للغد أو بعد غد، وإذا ما طال الأمر، فلليوم الذي يلي بعد الغد. ولكنه رغم هذا، كان يقول: "استمروا بإعطائها الإبر."

"ألا نستطيع أن نوقف لها ألمها يا دكتور؟"

"ألا تعطونها الإبر؟"

"نعطيها، ولكن..."

"هذا يعني أنها لا تكفي. اعطوها إبرة ونصف."

وزرقت بإبرة ونصف، ومن كان يزرقها يعرف حقيقة الأمر، ولكنه رغم هذا لا يتكلم، يتهرب من هذا.

"ستشفى إن شاء الله. يمكن أن ترونها قد نهضت ذات يوم."

لم يكن قدرت البركان يستطيع ترك أمه، ولكن عقله وتفكيره عند إفاقة. ليس بسبب حبه لها، ولكن بسبب غوصه في الوحل. تلك المرأة التي كانت راقية، والتي تقدره حق تقدير، تغيرت تماماً الآن، وبدأت تظهر لقدرت البركان عقدة وراء عقدة: "قدرت، والله أنا لا أتدخل. ولكنني سأخبرها فيما بيننا!"

"لماذا يا ألماستي؟ ماذا فعلت؟"

"طالما أنك بدلت زوجتك بي، وطالما أنني حبيبتك، فعليك أن تعرج علي كثيراً."

"أمي يا إفاقة تعرفين!"

"لا أعرف، لا أعرف شيئاً. والله وبالله أوسخ نفسي، وأبهدلك وأبهدل نفسي أمام العالم كله، ليكن هذا بعلمك!"

"ولكن يا إفاقة سيدة محترمة مثلك..."

"أنا لم أعد سيدة محترمة، وما شابه، هل تفهمني؟ أحبك يا هذا، وأريدك بجانبي، هل يوجد غير هذا؟"

"وهذا سيحدث يوماً ما، اصبري!"

"لا أستطيع."

"كرماً لخاطري!"

"خاطرك على رأسي، ولكنني لا أستطيع. لا أستطيع!"

"لماذا؟"

"سئمت من الوحدة. لماذا لا يكون الرجل الذي أحبه في فراشي طوال الليل؟ لماذا لا يحتضنني، ويحنو علي، ويوقظني من نومي؟ أليس هذا حقي؟"

"حقك يا ألماستي، حقك، ولكن."

"ليس في الأمر ولكن. عليك أن ترمي تلك المرأة القذرة، وأولادها، وأمك، وتأتي إلي.. هذا كل شيء!"

"..............."

"..............."

"..............."

قال البقال عاكف: "يا خالة السيدة إفاقة، والله لساني لا يطاوعني على قول يا خالة. ما هذا الشباب في الأيام الأخيرة؟ ما هذا الجمال؟ أخشى أنك عاشقة؟"

صارت امرأة أكثر شباباً بعشرين سنة، ولمعت بشرتها، وتتراقص تراقصاً: "لِمَ لا يا عاكف أفندي؟ أنا لم أعشق امرأة مثل شهوار ذات الرائحة النتنة ياه!"

"من إذاً؟"

"رجل يا هذا، رجل. يسلم لي يا روحي!"

لم يتأخر حب السيدة إفاقة بالانتشار في الحي بسرعة الصاعقة.. الصغار والكبار، والشباب يتحدثون ويضحكون: "هذا يعني أنها عاشقة، ها؟"

"وبقوة!"

"من يا ترى؟"

"إنها تخفي هذا يا أخي.."

"أهو من هذا الحي؟"

"غير معروف."

ذات يوم قالت لها أليف: "سيدة إفاقة، هل صحيح ما سمعته؟"

لم تكن" السيدة الخالة إفاقة" تلك السيدة إفاقة التي تعرفها من قبل. فسألت لقيطة شهوار التي تكن لها الحقد بحدة: "ما الذي سمعته؟"

"أنك عاشقة، هل هذا صحيح؟"

باغتتها وقالت: "لست مثل السيدة والدتك أعشق النساء، والساقطات ياه!"

غضبت أليف. ماذا يمكنها أن تفعل؟ صعدت غاضبة، وأفرغت حنقها على أمها التي أغلقت على نفسها غرفتها مع أغراض سما: "كفى بعد هذا، كفى!"

اندهشت المرأة فيما تعرضت له: "ما هو الذي كفى؟"

"اذهبي واسألي إفاقة عما تقوله! نحن نغور في الأرض بسببك!"

خرجت شهوار من ذكريات سما اللزجة واللامعة، ونظرت إلى ابنتها نظرة شهوار القذرة كما كانت في الأيام القديمة: "ماذا تقصدين؟"

"أنا لا أقصد شيئاً. اسألي السيدة الخالة إفاقة!"

"ماذا سأسأل ذات الرائحة النتنة؟"

"ذات رائحة نتنة، أم صبية نضرة؟ المرأة غارقة بالحب حتى أذنيها."

نهضت شهوار وذهبت إلى السيدة إفاقة.

كانت السيدة إفاقة تنتظرها. فهمت أن شهوار قد أتت من ضغط زر الجرس بحنق. فتحت الباب. دُهشت شهوار عندما رأت أمامها المرأة وقد استعادت شبابها، وتغير وجهها. سألتها: "ماذا قلت لأليف يا سيدة إفاقة؟"

ردت: "ماذا قلت؟"

"لا أعرف، البنت تبكي دون توقف!"

قالت إفاقة بانفعال نهر مجنون انهارت سدوده: "انظري إلي يا شهوار! أنا حتى اليوم امرأة تعيش وحدها مثل رجل! وأنا لا أخاف من أحد أو أجامل أحداً غير الله. لا يمكن لواحد مثل رجلي طولها شبر أن تقف أمامي، وتقول: يا خالة سيدة إفاقة، هل صحيح ما سمعته؟"

قالت شهوار: "ما الذي سمعته؟"

قالت أليف التي تستمع لجدل أمها مع السيدة إفاقة من فوق الدرج: "امرأة عجوز تعشق. إنها عاشقة!"

انطلقت السيدة إفاقة من الباب كالمجنونة. وأبعدت شهوار بدفعة واحدة، وتكاد أن تصعد الدرج بسرعة، وتضع البنت تحت قدميها: "بالتأكيد عاشقة، يسلم لي روحي. ما الذي ينقصني عنكِ، وعنكم؟ أنا أضع أمثالك اللواتي يذهبن مع هذا وذاك في جيبي يا قطة شباط!"

قالت أليف: "أنت قطة شباط، وقطة عجوز!"

"ماذا يوجد يا مكنسة الشارع؟"

تدخلت شهوار: "حباً بالله يا سيدة إفاقة. مع واحدة ليست بعمر ابنتك، بل بعمر حفيدتك.. حباً بالله يعني!"

التفتت إليها هذه المرة: "انظر إلى الأم، وخذ البنت. وانظر إلى البطانة، وخذ الوجه!"

"ياا!".

"مثل لبن الزبادي!"

"ما أعجبتك أمها؟"

"لم يبق عندك طرف يمكن الإعجاب به!"

"أنت ما شاء الله عليكِ.. انظروا إلى هذه، واحدة بعمر أمي، والكحل، ورسم الحاجبين..."

"نعم، ولكنني أحِب، وأُحَب يا فائحة الرائحة؟"

"ماذا؟ فائحة الرائحة؟ تقولين هذا لي؟ هل تقولين هذا لي؟"

"طبعاً لك!"

"أنا لم أغدو مسعورة مثلك بعد الستين، فهمت؟"

"صحيح. أنا التي أبكي وراء سما، وأدخل الحَداد، وأفتح الفأل، أليس كذلك؟"

"لا علاقة لك بهذا. صارت سمعتك بالأرض في الحي، ولا علم لك!"

"هيه، هيه.. هيه... يمكن أنك نظرت في المرآة، وقلت هذا.. إذا كنت قد تعلقت أنا، فقد تعلقت برجل كالسبع. أما أنت؟ ماذا عنك؟"

تعكر مزاج قدرت البركان جيداً وهو يستمع للشجار قلقاً خلال جلوسه بجانب أمه التي غاصت في الغيبوبة. وإثر قول إفاقة: "إذا كنت قد تعلقت أنا، فقد تعلقت برجل كالسبع" قفز من مكانه، وبدأ يرتدي

ثيابه بسرعة. ثمة جانب يقول له بإلحاح بأن هذا الشجار سينفجر فوق رأسه مرة أخرى. نسي أمه التي بدأ يصعب تنفسها، وفكر بأن يلقي بنفسه خارج البيت. وهو لا يعرف كيف سيحدث هذا، ولكنه إذا لم يجد طريقة، ويهرب، يمكن للمرأتين أن تدخلاه في الموضوع. من القهقهات التي تعالت يُفهم أن سكان طوابق الأبنية الأخرى نساء ورجالاً خرجوا بالألبسة الداخلية، وتجمعوا على الدرج، كأنه ليس شجاراً، بل مسرح كوميدي. كانوا يستفزونهما من تحت إلى تحت ثم يطلقون القهقهات..

"..............."

"..............."

"..............."

"يا جلد على عظم، يا جلد على عظم!"

"ماذا هناك يا قوادة الحي التحتاني؟"

"لي أنا، هل تقولين هذا لي أنا؟ اشهدوا يا جيران، اشهدوا!"

وبينما كانت المرأتان تتشاجران، وتنتف إحداهما شعر الأخرى، انطلق صوت شهوار مثل صوت ديك مسن: "يا قدرت، يا زوجي قدرت!"

صوت إفاقة: "كوني قرباناً لقدرت، وللسيد قدرت أيضاً. أنت لا يبلغ مقامك أن تصبي الماء على يدي قدرت!"

"صحيح، أنا لا أصبه... أنتِ صبيه!"

"إيه، هذا سيحدث يوماً ما!"

"ياا!"

"نعم."

"هذا يعني أن عينك على زوجي؟"

"هذا ليس زوجك!"

"ماذا؟"

"لا تجعليني أفتح فمي يا شهوار، لئلا نتبهدل أمام الجيران أكثر!"

"افتحيه، افتحيه.. انخفض مستواك إلى أبعد ما يمكن أن ينخفض، بالنسبة إلي فلا يهمني أبداً يا جدتي.."

"جدتي، جدتي! ياا!"

أطلق الذين على الدرج صيحة الدهشة! هذا يعني أن السيدة الخالة إفاقة عاشقة للسيد قدرت؟ هذا ما لم يعرفونه بعد.

خلال استمرار الشجار في الأسفل، ارتدى "السيد العم قدرت" ثيابه بصعوبة نتيجة ارتجاف يديه ورجليه، وبدأ ينزل الدرج. وكان الوقت المناسب بالضبط. قفزت عليه المرأتان معاً: "هذا يعني أنك وقعت بغرام هذه المرأة، ها؟"

ارتبك الرجل: "يا شهوار، يا زوجتي العزيزة."

قالت إفاقة من هناك: "ماذا؟ شهوار؟ زوجتي العزيزة؟"

"عفواً يا سيدة إفاقة، يا عزيزتي السيدة إفاقة."

"أما كنت حلوتك؟ أما كنت ألماستك؟"

"قدرت، ماذا أسمع يا قدرت؟"

"..............."

"..............."

وجد فرصة وسط شجار المرأتين، وقهقهات الجيران، وألقى بنفسه إلى الشارع. أووه، ثمة حياة. الجو مشمس. لم تكن بباله أمه، ولا شهوار وإفاقة... ودون أن يري نفسه للبقال عاكف وبوقع قدميه المعهود، وحقيبته الصفراء، وقبعته الأسطوانية، توقف على رصيف الشارع. ولاه، يا لها من كارثة حقيقية!

"تكسي!"

"إلى أين تأمرون بالذهاب يا سيدي؟"

قال متلاحق الأنفاس: "إلى تشاغل أوغلو!"

نعم، الآن تعقدت الأمور إلى الآخر. كيف يمكن أن يعود إلى ذلك البيت بعد تلك البهدلة؟ وإذا عاد، فإن زوجته ستقف له من جهة، وإفاقة من جهة أخرى. وهناك الولدان والبنت المنزعجون منه لأنه لا يمنحهما نقودا كثيرة، وينتظران أن يغرقاه في ملعقة ماء. أما بالنسبة إلى شهوار فعلى الأغلب لن ترغب بإدخاله إلى البيت بعد كل هذه البهدلة. أما إفاقة.. ولاه، لقد وقعت على رأسي تماماً! بدأ الأمر مع المرأة هزلاً، ولكن ذيله علق بكل معنى الكلمة.. وهاك أنقذه إذا كنت تستطيع إنقاذه!

يجب ألا يُشعر أصدقاءه في المكتب بهذا الأمر حالياً، وأن يعطي نفسه "للتفتيش والتحصيل". يجب أن يعطي نفسه، ليدخل جيبه بضعة قروش!

كان أصدقاؤه يناقشون الأمر نفسه في المكتب، وكان الجمل يقول: "ليدع الجلوس بجوار أمه وليأت. هذه أم. ستموت بالتأكيد. لن يمنحها روحاً بالجلوس إلى جوارها !"

إدريس يسأل الجمل باستمرار عن الفندق الذي على البوسفور: "هذا يعني أنهم يؤون فتيات أيضاً؟"

قال الجمل الذي يسير من زاوية المكتب هذه إلى تلك: "يا هذا، نحن نأكل خبزاً من هذه المهنة منذ سنوات طويلة. فهل أدوس على خشبة رخوة؟"

قال آخر: "لا، ليس أمراً، ولكنك تقول إن أصحاب الفندق جاؤوا من الوظيفة. فهل تنطلي لعبتنا على من أمضى زمنه في الوظيفة؟"

غضب الجمل: "انظر إلى المخبول."

- ٢١ -

لم يكن الفندق الواقع في مكان رائع على البوسفور ضخماً جداً، ولكنه ظريف ولطيف. لم يكن مزدحماً كثيراً لأنه افتتح حديثاً، ودخل حيز الاستثمار قبل فترة وجيزة.

وعلى شرفته المطلة على زرقة مياه البوسفور المريحة والهادئة تحت أشعة الشمس يجلس صاحبه القاضي المتقاعد، ومديره المحافظ المتقاعد، ويلعبان الطاولة. كلاهما ضخمان، ولهما بطنان كبيران.

هز المحافظ المتقاعد نرده وهزه ثم ألقاه: "ما هذا يا عديل؟"

"دو، يك."

"بدت لي كأنها دو بارة!"

"لا، لا أريد دلالاً! العب.."

"حسنٌ، هذه الدو، وهذا اليك. صار؟"

"ما الذي لن يصير يا قائدي؟ خذ دو شيش. تفو، شيش، بش. ولاه، انحصرنا هنا، وما عدنا نستطيع الخروج.."

"..............."

"..............."

"..............."

لم ينتبها للسيارتين المقتربتين سريعاً وسط صمت رائحة البوسفور، ولعلهما وقفتا أمام باب الفندق مباشرة. كان هذا فندقاً.. لعلهم زبائن جدد.. كان المحافظ المتقاعد المدير الإداري للفندق، ولكنه لم يكن يستطيع الركض إلى هنا وهناك بعد هذا العمر. فوق هذا عنده ربو وسكر، وهذا وذاك.. كان عنده شخص يدعى ثريا يركض مكانه إلى هنا وهناك. إنه صهر عديله. وفي الحقيقة إن هذا مفتح العينين. يفهم بقضايا الشرطة والبلدية بخبث رهيب، ويسير أموره حيث لا يحرق الكباب، ولا سيخه!

"نعم يا عديل، هذه السي، وهذا البنج!"

"شفت واحد، وتُغلب مرس، لا تنس هذا!"

"رمي ذلك الشفت، آه يا قائدي، آه.. يحتاج إلى ذراع، إلى ذراع!"

أشار المحافظ المتقاعد إلى ذراع يده التي تمسك النرد، وقال: "ما هذا؟"

"هذا؟ هذه قرمة ملفوف، قرمة ملفوف!"

قه، قه.. قه، قه.. ضحكا. رمى المحافظ المتقاعد النرد، دو يك.

قال القاضي المتقاعد: "إيه، الحمد الله على سلامتي!"

"أشعل سيجارة إذاً!"

"تسلم!"

نزل صهر القاضي بسرعة إلى الأسفل، وقبل أن يحدد هويات القادمين بسيارتي أجرة لامعتين وقفتا أمام الباب، أمر رجاله: "تخرجون النساء وما له علاقة بهن من الباب الخلفي.. مفهوم؟"

كان مدير فندق سابق في نحوالسادسة والثلاثين من عمره، وعيناه تغزلان في محجريهما! وعندما خرج حموه إلى التقاعد ووقع بين يديه

مبلغاً كبيراً من المال، أدخل برأس المسن فكرة الفندق تلك التي تدور برأسه منذ فترة طويلة، وفعل ما فعله ليجعله يشتري هذا الفندق.

كان يحاول تحديد هويات النازلين من السيارتين، ولكنه لم يدرك الأمر. كان ينظر، وينظر فقط. الرجل الطويل والعريض الذي يحمل حقيبة صفراء، ويصدر وقعاً بحذائه الأصفر إما رئيس الهيئة، أو.. بالنتيجة لم يكن يستطيع تحديد الأمر. من الممكن أن يكون رئيس الهيئة، ونزل الرجل من السيارة مصدراً وقعا، يداه خلف ظهره، وبيده حقيبته وقبعته الأسطوانية، وينظر إلى الفندق من الأعلى إلى الأسفل، وباحترام شديد يشرح أموراً ما للرجل الطويل الضخم اليدين وللرجلين المجاور له. يجب أن يكون الآخرون موظفون صغار تافهون. أحدهم يحمل حقيبة سوداء يمكن أن يكون الجابي.. كان سيقول إنه طبيب، ولكن لا، لا يبدو عليه طبيبا. ولماذا سيكون طبيباً؟ لو كان طبيباً، يمكن أن يقول إن هذه لجنة الصحة التابعة للبلدية، ولكن لجنة الشؤون الصحية والفنية جاءت، ورأت كل شيء. بقيت الشرطة. ترى هل هؤلاء من الشرطة؟ لو كانوا من الشرطة... لا يا عزيزي الشرطة لا تأتي على هذا النحو. حسنٌ، ولكن أحداً غير الله لا يعرف كيف تأتي الشرطة.. من يأتي للمداهمة إما أن يأتي في منتصف الليل أو عند الصبح، وبشكل مفاجئ. لا، لا.. لم يحدث شيء كهذا في الفندق من قبل. إنه يعرف هذا من العارفين بهذا الأمر، ومن مديري الفنادق المختلفة التي عمل فيها.

الرجل الطويل، والضخم اليدين والقدمين يشبه "الجمل". بينما كان يقدم "الآمر" صاحب الحذاء الأصفر، والحقيبة الصفراء، والقبعة الأسطوانية المصدر وقعاً بأقدامه، كان يقول: "تفضل يا حضرة السيد."

وصل "حضرة السيد" بخطوات بطيئة إلى باب الفندق، وتوقف قليلاً. دخل. حتى إنه لم ينظر إلى الرجل المحترم الذي ينتظر بجوار الباب مرخي اليدين. هذا أدخل الذعر إلى قلب صهر القاضي صاحب التجربة.

دخلت "الهيئة" إلى الفندق، وكانت تتقدم على الطريق الرملي الأحمر الناعم. وإذا كان يشعر بشيء من الخوف لعدم معرفته بهوياتهم، فإنه مرتاح قليلاً لأن النساء وما له علاقة بهن يجب أن يكونوا قد خرجوا من الباب الخلفي قبل هذه اللحظة. ليكونوا من البلدية، أو من الشرطة، أو "أعضاء أي هيئة تفتيشية". كان دفتر الشرطة منتظماً، أما القواعد الصحية، فهم يراعونها بشكل مدهش. أما أكثر من هذا..

دفع الجمل باب أحد تواليتات الطابق السفلي: "انظروا!"

ألقى "حضرة السيد" نظرة، ثم قال: "هناك رائحة خفيفة!"

أيده الجمل فوراً، وقال: "معكم حق يا حضرة السيد، موجودة! هل نلقي نظرة إلى الأخرى؟"

نظر قدرت البركان إلى ثريا بعينيه الواسعتين والمستخفتين، وقال: "هل التواليتات الأخرى كلها على هذا النحو؟"

قال ثريا الذي يفرك بيده: "لا يا حضرة السيد فالتي في الطابق الأعلى إفرنجية!"

"لماذا هذه تركية؟"

"يا سيدي، لأن هذه للمستخدمين.."

"يااا. هذا يعني أن المستخدم ليس إنساناً؟"

التفت إلى صاحب الدفتر الضخم، وقال: "دوّن الملاحظة!"

غضب بعد ذلك: "ما عملك أنت في الفندق؟"

"معاون المدير الإداري يا سيدي."

"دراستك؟"

"المتوسطة يا حضرة السيد."

"في هذه الحالة أنت تعرف ما يدعى ميكروب؟"

"أعرف يا حضرة السيد."

"ويجب أن تعرف أن الأمراض السارية تأتي من الميكروبات، وأن الميكروبات لا تميز بين المستخدمين وزبائن الفندق!"

"مع حضرتكم الحق، ولكن يا حضرة السيد.."

ارتفعت اليد الضخمة في الهواء: "لم أنه كلامي بعد!"

"أنا آسف يا سيدي.."

"والميكروبات لا تميز بين الزبون والمستخدم من جهة، وهي أيضاً.."

نسي بقية الكلام. بباله أمه، والشجار، وقهقهات الحي.."

وكما يفعل في أغلب الأحيان عندما ينسى بقية الكلام، قال: "نعم؟"

"مع سيادتكم الحق يا حضرة السيد.."

"لهذا.."

"التفت إلى صاحب الدفتر الكبير: "هل دونت الملاحظة؟"

"دونتها يا سيدي.."

"حسنٌ.. لنصعد إلى الطابق الأعلى!.."

ركض ثريا في المقدمة. قال له الجمل من خلفه: "انتظر، انتظر. لا تستعجل!"

وقف ثريا غاضباً. هل "الرجال" لجنة صحية، أم شرطة؟

سار قدرت البركان في المقدمة مصدراً وقعاً بقدميه، وعلى يساره من الخلف بنصف خطوة الجمل، وخلف الجمل صاحب الدفتر الكبير، وخلفه صاحب الحقيبة السوداء، وخلفه صاحب ربطة العنق تبرق عيناه الصغيرتان كعيون الجان. ولأن ثريا قرر بأنه يمكن أن يتفق مع هذا الرجل، اقترب منه، ووارب معه باب الحديث: "يا أخي الكبير، هيئة ماذا هذه يا ترى؟"

نظر صاحب العينين الصغيرتين، فتراجع ثريا كأنه كلب أكل رفسة. ولاه، ما أغرب هذه الهيئة! كان يعرف من تجربته المستمرة سنوات طويلة أن الهيئة مهما كانت، لابد أن تطرق باب التفاهم، تطرقه، وحتى إذا لم تطرقه فإنها تحدد صلاحيتها. ليس مهما، لو شرح الوضع لحميه وعديل حميه اللذين يلعبان الطاولة في الأعلى... لا يمكن هذا! إحالته إلى التقاعد لم تغير شيئا أبداً، فما زال الرجل يعتبر نفسه قاضياً، وهذا ما سيجعله يبدأ بالصراخ. كما أن عديله المحافظ المتقاعد أيضاً مثله مثل عديله القاضي المتقاعد، ما زال يعتبر نفسه محافظاً، وإذا تدخل فإنه سيخرب الأمر.

الأفضل أن يحل الأمور على سجيتها، وألا يحرق الكباب، ولا السيخ!

انطلق خلفهم. صعدت "الهيئة" إلى الطابق الثاني. ركض الجمل في المقدمة. فتح باب أحد التواليتات لا على التعيين وكأنه يعرف زوايا الفندق، ومداخله ومخارجه: "هذا هو يا حضرة السيد.. تفضل!"

وصل "حضرة السيد"، ووقف بالباب. نظر إلى الجدران، والأرض،

والسيراميك الأبيض في التواليت. في الحقيقة كان متوافقاً مع تقنيات التواليتات الحديثة. وليس هناك أي نقص يمكن أن يجده حتى لو أراد هذا. لمعت فكرة برأسه، فقال: "هات لي تعرفة فندقكم!"

وإذا كان ثريا لم يفهم شيئاً، ركض قائلاً: "كما تأمرون يا حضرة السيد."

قال الجمل خافضاً صوته: "عفّست ولاه. تعرف ماذا طلبت من الرجل؟"

"من أين سأعرف؟"

"أنت اليوم شارد تماماً. ماذا يحدث لك؟"

تنهد بعمق: "أمي، أمي مريضة جداً.."

خطرت بباله أمه مرة أخرى. وهي في الحقيقة مريضة جداً. وهي الإنسانة الوحيدة التي تربطه بهذه الحياة. فإذا أغمضت عينيها، لا يبقى أي معنى للحياة بالنسبة إلى قدرت البركان. خاصة أن شجار زوجته وإفاقة قد عقد الأمور إلى الآخر.

كان ثريا مأزوماً بسؤال الرجل صاحب وقع القدمين: "هات لي تعرفة فندقكم!" إذ لا يعرف أي تعرفة سيعطيه. نعم ياه! أي تعرفة من تعريفات الفندق؟ هل أجرة السرير؟ أم تعرفة مطعم الفندق، أي قائمة الطعام؟

هرع إلى الشرفة في الطابق الأعلى. كانت لعبة الطاولة بين حميه وعديل حميه قد ارتفعت درجة حرارتها: "لا تخرب زهري!"

"سأخربه يا عديل، مجيء كل هذا الزهر.."

"والله اترك اللعبة!"

"في هذه الحال تكون مغلوباً!"

"..............."

"..............."

وضع ثريا يده وسط الطاولة: "توقفا، وانظرا إلى هؤلاء القادمين قليلاً!"

غضب المحافظ المتقاعد: "يا ابني، أنا لا أحب عدم المبالاة!"

كان ثريا أيضاً يغضب من هذا "المحافظ السابق" في داخله منذ اليوم الأول. ماذا لو كان عديل حميه؟ لولا ثريا فإن عديله حميه كان سيضع يده على جناح في الفندق.

قال: "يا عم. جاء أشخاص، وطلبوا مني تعرفة الفندق!"

لا الحمو صاحب الفندق، ولا عديل الحمي المحافظ السابق فهما شيئاً من "تعرفة الفندق".

قال القاضي المتقاعد: "أي تعرفة فندق؟"

قال المحافظ بقليل من الغضب: "نعم يا هذا، أي تعرفة؟"

قال ثريا محاولاً التظاهر بالرقي: "أنا أيضاً لم أفهم هذا."

"اذهب، واسألهم، واعرف منهم يا ابني!"

تنهد المحافظ المتقاعد: "هذا هو الإداري صاحب التجربة يا عديل؟"

إذا كان ثريا قد غضب، فإنه لم يُظهر هذا: "لو سمحتم، هل يمكن أن تنهضوا قليلاً، وتقابلوهم؟"

قفز المحافظ المتقاعد من مكانه باعتباره رئيس ثريا من جهة،

وبحيوية لم تكن متوقعة منه نتيجة راحته لأسابيع في الفندق من جهة أخرى. قال لعديله القاضي المتقاعد: "دقيقة."

سار في المقدمة، وثريا خلفه، ونزلا إلى الطابق الأسفل. ورغم تقاعد المحافظ، فإنه نتيجة الاعتياد القادم من اعتباره نفسه محافظاً، رتب ربطة عنقه وياقة قميصه المنشاة برغم عدم ضرورتها أبداً، ثم سأل ثريا الماشي خلفه على اليسار: "أين هم؟"

"في الأسفل يا سيدي.."

داعبت كلمة "سيدي" غرور المحافظ المتقاعد، ومنحته قوة. ستظهر خدمته في أوقات كهذه. وليفهم عديله القاضي المتقاعد أن صهره صاحب التجربة في الإدارة لن تفيده في أكثر الأوضاع حرجاً!

نزلا طابقاً آخر، وتوقف المحافظ المتقاعد حين وقع تحت بصره "مفتش المفتشين". واه، يا إلهي، هل هذا هو؟ إنه ذلك المحتال الذي قلب المدينة رأساً على عقب في الفترة الأخيرة لعمله محافظاً؟ إنه الرجل المكتملة أوراقه، وهي تنتظر عند المدعي العام ها؟

وفي لحظة التوقف تلك، تذكر أن "مفتش المفتشين" لا يعرفه. فقد تحدث في ذلك اليوم مع مساعد المحافظ، وقد أبلغ بأن المحافظ ذهب قبل نصف ساعة لأنه أصيب بوعكة. أي أن المحافظ المتقاعد يعرفه، وهو لا يعرف المحافظ المتقاعد.

استجمع المحافظ المتقاعد نفسه، واقترب. كان "مفتش المفتشين" ينظر إليه بشك!

يجب أن يفعل ما يفعله المحافظ من أجل أن لا يخيف الرجل؟

اقترب منه، وفرك بيديه، وقال: "أهلا وسهلاً يا حضرة السيد". لم يكن بينهم أحد، وعلى رأسهم قدرت البركان قد شك بأمر غير اعتيادي.

لم يقل قدرت البركان: "أهلاً بكم." سأله بشكل مباشر: "هل لديكم نساء في فندقكم؟"

"لا، نهائياً."

"بحسب البلاغ الوارد إلينا، فإن لديكم نساء!"

طار صواب ثريا، ولكن الفكرة لمعت في رأس المحافظ المتقاعد. التفت إلى ثريا: "لماذا لم تدخلوا السادة إلى المطعم؟"

دهش ثريا، وهو يتخبط بالارتباك. أهذا هو عديل حميه البخيل؟ لقد جاء حتى الآن كثيرون من البلدية ومن الشرطة، وتصرف معهم جميعاً ببخل شديد، فلماذا يتصرف مع هؤلاء على هذا النحو؟ برغم هذا، قال: "تفضلوا يا سادة."

سار قدرت البركان في المقدمة مصدراً الوقع المعهود، وخلفه إلى اليسار بنصف خطوة الجمل، وخلف الجمل مباشرة إدريس، وبجانب إدريس صاحب الدفتر الكبير، وبجانب صاحب الدفتر الكبير صاحب العينين الخضراوين الصغيرتين.

قال الجمل في الطريق: "كيف؟ هل كذبت عليكم؟"

غضب قدرت البركان: "هذا ليس وقته الآن!"

لم يكن لسان الجمل يتوقف: "لا يمكن أن نقبل بأقل من ألف ها!"

"اخرس ولاه!"

دخلوا إلى المطعم. كان هناك أشخاص تحت مظلات بلون البطيخ

الأصفر ومخططة بالأزرق، على كل طاولة اثنان، يشربون الجعة على الأغلب، ويتحدثون.

قال الجمل: "لنجلس على الطاولة البعيدة هناك، يمكن للمساومة أن تحتد!"

قال قدرت البركان مرة أخرى: "اخرس!" لأنه كان يخرب انسجامه.

فهم أن أصحاب الفندق قد خافوا. كل صاحب مؤسسة يخاف هو مخالف للقانون، أو لابد أن لديه مخالفات للقانون. وبالتأكيد أنه سيحصل على ألف نظيفة. هذا الفندق هو ماسة البوسفور. يمكن أن يحصل على مبلغ أكبر، ولكن أين المخالفات يا ترى؟ القضية كلها هي بالتقاط هذا الأمر!

ذهبوا إلى الطاولة البعيدة جداً. قال ثريا: "بماذا تأمرون يا حضرة السيد؟"

قال الجمل: "هات زجاجة عرق كبيرة ماركة كلوب بداية!"

وقال قدرت البركان: "وثلج، الكثير منه.. بعد ذلك.. هل يوجد سمك استاكوز؟"

"كما تأمرون يا عزيزي المحترم!"

وضع صاحب الدفتر الكبير دفتره على الكرسي المجاور، وقال: "شرائح سمك"

قال صاحب الحقيبة السوداء: "كافيار!"

لم يكن أي من النادلين يأخذ الطلبات، بل رئيسهم بنفسه يدونها.

قال ثريا: "غير هذا يا سيدي؟"

تدخل إدريس بالحديث: "هاتوا ما تجدونه مناسباً."

بعد أن ذهب ثريا ورئيس النادلين، قال الجمل لقدرت البركان: "انظر إليّ يا محتال! دع المساومة لي!"

قال إدريس: "لا، لي."

"حسنٌ، ولكن لقمتك صغيرة أنت. نحن هنا خمسة أشخاص. يجب أن يصل كل منا مئة ليرة على الأقل بعد أن نأكل ونشرب!"

قال قدرت البركان: "مئة قليل."

"قلت على الأقل."

"كيف تكون مئتا ليرة بعد الأكل والشرب؟ كيف تكون المئتان؟"

"إيه، ليست سيئة!"

جاءت زجاجة العرق الكبيرة ماركة كلوب المطلوبة. كان عليها غشاوة في الثلاجة. وسمك استاكوز، والقريدس، والكافيار، ومسحوق السردين، وسلطة البندورة مع حبات زيتون كبيرة، والبقدونس بالبصل والثوم، وكثير من الثلج، وزجاجات المياه المعدنية.

قال ثريا: "هل تأمرون بشيء آخر؟"

قال قدرت البركان بأبهة: "نناديكم إذا احتجنا"

فرك ثريا يديه فرحاً دون أن يظهر هذا، وذهب إلى المحافظ المتقاعد. بعد أن زول الرجل مجموعة أرقام على قرص الهاتف، قال: "ألو. من حضرتك يا سيدي؟"

تأتأ قليلاً، ثم حضر نفسه لتقبل احترام كبير، وقال: "محسوبكم محافظ (ش) المتقاعد يا عزيزي. كان هناك أوراق قد اكتملت.. هل تذكرتم؟ نعم يا حضرة السيد، إنه هنا، على البوسفور، في فندق

عديلي. هذا ما فعلناه يا عزيزي المحترم، هم الآن في مطعم الفندق. نعم، نعم.. لا تقلقوا يا سيدي. بالتأكيد يا سيدي. ولكن أسرعوا قليلاً. على رأسي يا سيدي المحترم!"

وضع السماعة مكانها. قال ثريا الذي شعر بشيء ما: "ماذا يجري يا هذا؟"

غضب المحافظ المتقاعد بشكل كبير من عبارة "ماذا يجري يا هذا؟" تلك، وكأنه يريد أن ينتقم من لا مبالاته السابقة، قال: "لا يوجد شيء."

"بمن اتصلتم؟"

"ستعرف بعد قليل!"

كان ثريا غاضباً جداً، وذهب إلى الشرفة، إلى عند حميه القاضي المتقاعد. كان القاضي المتقاعد ممسكاً بالنرد، ينتظر عودة عديله. هذا ما يفعله العديل دائماً عندما يكون على وشك كسب لعبة مزدوجة. لابد أن يجد ذريعة، ويهرب، لأنه لا يريد أن يجعل عديله القاضي المتقاعد يتذوق طعم الربح المزدوج للعبة.

سحب ثريا كرسياً بحاله الغاضبة تلك: "عديلك هذا رجل غريب يا عمي!"

قال القاضي المتقاعد الذي يفكر بالأمر نفسه نحو عديله لأنه وجد طريقة للهرب من اللعبة المزدوجة التي سيكسبها: "كثيراً."

"دعاهم الرجل على مشروب، برغم عدم ضرورة هذا. ما الذي يحدث ؟ بشرفي إن الحساب يمكن أن يبلغ مئة وخمسين ليرة أو مئتين!"

توسعت عينا القاضي المتقاعد: "مئة وخمسين ليرة أو مئتين؟"

"طبعاً !" ثم أضاف: "ما الذي يجبرنا على هذا ؟ نحن لسنا مضطرين لدفع أتاوة لأحد. وإذا كانوا موظفين رسميين، ولدينا أي مخالفة، فليكتبوا محضرهم!"

جاء المحافظ المتقاعد منهمكاً، وقال لعديله: "بسرعة، هات عشر قطع من ذات المئة ليرة."

بدا ثريا كأنه شعر بشيء.

وقال القاضي المتقاعد: "ماذا سيحدث؟"

"افعلا ما أقوله لكم، لا وقت لدينا. ولندون أرقام القطع النقدية، ثم ليجد ثريا طريقة لإعطائهم هذه النقود."

فهم ثريا الأمر، ولكنه خطير جداً. فهو لا يريد اللعب على الموظفين، وخاصة أن يوقعهم في الفخ. ماذا يفعل هذا الرجل؟ إذا تلوث اسم الفندق مرة، فإنهم سيفتحون أعينهم عشرة على عشرة في أصغر قضية، ولن يشربوا حتى القهوة، وسيأتون للتفتيش كثيراً، ويقلقون راحة الزبائن، وإذا انتشر هذا الخبر، فعليك أن تغسل يدك من الزبائن!

قال: "برأيي، دعوا هذه اللعبة!"

غضب المحافظ المتقاعد: "ما السبب؟"

"سيعمم اسم فندقنا، وبعد ذلك، كل يوم مداهمة، وتفتيش، وهذا وذاك. وهذا لا يناسب الزبائن أبداً. وليس هذا الفندق الوحيد في اسطنبول البالغة كل هذا الكبر، وعلى البوسفور البالغ كل هذا الطول!"

لم يكن الكلام يدخل إلى أذن المحافظ المتقاعد: "هل أنا المدير الإداري للفندق؟"

"من هذه الناحية صحيح.."

وإذا كان قد غضب من عبارة: "من هذه الناحية صحيح"، فقد ضبط نفسه، وقال: "اعمل ما أطلبه إذاً!"

ذهب ثريا من دون رغبة، وأخذ عشر قطع من فئة المئة من خزنة الفندق واعطاها لهما، دون المحافظ السابق أرقام القطع النقدية، ووُقع عليها، وسلمت لثريا. وذهب ثريا دون رغبة إلى مطعم الفندق.

كان الأشخاص الخمسة يأكلون ويشربون. عندما رأى الجمل ثريا قادماً من بعيد، قال: "إنه قادم."

نظروا إليه جميعاً.

سأل قدرت البركان: "من كان صاحب البطن الكبير قبل قليل؟"

"أما قال لكم إنه المدير الإداري للفندق ياه!"

"وهذا؟"

"وهذا يجب أن يكون مساعده.."

اقترب ثريا منهم: "هل تأمرون بشيء آخر؟"

سأل الجمل: "الرجل المسن الذي كان قبل قليل، هل هو المدير الإداري؟"

قال ثريا: "نعم."

"وحضرتك؟"

"أنا مساعده يا سيدي. هل تسمحون لي بدقيقة؟"

نهض الجمل، وذهب إلى جانب ثريا. لقد شعر بشيء ما. إنه يشعر. وهل هو جديد في هذه الأعمال؟ إنه يتجول في هذه الطرق منذ خمسة عشر عاماً على الأقل. هل هذا يعني أنهم أصابوا الهدف بالضبط؟ لابد من إنهم يعملون بالدعارة.

انتقلا إلى طاولة أخرى. لم يكن ثمة ضرورة للف والدوران، وإطالة الحديث. بدأ الجمل بالحديث مع رفع الكلفة فوراً: "أنا مدرك لوضع فندقكم يا سبعي.. أنا لدي علم بالألاعيب التي تدور هنا. ولكنك الآن لا تشبه حالتك الساذجة قبل قليل، لذلك أعجبتني. إذا تفاهمنا، فإنك سترتاح فيما بعد!"

قال ثريا: "حسنٌ."

"في وضع غير هذا، سيؤلمك رأسك!"

"أعرف يا سيدي. قلت هذا، ولكن الرجل لا يعرف بهذه الأمور. هل يمكن أن يكون محافظ متقاعد مديراً إدارياً لفندق؟ يقول إنه سيقوم بعمل ما. هل اتفق معكم على ألف ليرة؟"

"نحن قلنا ألفين، ولكنه أصر على الألف.."

"برأيي هذا خطأ. أصحاب منشآت كهذا لا يتهربون من دفع النقود. ما أعرفه أنا، أنه لا يجوز اللعب مع أمثالكم!"

سأل الجمل: "أي لعب؟"

"لا تقولوا إنكم سمعتم هذا مني، فقد أخذ أرقام القطع النقدية بحسب معرفته!"

قال الجمل: "ياا! هات هذه المئات أنت. وليذهب هو، ويشكي همه لمن يشاء.."

أخذ المئات العشرة، ودسها في جيب بنطاله، وقال له: "تعال وخذ إيصالاً!"

كان أصدقاؤه ينتظرون بفضول على الطاولة. قال لصاحب الدفتر الكبير: "اقطع إيصالين كل واحد بخمسمئة ليرة."

قطع صاحب الدفتر الكبير إيصالاً بخمسمئة ليرة لقاء دعاية للفندق في جريدة "صوت الكسبة" لمدة عام. ثم قطع إيصالاً آخر بخمسمئة ليرة لقاء دعاية للفندق في جريدة "أخبار العمل والعمال" لمدة عام أيضاً.

"وقع هنا يا سبعي!"

وقع ثريا. وهكذا كانت الألف ليرة هي لقاء دعاية للفندق لمدة عام في جريدتين: "انزع الإيصالين، وأعطهما للسيد.. ها، انتهى!"

كان ثريا واقفاً وبيده الإيصالين.
تناول الجمل كأس العرق، ورفعه: "أنا سعيد منك كثيراً، بصحتك!"
"صحة وعافية يا سيدي."
"قل لذاك الغشيم، ليذهب، ويصدق أرقام النقود عند الكاتب بالعدل، مفهوم؟"
أخذ ثريا الإيصالين ووضعهما في خزنة الفندق.
جاءت الشرطة بعد قليل، وفتشتهم، ووجدت النقود المأخوذة أرقامها من قبل في جيب بنطال الجمل، ولم يحدث شيء. لأن تلك النقود قد دفعت لقاء إعلانات سنوية للفندق في جريدتين بموجب إيصالين. الإيصالان موجودان، وهما موقعان من قبل مساعد المدير الإداري.
ولكن قدرت البركان..
"أي منكم قدرت البركان؟"
قال "مفتش المفتشين": "أنا."
"تفضل معنا.."
بينما كان يلقي قطعة سمك استاكوز بيضاء في فمه بالشوكة، قال: "السبب؟"
قال الشرطي: "ستعرف في المكان الذي ستذهب إليه!"
قفز عن الطاولة غاضباً: "من أنتم؟ بأي حق، وأي صلاحية.."
أخرج الشرطي هويته، وبعد أن أراه إياها، قال: "لا ضرورة للصخب رجاء. تفضل!"
تبدد احتيال قدرت البركان كله في لحظة، وبينما كان يمسح فمه بالمنديل وهو يفكر، دبت الحيوية في مجموعة صور بقيت كالظلال بعيداً

جداً: خمارة صغيرة، سبع وستون ليرة ونصف، ثم الحوذي مصتق الأقرع، والمطعم، وبعد هذا صاحب الفندق الطويل النحيل، وزوجته الشرعية، وذهبيات زوجته الشرعية..

تُرى هل تقدمت سما بشكوى؟

تنهد.

نظر إلى وجوه أصدقائه بحزن. لم يكن الجمل يضحك. إدريس يفكر، والآخرون مندهشون. هذا يعني أن هناك جرماً يتعلق به فقط؟ يخشى أن يؤدي هذا إلى السجن؟ حسنٌ، ولكن أمه؟ ماذا عن أمه التي ليس له غيرها؟ كانت مريضة، وطريحة الفراش. يجب أن تعطى الإبر. من سيعطيها الإبر إذا أدخلوه السجن؟ شهوار؟ هذا غير ممكن، حتى إنها لا تفكر بهذا مجرد تفكير. ومن عند المرأة الآن؟ آه، لو كان الآن بجانب أمه التي ليس له غيرها، وكانت يدها الجافة القافزة عروقها الزرقاء الداكنة بين راحتي يديه.

....

كانت اليد الجافة البارزة عروقها الزرقاء في تلك اللحظة قد ارتخت، وتدلت عن السرير الذي كانت تتمدد عليه. هل هذه اليد يدها؟ هل يمكن لابنها أن يضع تلك اليد بين راحتيه، ويداعبها؟ إنها لا تتذكر أبداً، حتى إن كان قد حدث أم لا. وهل كان لديها ولد؟ هل اسمه قدرت؟ هل كانت كنيته البركان؟ أمر عجيب. إنها لا تتذكر شخصاً كهذا، وليس ابنها فقط، بل كنتها وأحفادها أيضاً. هل هي الآن في اسطنبول؟ هل يسكنون في الطابق الثالث من بناء لا تدري اسمه، وفي حي مشهور جداً من أحياء اسطنبول؟ هل كانت تعمل في وقت ما عند

بائع ملح؟ هل كان يعطيها ابنها سراً كل شهر خمسين ليرة، وتعطيها هي لكنتها؟ لا تتذكر أبداً، أبداً. وماذا عن إفاقة دوردانة التي تسكن في الطابق السفلي، والتي تشاجرت قبل قليل مع كنتها، وشدت كل منهما شعر الأخرى، وانتهيا في المخفر؟ لا تتذكر هذا أيضاً. لم تعرفها أبداً. من هذه؟

كأن النور الذي يغوص ببطء في المياه المظلمة سفينة. زوجها فقط. إذا لم يكن واضحاً كما في أحلامها، فهو كظل مرتجف. يناديها قائلاً: "تعالي!.. أنا وحيد جداً، أشعر بالبرد، وأتجمد. تعالي وأدفئيني يا زوجتي العزيزة!"

ستذهب، ستذهب.. من لها غيره؟ ستذهب بالتأكيد. فهو زوجها حتى لو كان يشرب أحياناً، ويصرخ، ويعربد، ويجرح قلبها. ستذهب بالتأكيد. كيف لا تذهب؟ يغضب منها، ويصرخ، ويعربد. وليس مهما أن يهرب مع فتاة رومية إلى أثينا في زمن ما. فالرجل لا يدنسه شيء. تمد يدها ليد زوجها الممدودة إليها. تتماسك اليدان، وتسحب من يدها. إنها تنزلق ذاهبة نحو زوجها دون اهتزاز، مثل الزيت، وانزلاق رمادي سريع وبطيء في آن واحد. ولكنها تذهب...

"أي.. يا أمي، أذناها صفراوان!"

جواب شهوار المشاكس من الداخل: "لتفطس!"

إنها تسمع. من ناحية السمع، فهي تسمع، ولكنها لم تفهم.

من قال: "أي.. أمي، أذناها صفراوان!"؟

ومن أجاب: "لتفطس!"؟ هل إحداهما حفيدتها، والأخرى كنتها؟ هل هي كنتها التي زوجتها باهتمام كبير لقدرت ابنها وصغيرها المنحدر

من نسب الباشاوات؟ هل هي الآن عدوة دم وحقد مع المرأة التي انتهى شجارهما في المخفر؟ إنها تنزلق، إنها تنزلق باستمرار نحو زوجها!

أما أليف فقد كانت تحملق بجدتها دون أن تحرك عينيها. هل سيأتي يوم تغدو فيه هي أيضاً جدة؟ وهل ستصفّر أذنيها هكذا؟ وهل ستبرز عروق يديها زرقاء داكنة على هذا النحو؟ ولكن لا، لا.. لن تغدو على هذا النحو يوما. لا تريد أن تكون هكذا، حتى بالقوة؟

بحركة رأسها ألقت خصلة الشعر المنسدلة على جبينها إلى الخلف. وتركت جدتها التي تتنفس بشكل بطيء ومريح، ونادت: "أمي!"

كان جواب أمها التي تجلس في غرفة نومها مع ربطة شعر سما، وحبساتها، وقطع القماش الباقية منها: "ماذا هناك؟"

"أنا ذاهبة."

كانت تنتظر أن تقول: "إلى أين؟" أو "حدك قعر جهنم!"، ولكنها لم تقل. ماذا يحدث لو قالت، وماذا يحدث إن لم تقل؟ انطلقت من باب الشقة، وبينما كانت تهبط الدرج بسرعة، انزلقت عينها إلى داخل شقة السيدة إفاقة عبر الباب الموارب. لم تكن موجودة، ولكنها قذرة حقيقة!

"يا سيدي رئيس المخفر، يا سيدي رئيس المخفر، أنا امرأة أرملة. هذه البنت، أليف هذه التي بطول ساقي، وقفت أمامي، وقالت: 'هل صحيح ما سمعته يا سيدة إفاقة؟'، 'أنت عاشقة؟'، عاشقة أو لا، ما علاقتها؟ وهل من مسؤوليتها أن تبحث في قضية عشقي؟ أنا أيضاً إنسانة يا ابني حضرة رئيس المخفر. وأنا لدي مشاعري، ورغباتي. من المعيب قول هذا، ولكنني أشعر أنني أفضل من الصبايا. لو لم أكن هكذا، فهل كان السيد قدرت... يا سيدي، ويا عزيزي، لو كانت شهوار

امرأة مثل بقية النساء، فهل كانت تدع زوجها بحاجة الجيران؟ كرماً لله، أليس هذا صحيحاً؟ غير هذا فإن الرجل ليس مستاء من زوجته فقط، بل من أولاده أيضاً. لقد عرض علي الهرب معي يا جماعة، الهرب! قال لي لنبن بيتاً في أطراف المدينة يا عزيزتي إفاقة. ولنهرب أنا وأنت. أنقذيني من هؤلاء!"

"وشت يا كلبة! أنت فوق الستين، فوق الستين. أما أنا فقد أكملت الأربعين حديثاً يا فائحة الرائحة!"

"هه، هه، هه.. كرماً لله ليقل من يرانا من هي الفائحة رائحتها. أنا فوق الستين، ولكنني لم أتحول إلى قطعة حطب جافة في الأربعين!"

"أنت قطعة الحطب الجافة!"

"أنا مثل فتاة شابة، مثل فتاة شابة. لم أنشيء أولاداً كلا منهم مثل الخازوق. أنا لم ألد أبداً، ماذا عنك؟"

"لهذا تلعبين لعبة اللصوص الذين ينزلون إلى بيتك.. لا تجعليني أفتح فمي!"

"سلامة روحي. لا أعشق بنات الناس ياه! إذا كنت قد عشقت، فقد عشقت رجلاً محترماً وسيماً لا تتسع له الأبواب، أهملته زوجته. وهو عشقني أيضاً. فهل هذا عيب؟ كوني إنسانة، واخرجي من بيننا، ولنتبادل الحب مثل القمريات!"

"يا وقحة!"

"ماذا يوجد يا بامياء جافة؟"

"..............."

"..............."

ألقت أليف خصلة شعرها المنسدلة على جبينها نحو الخلف من حركة برأسها كما تفعل دائماً، ودخلت إلى دكان البقال عاكف: "مرحبا يا إدي قسطنطين!"

كان البقال وحده: "واه يا مارلين، كيف أخبارك؟"

"علكة، أعطني علكة!"

"ماذا حدث في قضية العجائز؟"

"صالحهما رئيس المخفر، وتخلتا عن دعواهما. هيا، طلبت علكة ياه!"

"هل تحدثنا بقيمة علكة يا بنت؟"

"إيه.. هيا!"

لم يعطها البقال العلكة الأمريكية التي تناولها من الواجهة الزجاجية فوراً: "هذا يعني أنهما اصطلحتا؟"

"ولكنهما تبهدلتا أمام الحي!"

"وأبوك؟ ما هي أخبار أبيك؟"

"لا تجعلني أبدأ بأبي الآن ها!"

"ولكن ظهر أن لا ذائقة له، أليس كذلك؟"

التقطت العلكة من يد البقال: "جداً!"

وبينما كانت تنزع ورق النايلون عنها: "و.."

"وماذا؟"

"خمس ليرات!"

"خمس ليرات؟"

"خمس ليرات، ماذا هناك؟"

"لا تكوني؟"

"لا تتكلم كثيراً!"

"حسنٌ، ماذا ستفعلين بالخمسة؟"

"سآكل قطعة كاتو."

"وإذا أردت أن آكلك أنا أيضاً؟"

مدت له خدها.

تفقد البقال ما حوله، ثم قبل الفتاة من خدها. وهمس: "ادخلي إلى المستودع!"

"دخلك.. هيا ياه!"

"ماذا؟"

"الخمس ليرات!"

"ولكنك ستدخلين إلى المستودع؟ إذا دخلت، فأعطيك بدل الخمسة عشرة، ولا أسجلها على حسابكم!"

ليس مهما تسجيلها أو عدم تسجيلها على الدفتر. فهي لم تدفع حتى الآن ما سُجل على الدفتر!

قالت: "أنت أعطني الخمسة، وسجلها على الدفتر!"

- ٢٣ -

كانت الجرائد قد نشرت وبالخطين العريض والرفيع في اليوم التالي: "شخص ضخم ذو هيبة يدعى قدرت البركان انتحل شخصية مفتش، وفتش المطاعم التي تقدم المشروبات، والفنادق في إحدى محافظات الأناضول، وسحب منهم نقوداً. وقد قبض عليه وهو يتناول الطعام مع أصدقائه في مطعم فندق على البوسفور" وصل الخبر إلى أربعة أرجاء البلد، ولكن هذا لم يترك أثراً على المواطنين الذي اعتادوا على أمور من هذا النوع. كثيراً ما تُقرأ أخبار أطباء وقضاة وضباط مزورين في الجرائد، ويُضحك منها، ثم تُنسى.

في هذه الأثناء ثمة من قال: "واخ من قليل الشرف هذا!" وهناك من قال: "كرماً لله، حلال على هذا الرجل!"

مرة أخرى كانوا ينظرون إلى صور قدرت البركان في الجرائد التي تصدر في مختلف مناطق البلد، ويُقال: "ولاه، هذا الرجل حقيقة ضخم ومهاب. لو أنه ترشح لعضوية البرلمان عن أحد الأحزاب، وألقى خطباً كثيرة على الشعب، ويغدو نائباً، ثم يغدو وزيراً بدلا من أن يدخل في هذه القضايا، أما كان أفضل له؟"

أما شهوار، فقد قالت: "الله يبعث لك البلاء يا سواد الوجه.. من

يتنازل لامرأة بعمر أمه، يتنازل لأي سفالة. ليس لي زوج كهذا. ليأخذ ما يستحق!"

والسيدة إفاقة التي تصبب الدموع تقول: "تلك المرأة هي التي أوصلته إلى ما وصل إليه. لو كان زوجي، والله وبالله لأطعمته لبن العصفور!"

قال الجمل: "قواد مخبول! من يعلم كم جبا، وهو يخفي هذا عنا. إيه.. ليس لدى الله أصبع لإدسه في عينه، وأفقأها له! إنه ينال عقاب خيانته لأصدقائه. يستاهل!"

أما الحوذي مصتق الأقرع فيدور في المدينة، ويقول لكل من يأتي أمامه صاخباً: "كيف؟ ألم أقل لكم؟ ولاه، نظرت إلى الرجل، لا يبدو عليه حاجاً. ركضت إلى مدير الأمن، وقلت له يا سيدي، الأمر كذا، وكذا. قال لي: اصبر يا مصتق، لا تظهر هذا. في الوقت المناسب."

نصبت المدينة هوائياتها، وهي تنتظر "مفتش المفتشين". لو عرفوا في أي وقت سيصل لانتظروه بالبيض الفاسد والبندورة والصفائح، ولكن لا يُعرف في أي يوم، وأي ساعة سيأتي.

ذلك المساء اجتمعوا مرة أخرى في الخمارة الصغيرة الواقعة على أطراف المدينة. الجميع عدا الخمار يحكي ما يخطر بباله. أما الخمار فيستمع فقط، ولا يتدخل بالحديث. لأنه قدم إفادة عند المدعي العام. طار صوابه. كيف وقع "الرجل"، وحتى الآن لا يعرف كيف طار الخبر إلى المدعي العام.

"عندما نزل من القطار، سآخذه من أيدي الدرك.."

"إيه؟"

"يجب أن يهشم فمه وأنفه!"

قال صوت مبحوح من بعيد: "لماذا؟"

"الكافر تقمص شخصية المفتش..."

" لقد ابتلعتها !"

"ألم تبتلعها أنت؟"

"ابتلعتها، حلال عليه. وأنتم أيضاً ابتلعتموها، وتنفسون عن غضبكم. الشطارة بعدم ابتلاع الأمر نهائياً، وعدم التصديق فوراً. عندما تصدقون كل من يخرج أمامكم، هكذا تكون النتيجة!"

قال آخر: "دخلك، ما الذي يتغير صدقنا أم لم نصدق؟ هذه الدنيا عجلة احتيال. دوّر عجلتك، وكيف ما أردت دورها!"

"..............."

"..............."

الجميع يتذكر قدومه في تلك الليلة: كانت الساعة نحوالتاسعة والنصف ليلاً.. دخل بوقع قدميه: ظط، ظط، ظط. استجمع أنفسهم جميع السكارى، وحتى السكارى إلى أبعد الحدود. واخ من أمه، من هذا؟ هل هو محافظ؟ أم نائب؟ أم أنه رئيس حزب؟ قبعته بنية، وطقمه بني مخطط بالأسود، وربطة عنق حمراء مخططة بالأسود مربوطة عقدة كبيرة على ياقة قميصه المنشى..

هكذا كان يجلس أيضاً في القاطرة. تراكم الدهن على ياقة طقمه البني المخطط بالأسود، واتسخت ياقة قميصه المنشاة، وطالت لحيته. برغم كل شيء كان مهاباً. مرة أخرى كان يشع بشعور "الرجل الكبير"، ولا يستطيع إقناع أحد بأنه "مذنب".

برأي رجل الدرك الذي على اليـــســـار من رجلي الدرك المسلحين اللذين يجلسان على جانبي الرجل: "لابد أنه تعرض لافتراء. هذه الهيبة، وهذا القوام.. من يعلم أي دروس تلقى وفي أي مدارس؟ لو أنهما فكا القيد الذي بمعصميه، فما ضرورته؟"

قطب رجل الدرك الذي على اليمين حاجبيه غاضباً: " قد يكون تعرض لافتراء. ولكن بالنسبة إلى فك قيده... فقد نبه القائد بحزم، وقال إن عليهما أن ينتبها، لأنه من الممكن أن يهرب. حتى لو لم يهرب، فهناك تنبيه القائد الحازم..."

"يا روحي، القائد بقي بعيداً في اسطنبول، من أين سيعلم؟"

"لو لم يعلم، فالقائد قائد!"

أما قدرت البركان فلم يكن ينظر إلى الدركيين، بل إلى ظلام الليل الدامس عبر نافذة القاطرة. لم يعد يهمه الجميع، ولكن هل سمعت أمه بهذه السفالة يا ترى؟ سيرتفع ضغط المرأة وسكرها، وتسوء حالتها. ارجو من الله أن لا يخبروها. ثم إبرتها... شهوار، والصبيان، والبنت.. هل يتذكرون هذا يا ترى؟ هل يبقى أحد منهم عندها؟ لو أنه الآن الى جانبها، ويضع يدها البارزة العروق الزرقاء بين راحتيه، ويداعبها. كان توقيفه وحده في الفندق الذي على البوسفور أمر غريب. كان مدركاً أن قنبلة "تفتيشه وجبايته" قد انفجرت في تلك المدينة الخامدة المليئة شوارعها بقذارة الحيوانات. من؟ كيف أخبرهم؟ يفهم من إرساله إلى مكان ارتكاب الجرم بأن الأدلة قوية؟

أسند رأسه إلى خشب نافذة القاطرة.

تك، تك، تك، على السكة التي في الأسفل...

كان الليل يتعمق ممتداً.

لحظة أراد أن ينام، قال له الدركي الذي على يساره: "يا سيدي. يا سيدي المحترم!"

التفت دون رغبة ونظر: "ماذا يوجد، قل يا ابني؟"

"مد يديك، لأفك قيدك!"

كان منهاراً بشكل رهيب. ماذا ينجم عن فك القيد؟

"تسلم يا ابني. إذا فككتها فماذا سيتغير؟"

"لماذا يا سيدي العم؟"

"هل لديك أم؟"

كان لكل من رجلي الدرك أم.

قال الذي على اليسار: "لي!"

"هل هي مريضة؟"

"لا، ولله الحمد..."

"لو كانت أمك مريضة، وليس لديها غير اليوم أو غداً. وخرجتَ في طريق، أو أخرجوك، ماذا تفعل؟"

تبادل رجلا الدرك النظر فيما بينهما. تذكر كل منهما أمه التي في القرية.

سأل الدركي الذي على اليسار: "هل أمك مريضة؟"

"وهي على فراش الموت يا ابني!"

قال الذي على اليسار: "واه يا سيدي، واه.. ما هي جريمتك؟"

"الحكاية طويلة يا ابني."

"هل افتروا عليك؟"

"قل ما تريد أن تقوله."

تبادل رجلا الدرك النظر مرة أخرى.

دخل القطار محطة صغيرة وهو يطلق صفارته. توقف، وبعد قليل تحرك مرة أخرى. فك رجلا الدرك قيده. لا يمكن أن يأتي أي ضرر من هذا الرجل. واضح أنه تعرض لافتراء.

قال: "تسلما يا شباب. تسلما يا ابناي!"

لم يكن يبدو أنه مؤذٍ إلى حد أنهما تركا بندقيتيهما على الرف وخرجا.

كان رأس قدرت البركان مستنداً إلى خشب نافذة القاطرة، وعيناه شبه مغمضتين، وأمه أمام عينيه شبه المغمضتين. خطر بباله أن يشعل سيجارة، لم يكن معه سجائر. أشعل سجائره واحدة تلو أخرى في اسطنبول، وأنهاها. ولكن سيجارة! آه لو كان معه سيجارة!

كان الدركيان ينحنيان على نافذة المقطورة ويدخنان وهما ينظران إلى ليل السهل. لا يمكن أن يذهب إليهما، ويطلب منهما سيجارة!.

الكاتب

اسمه الحقيقي محمد رشيد أويوتشو. ولد في أضنة عام ١٩١٤، وتوفي في صوفيا عام ١٩٧٠. هو ابن عبد القادر كمالي الذي كان عضواً في الدورة الأولى لمجلس الأمة التركي الكبير. اضطر لترك المدرسة في الصف الثالث الإعدادي بسبب هجرة أسرته إلى سورية. حكم بالسجن مدة خمس سنوات عام ١٩٣٩ خلال خدمته العسكرية لأسباب سياسية. في هذه الفترة تعرف إلى ناظم حكمت، وأثرت علاقته بناظم حكمت بمفهومه الاجتماعي. توفي في صوفيا حيث ذهب للمعالجة هناك.

تناول في أعماله الناس الصغار الذين يعانون من صعوبات الحياة، وجسّد صعوبات حياتهم. اتبع نهجاً تحذيرياً وتوجيهياً وواقعياً اعتقاداً منه بأن هذا يساعد الشعب على حياة أفضل. تناول في أعماله الأولى مشاكل عمال الزراعة والصناعة في منطقة تشكوروفا في إطار يعتمد على حياته الشخصية. في ما بعد صور حياة أناس اسطنبول في الأحياء الهامشية المتطرفة، وعالم العمال هناك.

كما كانت مشاهداته في السجن مادة هامة لأعماله. من هذه الأعمال: "المهجع ٧٢"، وهي مسرحية مثلت عام ١٩٦٧، وحازت في ذلك العام جائزة أفضل نص.

أعماله: مرتضى، الكنة، دنيا غريبة، ابن الأزقة، مفتش المفتشين، المحتال، صراع الخبز، المهجع ٧٢، دكان الأغراض المستعملة، جميلة، ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت، فوق أراض خصبة، بنت من الأزقة، ثمة جريمة، مزرعة الست، المذنب، بيت الدنيا (الزواج)، طريق السوء، غيوم محملة بالمطر، قرطان أحمران، الممثلة، إضراب، المليونير المتسكع- دمعتان، طيور الغربة، أحد البيوت، الهارب، أراض مدماة، صفير صديق، طائر الدولة (الحظ الطيب)، كان ثمة فلز، سنوات البؤس، السكارى، بيت الأب، بنت الغسالة، الخبز أولاً، الدنيا المقلوبة، خطوط من اسطنبول، الكتابة بأقصى سرعة (يوميات وشعر)، الأعمال المسرحية الكاملة (في جزأين)، تقنية السيناريو، وسيناريوهات.




لوحة الغلاف: للفنان رياض نعمة
من عمق الريف التركي الى قاع المدينة ينتقل أورهان كمال
ليرصد عالم المهمشين وحكاياتهم وأوهامهم وخوفهم،
وأحلامهم التي تتحول إلى كوابيس.
شخصيات حية في هذه الرواية تنسج حولها أساطيرها
الشخصية وتمزق الأقنعة المزيفة في حياتها اليومية.
علي مولا
ISBN 2-84306-020-X
9 782843 080203